شجرة الحور الفضية

قصص من الأدب الروسي المعاصر

ليديا صيتشوفا وآخرون

ترجمة

د. باسم الزعبي

دار نشر

أنباء روسيا

Russian News

www.russiannewsar.com

الناشر

أنباء روسيا
Russia News
www.russiannewsar.com

رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير
د. حسين الشافعى
secertary_ert@yahoo.com
المراسلات
القاهرة – مدينة العبور
44971 مكتب بريد جمعية أحمد
عرابي ـ ص. ب. 72
Tel. & Fax: + (202) 24698170 & 071
+ (2) 01006774027

الإخراج الفني/ أحمد عثمان

خط حر / أيمن العيسوي

الطباعة
دار الطباعة المتميزة
مدينة العبور – القاهرة
Tel. & Fax: +(202) 4478 96 44 & 46

الطبعة الأولى 2017
دار نشر أنباء روسيا

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر.
لا يحق إعادة طبع أو نسخ محتويات هذا الكتاب
إلكترونياً أو ضوئياً دونما إذن كتابي من الناشر.

رقم الإيداع

3979 / 2017

بالتعاون مع

المؤسسة المصرية الروسية
للثقافة و العلوم
Египетско-российский
Фонд культуры и наук
www.a-rfcs.org

شجرة الحور الفضية

شجرة الحور الفضية (قصص من الأدب الروسي المعاصر) .
ليديا صيتشوفا وآخرون .
ترجمة: د. باسم الزعبي (مترجم وقاص أردني) .
الطبعة الأولى: ٢٠١٧ .

Серебристый Тополь
Избранные Современные Русские Рассказы
Лидия Сычёва и др.
Перевод- Басим Аль-Зуби

دار نشر

أنباء روسيا
Russia News
russiannewsar.com

www.russiannewsar.com

إلى الإنسان فينا الذي لم يتلوّث عقله وضميره بالكراهية،

إلى اليد التي تمتد مصافحةً،

إلى القلب الذي ينقلبُ ابتسامةً تروي عطش الغريب.

تقديم

عند بحيرة الإلهام الفضية

ليديا صيتشوفا

من هو الشعب الروسي؟ كيف تمكَّن من بناء أكبر دولة على الأرض؟ما هي الأفكار والقيم التي توثِّق عرى هذه الإمبراطورية متعددة الأعراق في وحدة واحدة؟

الأدب هو وجه الثقافة الروسية، تماماً كما هي الفلسفة تُعتبر وجه الثقافة الألمانية، والتصوير الزيتي يُمثِّل إيطاليا، والسينما تُميِّز الثقافة الأميركية. إذا أردتم أن تعرفوا روسيا فما عليكم إلا أن تقرأوا أدبها، أن تقرأوا أدباءها. المصائب والأفراح، القلق والحزن، النهوض والسقوط، العمل والتفكير- كل هذا نجده في الكلمة، أغنى مصدرٍ للحياة الشعبية. يقول مفكِّرُ القرن التاسع عشر الروسي نيكولاي ستراخوف: «كلُّ كاتب يعبِّرعن روح الشعب بهذه الدرجة أو تلك، بهذا الشكل أو ذاك؛ هذه هي التربة المشتركة التي ينشأون عليها. في هذه الحالة يقال هذا الشيء، وفي تلك يقال ذاك، لكن الجذر واحد. روح الشعب هو ما نسمِّيه نحن القوة الخفية، التي يعتمد عليها ظهور الروح الإنسانية بكل ما في جذورها من رسوخ.

الكاتب الوطني الشريف يقول عن شعبه أكثر بكثير، وأدق مما تقوله الأبحاث العلمية والاجتماعية، وأكثر من ديناميكية تطوُّر الاقتصاد، وعدد البوارج والصواريخ. يَظهر سرُّ الروح الروسية المحيّرة في أدب ليف تولستوي، وثيودور دوستويفسكي، وإيفان تورغينيف، وأنطون تشيخوف وميخائيل شولوخوف. هؤلاء كتاب عالميون، لم تُقرأ كتبهم في مختلف مناطق العالم وحسب، بل وقلَّدوهم، وتعلموا منهم، ونافسوهم.

كان القرن التاسع عشر هو العصر الذهبي للأدب الروسي. القرن الذي تلاه شهد انتصار الاتحاد السوفيتي السياسي وصعوده، ثم انهياره المدوي، نهوضه الثوري، وانتصاره في الحرب العالمية الثانية على أوروبا التي وحّدها هتلر، ثم التَّهتك الذي أصاب البلاد سنة ١٩٩١. عكَسَ أدب المرحلة السوفيتية قدرةَ وقوةَ الدولة العظمى، التي فتحت الطريق نحو الفضاء. كانت هناك أخطاء، ومصائر تراجيدية دموية أيضا، وقد حُفظت بالذاكرة والكلمة المكتوبة.

وقد كان الاتحاد السوفيتي- فترة الصداقة بين الشعوب، وتربية إنسان المستقبل، الذي كان أهم شيء بالنسبة له: السلامُ على الكوكب، العدلُ والمساواة، والأخوة. في قاعات الجامعات اجتمع طلبة من آسيا وإفريقيا، وأميركا اللاتينية، والشرق الأوسط! كان زمناً سعيداً!.. فتح ذلك الزمن آفاقا للعيش المشترك غير تلك التي نراها اليوم. وقد اكتسبت لغة تشيخوف وتولستوي، وبفضل «الشَّباب السوفيتي»، قرّاءً وأنصاراً جداً. تعتبر الثقافة الروسية الكلاسيكية ثروةً لا تُقدَّر بثمن، وهي ستكتسب قوةً جاذبةً ما بقي الناس الذين يجذبهم جمال الكلمة يحيون على هذه الأرض...

لكن ماذا بشأن القرن الحادي والعشرين؟ ماذا يحدث للأدب الروسي اليوم؟ وبشكل أوسع، ماذا يحدث مع الشعب الروسي، واللغة الروسية؟ ومع مصدر الأدب الرئيسي- فن الكلمة؟، القصة الروسية المعاصرة تقدِّم الإجابة الدقيقة على هذه الأسئلة.

توجد مواهب كثيرة في الأدب الروسي. تظهر كلَّ يوم عشراتُ الكتب، وتصل المؤلفات الأدبية الفنية في العام إلى ثلاثين ألفاً تقريباً، عدا عن كتابات الإنترنيت، التي لا تُعدُّ ولا تحصى! لا يستطيع تقدير صعوبة انتقاء ما هو مناسب للترجمة إلا من احتك بسيل الكتابات الروسية المعاصرة.

هذا الكتاب يُقدِّم للقارئ باقةً متعددة الألوان من الأسماء والاتجاهات الأدبية. يجدر بنا أن نُقدِّم لصاحب مشروعِ الترجمة هذا، الدكتور باسم الزعبي

ما يستحق من تقدير: فهو كاتب من الطراز الرفيع (إبداعاته معروفة للقارئ الروسي من خلال ترجمات الكسندر أندروشكين)، وهو يمتلك ذوقاً رفيعاً، وصبراً عظيماً، أتاحا له اختيار النصوص الأكثر تميزاً، والتي تعبّر بشكل دقيق عن الحياة الروسية المعاصرة بكافة تلاوينها من بين آلاف القصص.

سيجد القارئ في هذا الكتاب غنىً في مصادر العالم الروسي: هنا يوجد كتّابٌ ولدوا في أقصى شمال روسيا، وفي آسيا الوسطى، ومن الأورال، ومن منطقة البحر الأسود، ومن موسكو، ومن الجمهوريات التي استقلت بعد انهيار الاتحاد السوفيتي. هنا تجدون أبناء المدن وأبناء الريف، الفنانين والعلماء، المهندسين والصحفيين. كلهم أدباء ساحرون، تركوا بصمتهم في الأدب الروسي. بعض المشاركين يعيش اليوم خارج روسيا، في أوروبا وأميركا، دون أن يقطعوا، بالمناسبة، صلتهم بوطنهم. الخيط الذي يجمع كل هؤلاء مع وطنهم هو. الكلمة الروسية. إنّها توحّد أيضا الكتّاب غير الروس بالولادة. مثل هؤلاء الكتاب احتلوا مكانا في هذا الكتاب.

في الكتاب اجتمع كتابٌ معروفون جيداً في روسيا، وكذلك كتّابٌ جُدد، وبين دفتيه اجتمع ممثلو أجيالٍ متعدِّدة من الأدب الروسي. هنا تجدون التقليديين والحداثيين، الواقعيين والتجريبيين. وجمعَ الكتابُ أحياءً وراحلين أيضا، يتعرَّف القارئ على ذلك من خلال النبذات الذاتية الخاصة بالمؤلفين. مثل هذا الكتاب كان يمكن أن يكون حدثاً استثنائياً حتى في روسيا، وهذا يدُلُّ على النظرة الأصيلة، والدقيقة التي مكّنت الدكتور باسم الزعبي من تقديم مختارات متميزة من دون شك.

ارتبط الأدب الروسي ارتباطاً وثيقاً بتاريخ الدولة الرُوسية، إذ تتجلى فيه بوضوحٍ إرادة، وعقل، وروح الشعب. الروس هم أكبر شعب سلافي في العالم، يعيش على أطراف أوروبا ويمتد بعيداً في أعماق آسيا. تأثرت الدولة الروسية بالغرب كثيراً، وهذا التفاعل أحدثته الطبقة الحاكمة في البلاد. لقد فهم الأوروبيون أصالة الروس، ووطنيتهم الحقيقية على أنها تخلُّف. وقد

شـاطرتهم، غالباً، الطبقة الحاكمة في روسـيا، التي كانت مستعدة للتخلي عـن تقاليدهـا، ومعتقداتهـا، وأيديولوجيتها، ومؤسسـاتها السياسـية، هذه النظرة، مقابل «التساوي» مع الغرب، «والحداثة»، وبلوغ « التقدم». كثيراً ما كان مثل هذا الانقسام في المجتمع الروسـي يقود إلى نتائج تراجيدية، آخرها كان انهيـار الاتحاد السـوفيتي. ونتيجة لذلك أصبح الشـعب الروسـي أكثر شـعوب العالم انقساماً، وهذا ما أضعف من دون شك من معرفته لذاته، وشعوره بها، وبقواه الإبداعية، وبإمكانيّاته الإرادية.

يعتبر الأدب أعمق تعبير عن روح الشـعب الروسـي، وهو يعكس حالته التراجيدية. ومن حيث الجوهر يوجد في الوقت الحاضـر أدبان في روسـيا. كتب الفيلسوف الروسـي ثيودور غيرينوك في إحدى مقالاته: «الكلمة اللوغوس(*) تنحـى نحو العلامة، نحـو التواصل مع الآخر. الكلمة الميثـوس(**) تنحى نحو الصورة، التي يكمن في أساسـها العمل الذاتـي. كما أن الكلمة الميثوس لا تكـذب أبدا، إنها دائما حقيقية، تصلنـا كما لو كانت من العالم الآخر. أما الكلمة اللوغوس فإنها تصدر من هذا العالم، إنها أرضـية، دنيوية، يمكن أن تخدع وتقود إلى الضلال.

تفتقد الكلمة اللوغوس إلى الأصالة والقدسـية، إنها عدوانية. وروسـيا اليوم تمر بهجمة شـرسة من المتأ نجلزين (الذين يبجلون اللغة الإ نجليزية على حسـاب لغتهـم الأم): لقد مـلأوا الصحف والتلفزيـون، والإعلانات والشـوارع. عـلاوة علـى ذلك، فـإن اللغة الروسـية الثرية أصبحـت مُهانةً اليـوم من اللغة

(*) أصلهـا يونانـي و هـي مـن أشـد الكلمات أهميّة وأكثرهـا غمـوضـا فـي الفـكر الغربـي الديني والفلسـفي، إذ تدل في سـياقات شـتى على مدلولات متعددة، كالخطاب، اللغة، العقل الكلي، كلمة الإله، من بين معان أخرى. والمقصود هنا اللغة القائمة على النصوص الدنيوية مقابل الميثوس القائم على نصوص أسـطورية.وقد ارتبطت بالثقافة المكتوبة، أي بظهور الحروف الأبجدية. وهي تتميز بالدقة في التعبير، واسـتخدام المفاهيم، واللغة العقلية المجردة، والمنطق، وهي تميّز الأفكار العقلية المجردة، والفكر النقدي.

(**) مـن اليونانيـة والمقصـود هنا اللغة التي تخاطب الشـعور والوجـدان والعاطفة، وتتضمن السـرد الخيالي، و البلاغة. إنها لغة البلاغة والخيال.

الفاحشة، التي تُصوِّر مشاهد غير لائقة. وبالنتيجة، فإن الأدب المؤسس على الكلمة- اللوغوس المنبتة عن الصورة، لا تجد صدىً عميقاً لدى الشعب. القارئ الشعبي «اتجه» نحو روايات الغرام والروايات البوليسية. الهيمنة في الفضاء الشعبي للكلمة- اللوغوس تدفع روسيا قدما نحو النموذج الغربي.

تعتبر الكلمة الميثوس «النظام الجذري» للثقافة الروسية. قوة الإبداع الرمزي تكمن في اللاوعي، لا في الوعي. وقوة الإنسان الجذرية هذه بالتحديد -حريته الحقيقية- هي ما يحاول أصحاب العالم المعولم المعاصر انتزاعها. الصراع مع الفن التصويري- خطوة أخرى نحو نظام حياتي «مسطَّح» آلي، نحو معتقل إلكتروني، يتشكل أمام أعيننا اليوم. فقط الإبداع التصويري المشترك هو المؤهل على استيعاب العالم على اتساعه. الصورة هي الكمال؛ التحليل، العلامة، أما اللوغوس- فهو النقصان، الجزئيّة، عدم الكمال.

الكتاب الوطنيون عبارة عن «شبكة كريستاليّة» للشعب، إنهم مبدعو الصورة، إنهم لا يستسلمون للدعاية (البروبوغاندا) أو للإغواء اللاوطني (الكزموبوليتي). إنهم هم بالتحديد أعداء «العجل الذهبي» في العالم الرقمي الحالي. إنهم هم بالتحديد المدافعون عن الأصالة. لذلك غالباً ما يرتبط قتل الشعور الوطني مع تحطيم مخطط لشخصية الوطن. ومن هنا لا يقف الكتاب الوطنيون حرّاساً للكلمة والثقافة الأم فقط، بل ويعتبرون المنافحين عن الدولة بما في الكلمة من معنى.

يمكن وصف الحالة الأدبية في روسيا بأنها صراع بين استراتيجيتين عميقتين- لا وطنية، تبدأ من تقليد الحضارة الغربية، وأخرى أصيلة، تستند إلى تاريخها الذاتي، وتربتها، وإرادتها، وقوتها. ليست الواقعية أو المستقبليّة، أو ما بعد الحداثة سوى «أردية» تحجب الجوهر- البداية الصحّيّة أو العليلة للأدب، و«جسده» الجميل أو القبيح.

ليست الإجراءات الشكلية، أو المهام، هي ما يحرّك المواهب الكبيرة دائما، بل الجمال، والشرف، والانغماس في حياة الوطن اليومية. إن ما يقود أقلامهم ليس البعد الاجتماعي، أو الرغبة «بإظهار المشكلة»، ولا الصراع من أجل الفكرة، إنما «الفنِّيَّة» بأقصى ما للكلمة من معنى.

وهنا نحن نقترب من نقطة، يمكن عدّها مفتاحيَّة ليس فقط بالنسبة للأدب الروسي، بل وللأدب العالمي بشكل عام. نحن نرى قتل «الفنِّيَّة»، أو إفقارها في كل مكان. هذا هو فائض الحب نحو العالم، نحو الإبداع، نحو الكلمة. «الفنِّيَّة» تشبه البحيرة الفضية، تشبه الكأس التي لا تنضب، مهما شربت منها، فإن ماءَها الساحر يبقى مرغوباً، مشتهىً، لذة للشاربين، جذاباً! يستمد الكتَّاب المعاصرون قواهم الرائعة من نبع الإلهام السحري هذا.

من المؤسف والمحزن أن تصبح «الفنِّية» (الحب) في يومنا هذا ضيفاً نادرا عند أهل الإبداع. ومع ذلك فإن أسياد الكلمة الوطنية الموثوقين، كثيراً ما يرتادون شواطئ البحيرة الفضية المقدَّسة، منصتين إلى أصوت أعواد القصب المفكّرة ونسيم مائها العليل. في هذا الكتاب، الذي أعدَّه الدكتور باسم بكل جدٍّ وعناية، سيشعر القارئ، لحسن الحظ، بالسعادة لأنه سيتلمَّسُ «الفنِّية». وأعتقد أن هذا هو أهم شيء يمكن أن يدفع القارئ لقراءة الكتاب.

إنّ تربية الإنسان المحب- هي المفتاح الذي يتيح كشف قصور «الفنِّية». تحتاج الشعوب إلى السلام والتناغم مع الطبيعة، وتحتاج إلى الزمن كي تتمكن من معرفة ذاتها، ومهمتها في التاريخ العالمي. إن الأصالة هي ما يجعل الأردنيين والروس، المسلمين والمسيحيّين، العرب والسلاف يهتم بعضهم ببعض. أدب الشعوب بنته عقولٌ كبيرة وأُناس عظام. سيظل المثقفون يسعون إلى حسن الجوار بين الشعوب، وإلى تطوير العلوم، والتنوير، والصداقة والمحبة والتفاهم بين الناس.

أتمنى من كل قلبي أن يحظى هذا الكتاب، الذي يضمُّ مجموعة من القصص من الأدب الروسي المعاصر، على إعجاب القارئ الأردني والعربي، وأن يساعد شعوبنا على أن يفهموا بعضهم بعضاً على نحو أفضل.

ليديا صيتشوفا (*)

- ثلج.
- قصيدة عن الرجل الذي تعيله زوجته.
- شجرة الحور الفضية.
- رفيقان.
- قصة حب بسيطة.
- غداء في مجاس الفيدرالية.
- وداع سلافيّة.
- هروب.

(*) ولدت سنة ١٩٦٦ لعائلة فلاحة. درست التاريخ والأدب. عملت رئيسة تحرير المجلة الأدبية الإلكترونية «مولوكو»- العين الشابة، وموقع «السلاف- منتدى الثقافات السلافيّة». حائزة على جائزة مجلة «موسكو»، وجائزة بروكونين، والعديد من الجوائز الأخرى. عضو لقاء الأدباء الروس الوطنيين. تُرجمت قصصها إلى اللغات الصينية، والألمانية، والعربية. لها المجموعتان القصصيتان: هواجس، كلانا معا، وعدد من المؤلفات الأدبية الأخرى. وتعتبر أحد أبرز ممثلي النثر الروسي الحديث.

ثلــج

لم ينزل الثلج قبل حلول العام الجديد. تجمّد الوحلُ بسبب الصقيع، وصار لونه أشهب؛ تجمّدت أيضا الحشائش الطفيليّة الصفراء القوية، التي تنبت على جوانب الطرقات؛ وبدت البرك القاتمة وكأنها رقع على وجه الأرض. كان الهواء ميتاً، ثقيلاً. بدت الشمس في منتصف النهار صغيرة، نائية؛ أشاعت الزرقة في السماء لفترة قصيرة، أمّا الأفق البعيد في الأسفل، فقد ظلّ عارياً وفقيراً.

الأيام التي مرت كانت قصيرةً، أما الليالي فكانت مظلمةً، وكئيبة. وها هو الثلج.

مرّت العاصفة الأولى، فالثانية، فالثالثة؛ لم تكن هناك ريح، ولم يكن هناك حفيف، اكتسى العشب في السهب بالثلج؛ وراحت الإبر الثلجية تخِزُ الإسفلتَ بحذر، والضفادع الصغيرة تنُقُّ؛ وأصبح الحوش أبيض، فقد سوّى الثلج، وأخفى كتل الكدر في الأرض المحروثة؛ وأصبحت قبعة حارس القش أوسع بمرتين، وكذا أعواد السياج، التي أصبحت أعرض بمرتين... إنه الثلج!

أزاحت سانيا ريابوفا الستارة جانباً، ومسحتْ زجاج النافذة بفوطة، وقالت لزوجها فرِحة:

انظر، يا لها من عاصفة!

تتساقط ندف الثلج، تتساقط واحدة تلو الأخرى، من دون أن يكون هناك ريح، تسقط ندف الثلج مع حركة التفاف بسيطة، مستقرة ببطء

على الأرض. كانت سانيا ريابوفا ترتدي منديلاً على رأسها، وسترة من دون أكمام، وتنورة قصيرة، وسروالاً؛ أما في رجليها، فكانت تنتعل بقايا جزمة طويلة.

كان زوجها نيكولاي مستلقيا على الأريكة. يرتدي سروالاً قطنيا- كان قد خرج منذ مدة قصيرة ليتفقد مزروعاته، مرتدياً جرزة صوفيّة قديمة، كانت قد حاكتها له زوجته في فترة سابقة. كان يغفو، لكنه راح يفتح عينيه الصغيرتين قليلاً عند حديث سانيا، ناظراً من النافذة. ثلج. راح يتحدث:

ما شأنك والعاصفة! اجلسي في الكوخ، هنا دفء. لن تأخذك أي عاصفة. ثم، هل تعتبرين هذا ثلج؟ لم يكن هناك أي ثلج قبل بداية العام الجديد. يا للمصيبة! لكم تغير المناخ! إنني أذكر، أن الثلج كان يغطي الكوخ قبل الحرب، قبل الألمان. كان يمكن أن تنزلقي عن السطح على زلاجات. أما الآن، فما أن يصل الثلج حتى الركبة حتى نطير فرحا، مردّدين- ثلج.. ثلج!

قالت سانيا باستخفاف:

كانت هناك أكواخ أيضاً، أكواخ تشبه كن الدجاج لدينا.

ينتعش نيكولاي، حتى إنه ينهض على كوعه- إنه، هكذا، جاهز دائما للجدال:

ماذا تقولين أنت! على أي حال، كان الثلج في الماضي أكثر.

تصمت سانيا. تنظر من النافذة. كانت الأمراض، ومصائب الدنيا تعكّر صفو عينيها الزرقاوين. ويتساقط الثلج...

لقد رأيت حُلماً سيئاً. رأيت أننا نشتري بيتا نملؤه بطائفة من «شهود يهوه».

إنك تحلمين بمثل هذه الأحلام، لأنك تقرئين كتب الآخرين!

تعترض سانيا:

عـن أي كتـب تتحـدث؟ إنها نفس الكتـب، مما هـو في الكنائس. عن يسوع المسـيح، ومريم البتول. سأتوقف عن قراءتها- ونرى.

سأتوقف، ها-ها، أيتها العبقرية! لقد كنت لديهم في مناصب عالية، فقد كنت تدرسـين في الباحات.

ردّت سانيا بضجر:

أها!

بيـاض شـامل في الخـارج. لم يكن بالإمـكان رؤيـة بيوت الجـيران؛ بدا كوخ عائلة ريابوف وكأنه يسـبح في بحر ثلجي، وبدا كما لو لم يكن له بداية أو نهاية، ولن يكون.

كانت سـانيا تغزل من الخيوط الصغيرة المبعثرة خيطا أغلظ، ثبّتت أحد طرفيه بظهر الكرسـي. تذكّر نيكولاي:

وأنا أيضا حلمت حلماً مزعجا- رأيت بيتكا كوفيندين.

أي كوفيندين؟

كوفيندين، من التشكيل الآخر. إنه يعيش خلف البركة.

الذي توفي العام الماضـي؟

نعم.

إنه ليس كوفيندين، إنه برياكوف.

إنه برياكوف من جهة الأم، لكنه كوفيندين.

ظلّا طويـلا يوضحان أصل عائلة بيتـكا، وارتباطها مـع أقارب آخرين، وتذكّرا أبناء بيتكا، وأحفاده... سأل نيكولاي في النهاية:

ما هذا الخيط لديك؟

إنني أغزل، ربما احتجناها في الصيف.

أها!

وما زال الثلج يتساقط، بندف قطنية كبيرة، مشعثة، طرية، تشبه قفازاً من دون أصابع مصنوعاً من شعر عنزةٍ بيضاء. لقد ابيضّتْ الغابة؛ وارتدَتْ أشجارُ الصنوبرِ مناديلَ بيضاءَ مثل دمية «الماتروشكا»(*)، وارتدت الجبال الطباشيرية فراءَ الضأنِ؛ وأضاعَ النهرُ المتجمد شطآنَه في الثلج. تختبئ الطيور، وتختفي الأرانب، والكلاب، والناس في أعشاشها، وأوكارها، وأوجارها، وبيوتها، والثلج يتساقط، ويتساقط...

تشعل سانيا النور. النورُ الأصفرُ يُشيعُ الدفءَ في الكوخ. أما نيكولاي، فقد راح يُشاطرها سعادته:

وعدني فاليركا أن ينظر في المِلفّ، إذ أننا يمكن أن نشغّل «موتور» الكهرباء الذي لدينا في القبو.

تقول سانيا مثبطةً عزيمة زوجها:

ولما تريد أن تشغّله؟

يمكن أن نشغّل بواسطته ماكنة تجليخ.

أي ماكنة؟

يمكن أن نجلِّخ القطّاعات أو السكاكين.

تغزل سانيا وتغزل. صمتها يطول. بعد ذلك تبدأ كلاماً فيه حُرقةٌ، ومن بعيدٍ تأتي عباراتُها مثقلة:

مجلخة!.. ولمن تريد أن تجلخ؟ ألا ترى أن قطّاعتي أسوأ من قطّاعات الآخرين. لدى النسوة قطّاعات حادة، أما أنا فقد ألفتُ قطاعتي، وأشحذها بالمسن.

أما هو فكان يضحك، ويسرد النكات عند الدكان، ويناقش كل القوانين: «هذا لا يجوز، أما الآن.. ». أما الآن فقد أصبح عمر زوجته سبعين

(*) دمية خشبية روسية مشهورة، تكون مجوّفة، تحتوي على مثيلات لها أصغر فأصغر.

سنة، وما زال يجلخ لها القطّاعة:

وماذا الآن؟ أين اختفى الموتور؟ إنه يلزمنا الآن.

نحن اثنان فقط، وأنت تبحث عن موتور تجليخ كهربائي، من يلزمه ذلك؟

كان يُسمعُ، من خلال الصمت القائم، كيف يحيط الثلج، بالنوافذ، وجدران البيت؛ وعواء حاد من كلب بعيد؛ وخرمشة فأر فوق السقف. الابن البكر ساشكا، الذي يعيش غير بعيد عن هنا، لم يكن يكترث بشؤون الزراعة المنزلية، إنه مثل نبات القرّيص؛ أما الابن الأصغر، سيريوجا، الذي تحرّر من كل شيء، فهل سيعود من المدينة؟

يطلق نيكولاي زفيراً:

من الممكن أن تؤول إلى الحكومة، وهذا كل شيء.

تؤيد سانيا كلامه دون وعي:

سوف تؤول.

تقترب الساعة من السادسة، موعد نشرة أخبار المساء. التلفاز ذو اللونين الأبيض والأسود، الذي أُصلح مرات عدّة، وما زالت شاشته سيئة، إذ أنه دائم التموّج، وهذا اليوم بشكل خاص. يحدث ذلك بسبب الثلج. ترفع سانيا الصوت. يعلو صوت المذيعين والمراسلين في الغرف؛ تسمعهم كل جذوع الأشجار في البيت، وكل كأس في الخزانة القديمة، وكل نسخة من نسخ مجلة «المنارة البيضاء»(*) في الرُزمِ المرتبة بأناقة. تختلط قصص المراسلين بصليات الرشاشات، وقذائفِ المدافع، وعويل الأمهاتِ الأرامل. ترى منذ متى تدور رحى الحرب في الشيشان؟! تحصي سانيا القتلى، والمشوهين، ولا تستطيعُ أن تمسك الدموع. تمسح عينيها بطرف منديلها. أما نيكولاي، الذي عايش الحرب مع الألمان، فقد استاء:

يا للعار! أي جنرالات لدينا؟ كم لديهم من المعدات، والذخائر، ولا يستطيعون أن يسيطروا على الشيشان! يجب إعدامهم جميعاً رمياً

(*) مجلة طائفة «شهود يهوه».

بالرصاص، وهذا كل شـيء!

إنك، أنت نفسك، صوّتّ من أجل يلتسـين(*)!

وهل صاحبك زيوغانوف(**) أفضل منه؟!

بعد نشـرة الأخبار ذهبا ليديرا شؤونهما الزراعية. استطاعا فتح الباب بعد جهد جهيد. لقـد تراكم ثلج كثير خلفـه! لم يتعرّف علـى الحوش الخارجي بكسـوته الجديدة. كانت كل الأشـياء القديمـة، والمتهالكة، والمتهرئة، قد اختفت تحت غطاء جديد ونظيف. ظهرت في السـماء الزرقاء نجوم كبيرة. قطيع كامل من النجوم. إنها تشبه شـياها بيضاء قريبة، ودافئة. وقد بدا الثلج المخـادع دافئا أيضاً، وطرياً. وكان بإمكان أي شـعاع ضعيف أن يحوّله إلى لآلـئ... لكـن إذا مـا قبضت على شـيء منه، فإن شـيئاً من اللآلـئ لن يبقى لديك...

(*) أول رئيس لروسيا بعد انهيار الاتحاد السوفيتي.
(**) عيم الحزب الشيوعي الروسـي بعد انهيار الاتحاد السوفيتي.

قصيدة عن الرجل الذي تعيله زوجته

استيقظت بسبب صراخ وحشي. الجار (ساشكا)(*) كان يصرخ بأقذع الشتائم. اتضح أن عاطلين اثنين كانا قد تسللا إلى عزبتي. كانت الساعة الثامنة صباحا، لقد خرجا إلى المزروعات كما يخرجان إلى العمل. اقتلعا الفجل، وقصَّا الفاونيا. العاطلون – العاطلون، فعلوا ذلك بالمقص، بأدوات العمل! يا للأسف! لقد كسروا شجيرة عنب الثعلب، إنها لن تعود إلى الحياة، على ما يبدو، سوف تجف. أما (ساشكا) الغاضب، فيصيح مؤنباً: «اذهبي والحقي بهم واقتليهم!» إذاً، سألوث يدي! لو أن من جاءني كان أبراموفيتش، فذلك شأن آخر. لكنت مزَّقته إلى قطع صغيرة. (آنيتشكا) تنظر بكراهية، عيناها السوداوان تلمعان. فقد كانا اثنين!... يا للعجب!.. كان الأمر غير مريح أمام (ساشكا). تدخُل الرجل أثار القلق. لذلك لحقتُ بالمشردين، ورحتُ أؤنبهما قائلة: «يا للخجل!» وأضفت هراءً من هذا النوع. هذا الكلام لم يؤثِّر بهما، ولم يُلقيا إلي بالاً. العاطلان كانا زوجين مثاليين، لديهما شقة في بناية في مزرعة حكومية. لكنهما لا يعملان في أي مكان، يعيشان على الإجرام، يسكران، أبناؤهما - لا يعرف أين هم، قد يكونون كبروا، أو أنهم في الانترنيت؛ بشكل عام، حرية منفلتة وا نحطاط.

تنفست آنيتشكا الصعداء وقالت: هكذا بدأ يوم عملي.

قلت: انتظري، ما بك تطاردين العاطلين، أليس لديك حرّاس؟ (في لقائنا الأخير، أشاعت (آنيتشكا) أنها أخيرا ربطت حياتها بفارس روسي، رجل من سيبيريا اسمه فاسيا).

(**) آن- آنيا - آنيتشكا، فاسيلي- فاسيا- فاسيتشكا، الكسندر- ساشا- ساشكا صيغ التصغير أو التحبب.

أوي، مـاذا تقولين! لقد نام، ولن يوقظه مِدفع. يسـتطيع العاطلون سـحب الوسـادة من تحـت رأسـه، دون أن يحـرِّك سـاكنا. باختصار، لقـد تمادى في الوقاحـة. إنـه لا يعمل، يسـتلقي طول الوقـت ويقرأ الصحف وحسـب. كان يركّـب شِـباك الحماية للبيوت مع ابـن عمه، إلا أنه اختلـف معه. هو الآن في أزمـة. مكتئـب. إلا أنه لا ينفـك عـن الأكل. فصحَّتُه عال العـال. لقد خرج، وللحقيقة، جزّ العشـب من مسـاحة صغيرة من الأرض. وهذا كل شـيء. وقد أهداني بطاقةً في عيد ميلادي. أرنبان يقفان خارج جحرهما، وسّـلةٌ فيها جزر. كتب على البطاقة: «إلى آنيتشكا من فاسيتشكا. للذكرى الأبدية...». لم أنـس ذلك تمامـا. حدثني أخي، أنـه كان يتفاخر في بيته في سـيبيريا: أن لديـه في ضواحي موسـكو امرأة تعمـل في الأعمال الموسمية وهي «عالمة»، وأنه هنا محظوظ جدا بها. لكن، إذا ما فكرت جيدا، فما حاجتي به؟!

إنه «ألفونسـينيادا»، أنت تعيلينه، يا لها من ملحمة رائعة!

هو ذا!

قالت لي صديقة: (آن)! إذا ما رغبت بإطعام شخص ما، أو الاهتمام بشخص ما، فاقتني (خنوصاً). فهذا تذبحينه، وتستفيدين منه. أما «فاسكا»، فلا طائل منه، كل ما هنالك خسائر.

والجزر؟...

هـذا في الظاهر. أما في حقيقة الأمر. فقد بقيت من دون فجل. يا للأسـف! حتـى إن العاطلـين لم يخلعوه (وفي هذا المجـال كان ينقصهم الذكاء!)، بل داسـوه كثيراً. اسـتهلاكـي للفجل لم يكـن كبيرا. الخروقـات في الموازنة كانـت فظيعـة. كنت مضطـرة إلى العـودة إلى البيت سـريعا. يتصل أبي علـى الهاتف الخلوي. لدي شـعور أن كربـاً ما قد حصل، وهـو لا يفصح عنه. حسـنا، فالروح الأخيرة التي تخصني في هذه الدنيا ما زالت موجودة! رميت كل شـيء من يدي، ركبت الطائرة، و.. إلى (كراسنودار)، ومن هنـاك إلى (أرمافير) بالحافلة.

وصلت البيت. أظهر أبي فرحاً بقدومي، وفي نفس الوقت راح ينظر إلي بريبة... أتأمل المكان. لا يوجد ضحايا أو دمار، كل شيء في مكانه، قست ضغطة.. قلت: أبي، ما بك؟ أما هو فقد راح يلقي علي نظرة تراجيدية لا تخلو من الشفقة، ثم راح يتكلم ببطء، منتقياً مفرداته: «آنيا، لقد ربيناك، أنا وأمك، دوماً، على أن لا تكذبي، وأن لا تأخذي ما لا يخصك. وقد قدّمنا لك مؤهلاً عالياً وجيداً. وتخرجت من مدرسة موسيقية بدرجة الامتياز، وحصلت على لغتين. ودرست في الجامعة، وحصلت على أعلى درجة علمية. تذكري، أنت دكتورة في العلوم البيولوجية! أنت امرأة ناضجة. أنا لست سلطة عليك. لكن... ». شعرت أنه سيبكي في الحال. يداه ترتجفان. لقد فقدت الصبر تماماً، رحت أصرخ: ماذا يحدث هنا؟! يدس تحت أنفي جريدة صفراء. وهنا. حسنا، هنا استولى عليّ ضحك غريب. راحت آنيتشكا تضحك.

وفي النهاية، وبعد أن هدأت، واصلت:

عموما، ما كان في الصحيفة عبارة عن مقالة عن حياة نساء النخبة. مجرد هراء. تتحدث كيف أنهن يستيقظن عند الساعة الثالثة بعد الظهر، يتنقلن بين صالونات التجميل، ومراكز التنحيف، يعانين من العطالة. الأزواج في أعمالهم، الزوجات حوّامات! أبناؤهن، إن وجدوا، يتركون للمربيات والحاضنات، المشاكل المادية. صفر، الحياة الخاصة مرتَّبة. لكن يحتاج أي شخص إلى أحاسيس حادة، وإجهاد ضئيل من أجل النشاط، ومن أجل إنتاج الأدرينالين. ولذلك تسرق نساء النخبة البضائع في الأسواق ومعارض الألبسة. يعتبر ذلك قمة الأناقة بالنسبة لهن. وبعض نسوة رجال النخبة يقعن في يد القضاء. مثل تلك الحالات معروفة. والنتيجة: الأغنياء يبكون أيضا، لكن ليس طويلا.. هذه المقالة السخيفة تعزِّزها الصورة، وعليها (لكن هذه فقرة كاملة) شرطيان يسحباني إلى «سيارة الاعتقال» أرتدي فيها معطفا قصيراً من فراء النمس، الوجه مكتسٍ بغضب حقيقي، وقبضتي اليمنى مشدودة!...

عموما، أبي مسكين! الابنة تزوجت سراً من رجل من النخبة، ويبدو، أنه من أصحاب السوابق الإجرامية الشديدة، لهذا أنا أخفي ذلك (وقد كان قد رباني على الأفكار الشيوعية)، تسرق من معارض الملابس (أخبره أنني أعيش في منزل ريفي في (مامونتوفكا)، وأزرع الفجل!)، وقد اشتهرت أيضا في كل العالم! هنا، ربما، تفقدين السكينة.

كيف حدث الأمر، كيف ظهرت تلك الصورة؟! عندما بدأ الأميركيون قصف صربيا، كنت قد وصلت إلى موسكو لمراجعة أطروحة الدكتوراه. لكن؛ وبسبب أنني كنت دوما، وبفضل والدي، مسيسةً بشكل كبير، وكان الحدث مثيراً للغضب، فلم أستطع أن أبقى على الحياد. تحركت مع صديقتي إلى سفارة صربيا للتعبير عن التضامن مع الشعب الشقيق.

وصلنا شارع (موسفيلم). ماذا رأينا؟ العار لروسيا! ومقابل السفارة كان يعقد (كان ذلك واضحا!) اجتماعٌ تضامني مع كوسوفو ودفاعا عنها بوحي من سلطاتنا الخائنة! كانوا بضعَ عشرات من اليهود الفقراء، بمظهر مشردين، غير أنيقين، يقفون رافعين يافطات صغيرة مجهَّزة صناعياً، كانت قد وُزعت عليهم من «جماعات الدفاع عن حقوق الإنسان»: (ميلوسوفيتش- إلى المحكمة!»، «الحرية للشعوب!»، «الموسكوبيون مع الاستقلال والتسامح» وهكذا دواليك. الاجتماع تفوح منه رائحة الجيفة (من الواضح أن اليهود كانوا يجتمعون في كل أنحاء المدينة)، لكن كانت الكاميرات قد جُمعت، وزُجَّ بالصحفيين في السجن! وبالمناسبة، فقد حضرت الصحافة الغربيَّة، بشكل رئيسي، فعليهم أن يروا الصورة- كيف أن روسيا تتفق مع أميركا!

بالطبع، لم أستطع الاحتمال. غلت في عروقي الدماء (الأرموفيرية). أقتربُ من المتظاهرين وأصرخ بأعلى صوت: «أيها الكلاب المأجورون، كم دفعوا لكم؟!» أما هم فقد راحوا يثغون: « نحن أنصار الديمقراطية، نحن نُعبّر عن آرائنا وفق ما نعتقد!» (اليهود سيذهبون، وفق ما يعتقدون، إلى البرد (كان

الشهر نيسان) للدفاع عن الكوسوفيين والمسلمين، بالمناسبة... لا تخلطوا بين الناس!) وقد رحت أجمع الناس لمناهضة تلك المجموعة من اليهود. وللتضامن مع صربيا. وقد فوجئت باستجابة الناس. سرعان ما تجمَّع عشرون شخصاً من المارة والمتفرجين. ورحنا نردد: «العار.. العار لليهود! أميركا. دولة إجرام!» وبما أن الحقيقة كانت إلى جانبنا، فقد كانت الهتافات بمثابة شرارة، اتسعت النار بشكل كبير، وصارت صفوفنا تكبر شيئاً فشيئاً.

عندها تركتْ الكاميرات الغربيّة المأجورين وراحوا يصوروننا. رحت أشرح لهم باللغتين الإنجليزية والألمانية، داعية السادة الصحفيين لعدم المشاركة في نشر الأكاذيب المفبركة، فالشعب الروسي ضد قصف صربيا، وأننا نُدين النظام الفاشي في أميركا، وموافقة الغبي يلتسين والنخبة الحاكمة، التي اغتصبت السلطة في البلاد. وما أن صرحت بذلك، حتى استدعى اليهود الشرطة، مدعين أننا نعيق نشاطاً مصرحاً به! أحد المأجورين من المجتمعين اقترب مني وهو يحمل يافطة، والتصق بظهري. ربما كان ذلك مُخبِراً يجمع المعلومات، أو أنه أراد أن يَظهر هو لا أنا في الكاميرا. فضائحيَّةٌ ذات محتوىً روحي. بقيت أتكلم. أراه من طرف عيني وقد جاورني. وبحركة واحدة تمكنت من شطر يافطته إلى قسمين. ولم تكن الشرطة تنتظر إلّا ذلك المبرر. أمسكوا بي. بجريرة «التسبب بضرر بأملاك الاجتماع المرخص»، و«الزعرنة» وما إلى ذلك. وجروني إلى سيارة الاعتقال السوداء!...

ماذا حصل بعد ذلك! كان ذلك «آكشن»: الكاميرات تصوِّر، وفلاشاتها تبرق، المراسلون يهجمون بمكروفوناتهم، الصحفيون يهرولون بدفاتر ملاحظاتهم، الحشد يهدر! أهز قبضة يدي: «صربيا. نحن معك!» والشرطة تجرني بشكل صحيح ومحترم. وكيف لا، فهم أمام وسائل الإعلام. بالمناسبة، لقد أوقفوني وأطلقوا سراحي بسلام. حتى إنهم لم يغرِّموني شيئا.

وهكذا، وبعد مرور كل تلك السنوات تلتمع صورة ذلك الاعتصام... قال المراسل المصور:

لا شــيء يمر على هذه الأرض من دون أثر. وهل يضـيع عمل الخير!

لم أتمالـك نفســي من الضحـك، كلما تخيلـت (آنيتشـكا) وهي تقرأ المقالة عن حياتي- حياة النخبة الإجرامية.

قلت في نفسـي:

أها. لقد غضبت منذ البداية. أنذال بلا مبدأ. لقد أرعبوا والدي، وكادوا أن يتسببوا له بسكتة قلبية. أردت أن أقاضـيهم في المحكمة...

... في محكمة لاهاي؟

نعـم. لكن التـورط بمثل ذلك الروتين غـير مريح. رغم أنـه يمكنني أن أتقـدم بشـكوى. وهكـذا، أطـرد (فاسـيتشـكا)، وأشـتغل في الصحافة الصفراء... لأن كل فرد في (أرمافير) يُلقـي آذانه للأخبار- ما أن ألتقـي بأحدهم، حتى يسـأل: «كيـف الحال؟»، لكنهم يسـألون بحذر، مسـتطلعين المحيط بنظراتهـم. يخبرونك: غير معروف ما يدور في ذهنها، سـوف «تأمر»، أو تتدحرج على الإسفلت. لن ألحق الجميع، لأوضح لهم ماذا حدث وكيـف...

قلت:

اسمعـي، هــل تتخيلين ماذا لو وقعتْ الصحيفة التي نشــرت قضاياك في معارض الملابس لا بيد أبيك، بل بيد (فاسـيتشكا)؟

نضحـك، متخيلتـين هـذا السـيناريو. تنفسـت (آنيتشـكا) بعـد ذلك الصعداء.

(فاسـيتشـكا) لـدي غيور، هذه حقيقـة. إنه يبقـى مسـتلقياً، لا يعمل شـيئاً، وعند المساء يبدأ اتصالات لا تنتهي. «أين أنت؟ متى تكوني موجودة؟ لماذا تأخرت عن القطار؟» يغار عليّ من زميل، بالمناسبة، اسمه (فاسـيتشـكا)، أيضـاً. أهداني ذاك كتيبـا في البيولوجيا الجزيئية. هناك معادلات وحسـب. تنفَّس (فاسـيتشـكا) عميقاً ثم أصدر زفيراً طويلاً: «ما هذا؟ لا أسـتطيع فهم

شــيء» فذلك ليس أرانب وجزرا! قلت: كان لا بد من إنهاء المدرسة. أما هو فقال: «أنت عالمة، لكنك تعيشــين مع جاهل!» أيضا حقيقة... فقد كنت بالأمس في المجلس الحكومــي، هنــاك جمعوا خـبراء بالتشــريعات البيئيَّـة. كان الحديــث فارغا تمامــا. وقد فكّــرت أن يوماً آخــر يضـيع عبثاً. أخـيراً، جمعتُ رزمتين من الصحف. إنهم يكدسونها هناك في أحواض كبيرة لمن يرغب. وقد أخذت أنا: صحيفة «البرلمان» وأشـياء أخرى...

أحقا هذه الصحافة تهم (فاسـيتشكا)! وأكثر من ذلك بهذه الكميات؟ أم أنكم توزعونها مجانافي (مامونتوفكا)؟

لا، فـ(فاســيا) يلقم المدفأة بتلك الصحف. الصـيف ماطر، البيت مشــقق، بــرد. لاحظـت أن صحيفــة «غلامور»-البهجة، ســيئة الاحــتراق، لأنها كثيرة الألوان، يتشــكل منها سخام كثيف، ووسخ. أما الصحافة البرلمانية-فتحترق فــورا. إنهــا تذهب وفــق معناها المباشــر. فأنت تذكــر جيداً: «اللهيــب يأتي من صغير الشــرر... »(*).

(*) مقولة لزعيم الثورة البولشوفية لينين بخصوص أول جريدة للحزب الشيوعي الروسـي (الإيسـكرا)- الشــرارة.

شجرة الحور الفضية

إذا لم يكن هناك صقيعٌ شديد في الشتاء، ورطوبةٌ، وثلجٌ، وندىً متجمدٌ، وهطولٌ ثلجيٌ لما لا يقل عن أسبوع ونصفَ الأسبوع، ورياحٌ عاصفةٌ، ودموعٌ ثلجيةٌ متجمدةٌ، وقبةٌ سماويةٌ عاليةٌ صافيةٌ، مرصعةٌ بالنجوم، فإنه لا يمكنُكِ أن تعدّي تلك السنة سنة خير.

أحبُّ أشياء كثيرة في الخريف: نهاراتِ أيلول الدافئةَ، والصباحاتِ المبللةِ بالندى الناعم، وورقَ شجرِ الأجاصِ ذي الزخارفِ الدقيقةِ، وأرصفةَ الشوارعِ بسنديانها المشتعل، وأوقاتِ المطرِ الطويلةَ، الصماء، حيث يوحي الصباحُ بنهارٍ مكفهرٍ، إلا أن السماءَ تصفو لاحقا، وينتهي النهار، ويسكُنُ كل شيء...

أما الصيف، فهو شيء آخر. إنكِ لا تملّين منه، حتى في أكثر أيّامه حرارةً. تتمنين لو يبقى الوضعُ هكذا دائما- أنت ترتدين فستاناً خفيفاً، دافئاً، وأنتِ سعيدة به.

في الصباح- الشمس ساطعة، والضباب الأبيض يحتشد قرب الأرض، والحورُ في حِلّة العيد الفضية.

وفي المساء، عندما تكثر النجوم الفضية في السماء، فإن شجرةَ الحور التي تقف خلف بيتي، تلمع، أيضًا، كالفضة القاتمة، إنها مثيرة للحيرة، تشبه باقة زهور عملاقةً، ويُهيأ لي، أن النجوم في السماء، ليست إلا أوراق شجرة الحور تلك التي تطير أولاً... السماءُ بعيدةٌ، وشجرةُ الحورِ قريبةٌ، والحياةُ غير مفهومة، ولا يمكن غضّ البصر، وتوديعُ ذلك إلى الأبد.

يوجد راحةٌ منزليةٌ خاصةٌ في الليالي الفضيةِ الدافئة، عندما تكون وحيداً على الأرض، أنت والسماء المليئة بالنجوم، أنت والهدوء، عندما تعي، أن حياتك تخصُّك أنتَ وحدَك. على ما يبدو، هذا مجرَّدُ وهم ليلي. الصباح مشمسٌ، الشمس تحْبُكُ دوما عُشَّاً على تاج شجرة الحور، عُشَّاً من «ذهب وفضة». شجرتي تنمو في الشرق.

الأوراق الأولى، التي تتساقط تخشخش تحت الأقدام، لكنها في الصباح، تصبحُ لينةً وطرية بسبب الرطوبة.

وفجأة يحدث التوازن الروحي.

قرأت كتبا عن الرحالة، وكيف أنهم استطاعوا أن يجتازوا المحيطات وحدهم، ويتجولوا في الأدغال، وينتصروا على القمم العالية. لقد رغبت، على ما يبدو، أن أهرب من نفسي مع هؤلاء الرجال الطموحين، الذين عرفوا طرق الحياة الحقيقية. كنت أتخيّلُ هدفي بشكلٍ ضبابي- كان يُغلّفُه الدخان أو الضباب. لكن من أين أبدأ؟ كيف أبدأ خطوتي الأولى؟ وهل يستحق الأمر ذلك؟ لقد كنتُ، وما زلتُ، وبكل ثقة، عاديةً جداً، وطبيعيةً، فقط، تشوبني بعض الغرابةِ، والحساسية المفرطة والقابلية للخدش.

هنا، قرب شجرة الحور، كنت قد التقطت صوراً لأختي بواسطة كاميرا «فيد» القديمة. ظهرتْ أختي في الصورة وكأنها تقف إلى جانب شجرة بتولا- لحاء شجر الحور أخضر فاتحٌ، ويظهر في الصورة غير الملونة كأنه لحاء شجرة بتولا. لم تعد أختي موجودة. كانت أختي التعسة، التي طواها المخدِّر مع النسيان، قد كمشت على المخدة- «الفكرة»- وكانت تفارق الحياة بسبب السرطان، وحقنِ المورفين. لقد أسِفَتْ على شيء واحد، كما أكّدتْ لي قبل أن يُقعِدَها المرض، وتفقدَ الوعي، وهو أننا أنشأنا أولادنا ملحدين. ماذا سيحصل لهم؟ ماذا ينتظرنا؟

لكنْ، وفي وقت تكبير الصورة، كنتُ أصغرَ من أن أرهقَ نفســي بمثل هذه الأسئلة. كنت أذهب في أيام الصيف إلى النهر، ناشدةً برودةَ الماء، والرملَ الناعـمَ، هناك تعرفت على شـابٍ أجعدِ الشـعر. كان يقود دراجـة نارية ذات بـدّالات مثل تلاميذ المدارس. جاء المحبُ العاشُـق إلى شـجرةِ الحـور. لقد اعتقدَ أنـني بدوري عاشـقة، لكـن قلبي كان هادئـاً وخاوياً. أما هو، فقد سـعى إلى علاقـة متبادلة، وكان يتبجّح: انظري، إن يديّ مجرّحتان (لقد عرض كفين كبيريـن امتلئتـا بمسـامير اللحم)، إنـني أبني بيتـاً، بيتاً من طابقـين، دعينا نسكن...

لقد أعجبني الشـاب. لم يحدث بيني وبينه أي شـيء. حتى القبلُ لم تحدث، لا أكثـر مـن بعض الأحاديث عند النهـر ولمرة واحدة عند شـجرة الحور. عَرفَ، مسـاءً، أين أسـكنُ، لقد اسـتنتجَ ذلك، بالرغم من أنني لم أُخبرْه حتى باسمي. أكّـدّتُ له: «لا تأتِ إليّ مرة أخرى. لن يحدثَ شـيء بيننا». دُهشَ هو: «لكنْ، ما السبب؟» كان الحديث عن «ما السبب» طويلاً ومعذِّباً، ومخجلاً. لقد دُمّرتْ حياتي، وأنا الآن أصابر. لكن؛ لا ذنبَ لأحدٍ فيما أنا فيه، إلاي! وتصنَّعتُ مظهرَ مـن لديـه كلُّ شـيء على ما يـرام، حتى لا أثيرُ شـفقة أحد، ولـو كان ذلك بالنظـرات. فالرثاءُ لا يـكون إلا لأولئك الذين تحدُثُ الأشـياءُ لديهم بالصدفة، أو تلقائياً. لكني أنا نفسـي مذنبة، أنا مذنبة!

لم يعـدْ يأتـي. حتـى أنـني لا أذكرُ اسمَه. سـيرجي أم سـلافا؟.. قـال لي: «أتعرفـين، عشـتُ في حياتـي الماضيـة، على ما يبـدو، في بلادِ فـارس، أو في فينيقيا، أو سوريا. أنا أحب فينيقيا كثيراً».

أحببت فينيقيا بسـبب سـيرجي ذاك، أو سـلافا. كذكرى منه، ذكرى الشـاب الحسـن، صاحب الدراجة الناريـة ذات البدّالات. لم يوقِفْـه حتى كونُه أصغرَ مني بسـنةٍ أو سـنتين. شـرح لي ذلـك: «إن ذلك لا شـيء». وهكذا، لم أخـبره باسمي، أما العمر. فلا خلافَ عليه. كان أسمر قليلاً، ممتلئ الجسـم، وشـعرُه أجعد قاتمـاً. أما أنا فكنت ذهبية؛ بفعل شمـس الصيـف الكريمة،

نحيلةً؛ بسبب المعاناة، وكان شعري متموّجاً يهفهفُ على كتفي. قلت له: «انسني، إننا شخصان ناضجان».

لكن، وحتى هذا الوقت، ما زلت أشعر بنفسي طفلةً، ابنة أمي، لكن أمي غير موجودة. إلا أنها قالت بحدة: «من يكون ذلك الشاب، ماذا سيفكّر الناس»، وقالت شيئاً آخر أيضاً. لكن؛ لم يأت سوى مرة واحدة، وإلى شجرة الحور. لا بأس، فالناس، على الأغلب، لم يلحقوا أن يظنوا.

كانت طيور الغاق تحبّ أن تحطّ على قمة الحور الكثيفة. طيورٌ مرحةٌ، كثيرةُ الحركةِ. في الخريف تتردد الغربان على شجرةِ الحور. سوداءَ، كثيرةُ الزعيق، إنها تحبُّ هذه الشجرةَ؛ لتثرثر فوقها قليلا، قبل أن تواصل طريقها إلى الأفق البعيد.

الحور.. الحور، يا للشجرةِ الساحرة! خلفيةُ أوراقِك، فقط، هي الفضية، لكن ما أن تمسّك الريح حتى تتحول أوراقك، وكل فروتك الخضراء، اللامعة، بل كلّك إلى الفضة مثل فودِ حبيبي. قلت مؤكدة، وأنا أقف تحت سقيفة الباب: «أحبك، هل تسمعني، أحبك!» وكنت أعلم، أنك، هناك، في البعيد، لن تخونني، ولن تبيعني لأحد، ولن تتخلى عني في يوم من الأيام، لا في فرح، ولا في ترح!»

شجرة الحور الفضية تلك هي أنت. كبيرةٌ، مكابرةٌ، أجملُ شجرة في حيّنا، «أجملُ شاب في القرية»، الأجملُ، الأجملُ... أقول عن قناعةٍ وأنا أنظرُ بالعينين المعشوقتين، أو وأنا أستمع لصوت الحبيب: «أنت الأفضلُ!» ليس عندي، وحسب، بل بالمطلق.

كان لدي، يوما ما، في شبابي بِزّةٌ رياضيةٌ حمراءُ (أنا أحبُّ الفرحَ في الحركة)، وثلاثُ فساتين جميلةٍ هفهافةٍ (أحدُها أهدتني إيّاه المرحومةُ أختي). كنتُ أشعرُ بقوةِ الشباب، والصفاء، والانتعاش. كنتُ أعاني بشكل فظيع من القذارة، وغيابِ الحب، ومنظرِ الغباء الغريب. وقد بدا لي، أن كلَّ ذلك لا يجبُ أن يكون في حياتي.

انهالت المصائب عليّ الآن وصقلتني. لا، لم أتعلمْ تذليلَها بسهولة، لكن؛ أصبح أصعبُ عليَّ أن أشعر أنني سعيدةٌ، ومحبوبةٌ. إنني لا أشعر بالهدوء والسكينة، إلا بين يديك. وعندما يطول غيابُنا، أحلُمُ: سوف أشرع فوراً بتقبيلِ يديك، وأجثو أمامَك على ركبتيَّ. تلك ليست علامة، وليست رمزا، ببساطة، قدماي لا تحملاني من الفرحة. لكن؛ لا يتحققُ أيُ شيء من أحلامي تلك. ها أنت تبدأُ فورا بتقبيلي، وتؤكِّدُ لي حبَّك، أما أنا فلا أستطيع أن أقولَ شيئاً، لأن دموعي تنحدر فوراً على خدّي.

ريحٌ فضيةٌ على شجرة الحور الفضية، وعلى شاهدِ قبر أمي التذكاري المرمري. عواصفُ ثلجية فضيةٌ، وشتاءٌ، وريحُ فضية تنشر الأوراق في كل الاتجاهات.

أذكر، ذات شتاء، فقير الثلج، رطب، ظلّتْ شجرةُ الحور فضيةً على أي حال، فردَت أغصانها تحت السماءِ الواطئة متفكرةً، متلألئةً. لكنَّ السماءَ هناك، فوقَ شجرة الحور، كانت مرتفعةً أكثر! لأن لا أحد يمر من الطريق من أمامها. كان أخي يمرُّ من هناك بسيارته- منذ زمن بعيد لم يعد موجودا، وقد كبر أبناؤه؛ وهنا وقفت أمي لوداعي، وهي أيضا لم تعد موجودة؛ وهنا، إذا ما تكلّمت بصدق، حتى أنا لم أعد موجودة- عندما أتوه، وأضيع في المدينة، بعيدا عن هنا، تلك المدينة الغريبة، إذا شئت، التي أعدت بناءها طوبة، طوبة، منذ سنوات طويلة. وشجرة الحور تنتظر! أنا هنا دائما في البيت ودائما أنا نفسي، ولا تحتاج شجرة الحور شيئاً- لا سقيا، لا عناية. ها نحن كلنا- قربها.

مساءً، أمشي حافية القدمين، على العشب الطري المخضر للتو، إلى شجرة الحور، كما لو كنت في مَهمّة ما، أمشي ببطء، مفكرةً بشيء ما، أحلُم... بماذا أحلُم يا ترى؟ تلك الأفكارُ متشابهةٌ، تتكرر كلَّ عام، ومنذ أمد طويل. أفكّر أن الحياةَ قصيرةٌ، وأنها ستمضي قريبا، وتمرّ، وأن المستقبلَ، لحسن الحظ، غير معروفٍ، أما الماضي، وللأسف، لا يمكنُك إعادة بنائه. لكن، وأنا أكشف الكثير، الكثير، فإنني لا أرغب بالاستسلام لأي أحد، هذه هي

حياتـي، أيّامي التي حضنتها، أيامُ عـدم اليقين والإحباط، أيـامُ الإلهامِ والقلق، أيامُ المصائب. لكن، كانت هناك سعادة.

عانيت في السابق من أنني لم أصبح فنانة. ولأنني لم أتمكن من نقلِ كلِّ ما أراه وما هو موجودٌ في داخلي من فرحٍ، وإشراقٍ، أفكّرُ الآن: إنّه لشيءٌ جيدٌ! المنظر الطبيعـي الأزلي، والفرح الأزليُ يوجدان فقط في البيت. لم تعد اللوحات الفنية في معرض تريتياكوف(*) تثير الدهشة، كما في السابق. كثيرٌ من الكتب لم تعد ضروريةً. أما هذه السماءُ، وهذه الأرضُ، وهذا الحورُ، وهذه الريحُ أيضا تجلبُ السعادةَ والحزنَ للروح، كما هو الأمر منذ أمد بعيد. يمكن أن تعيش من دون هذا، على ما يبدو، كما أن النسيانَ ممكنٌ هنا، لكن، ها أنا أعودُ إلى بيتي، وهنا أشعرُ أن كلَّ شيءٍ على ما يرام. أهمُّ شيءٍ هو أن لوحاتي دائما معي، عددها كبيرٌ جدا، ولا أحتاج إلى ألوانٍ، وفراشي، وقماشٍ. فقط، أحتاج إلى التذكّر! شجرةُ الحورِ الفضيةُ، وسحابةُ الدخانِ أعلاها، وحُبُّ الشابِ الأخرقِ ذي الشعرِ الأجعد (هل يسكنُ أحدٌ الآنَ في بيته ذي الطابقين؟!). لكنَّ حبيبي لم يرَ في أي وقتٍ «شجرتي الحور». أما قبر أختي فقد كان بعيدا - في أوكرانيا. لكن، إذا ما سافرتُ إلى هناك، فإن الطريقَ، على أي حال يبدأ من عند شجرة الحورِ العظيمةِ الفضية.

لماذا الحزنُ إذا؟ فما زالَ هناك متسعٌ في الحياة، وستكون هناك سعادة، على ما يبدو...

(*) أشهر وأكبر معرض للأعمال الفنية في روسيا، ويقع في مدينة موسكو.

رفيقان

أخذ المقدم سْموروف معه إلى الشيشان رفيق المدرسة الصحفي زويِف. كان السفر موفقاً. جمع زويِف مادةً صحفية، أما سْموروف فقد قام ببعض الأعمال، أجرى جولةً تفتيشية، وبشكلٍ عام، لم يُضِع الوقت سدىً. هما الآن يحتسيان الخمرةَ في مطعم الشواءِ بالقرب من نازراني (النصرانية، كما كان يسميها سْموروف).

كان المكان يُطلُّ على الجبال، لم يكن أحدٌ هنا باستثناء سائقِ سيارةِ «GAZ» العسكرية والمستخدمين؛ وكان على المائدة فودكا باردةٌ من روسيا، وأعشابٌ خضراء، ومخلَّلاتٌ؛ ومشاوي من لحم الضأنِ ولحمِ الزجرِ(*)؛ وزيتونٌ، ومياهٌ معدنية.

لقد شرب سْموروف كثيراً. ولم يتخلّف زويِف عن صديقه، بالرغم من أنه عادةً ما كان يتحاشى الكحوليات. فقد كان يمارسُ الرياضة، محافظاً على لياقةٍ عالية. حتى إنه أجرى تمارينَ رياضيةً في ساحة البيت الشيشاني، حيث أمضيا ليلتهما أمسِ، وأجرى كثيرا من عملياتِ الضّغط، وتمارينِ القوة. كان زويِف يتمرّنُ، وسْموروف يدخّن بصمت. ولم يكن يُفهمُ من تعبيرات وجهِه أهو مؤيدٌ لنظامِ الحياةِ الصحي، في مثل تلك الظروف، أم لا.

كان وجه سْموروف جميلاً. نادراً ما تكون عيناه البنّيتان سعيدتين، فغالبا ما كانتا ساخرتين، وعلى الأغلبِ كانتا حزينتين. لم تكتسبْ ملامحُ وجهِه القَسوةَ العسكريّة، ولم تظهرْ فيها الأخاديد، وإذا ما لبس ملابس

(*) حم سمك يشتهر بكبر حجمه، ليس له هيكل عظمي، غني بلحمه. بيضُه لذيذ وغني بالبروتينات، ومن أغلى الأطعمة يسمّى الكفيار.

مدنية، فإنك لن تستطيع معرفة مهنته، من الوهلة الأولى. لكن؛ من ينظر إلى زويف، سيعرفُ فورا أنه عسكري سابق. لقد كان زويف يُقصر شعرَه بعيدا عن الموضة، وبشكلٍ أنيق؛ ويسير منتصباً؛ ويَكثُر في كلامه «الانضباط».

ها هما يجلسان مقابلَ بعضهما؛ في أحد مطاعم الشواء، المنتشرةِ على طرقاتِ شمالي القوقاز. كان سموروف قليلَ الحديث، كثيرَ التدخين. لقد ملّ الجبالَ الممتدةَ على مدى النظر، لقد ملّها منذ الزيارةِ الأولى، أما الآن فإنها تقبضُ أنفاسَه. كانت سلاسل الجبال التي كانت تشكّلُ خطوطاً متكسرةً، وزوايا حادةً، وقمماً مدهشةً، تعكس ألواناً صارخةً من الأزرقِ السّماوي، والوردي، والليلكي، والأزرقِ الغامق، لا تمنحُ النفسَ الراحةَ، بل تستثيرُها، وتولّدُ الاضطراب. لكن زويف، بالعكس من ذلك، فقد أُعجِبَ بشعورِ الخطرِ الماثل، الذي تعرّضا له أثناءَ أداءِ مهمَتهما، وبسحرِ المكان، وبحميميّةِ رفيقه، الذي كان يثق به أكثرَ مما يثق بنفسه؛ والذي، إذا ما تطلّب الظرفُ، كان مستعداً أن يقدّم حياتَه من أجله.

لكنَّ الظروفَ لم تتطلبْ شيئاً من هذا القبيل. بل بالعكس من ذلك، فهنا، وخلفَ تلك المائدةِ الغنيةِ بأطايبِ الطعام، تطلّبت الظروفُ شيئاً آخر- فقط، حالةً من الاسترخاء، والسُكر. لقد أدرك سموروف فجأة، بعد أن سكبَ القدحَ التالي في جوفه، أنه لن يتمكنَ من الوصول إلى «النسيان» بأي حال من الأحوال، ولا أن يتخلص من خوف الأيام الأخيرة، الذي سكنَ أعماقَه. أما زويف، وعلى غير العادة، فقد ثمل سريعاً. لقد افتقد طويلا أفراح الحياة، تلك التي تجعل الدم يضطربُ: الطعامَ البدائي، هواءَ الجبال، الحرب. أراد زويف أن يقدم شيئاً مفرحاً لصديقه، فدخل في حوار عن رومانسيةِ حياةِ الضّبّاط، وعن الواجب العسكري...

قاطعه سموروف بحزن:

دعك، دعك.

اهتاج زوِيف الذي اعتاد أن يتراجع:

لكن، لماذا، يا يوري، لماذا؟ إنك ذاهبٌ إلى الشيشان، وأنت تعرف...

راح سْموروف يرتجفُ فجأة:

لن أذهبَ إلى أي مكان، ولا أريد. أريد أن أعودَ إلى البيت.

كان سْموروف يعرف أنه لن يستطيعَ الخلاصَ من الشيشان في الشهر المقبل، وقد رسمتْ له تعابيرُ الخدمةِ لوحةً واقعيةً عن فترة مكوثِه هنا- بدءاً من الحمولات اليومية الكبيرة، إلى جلسات الأنس على الموائد المسائية اليومية، التي تجمع الروس والشيشانيين. وراح سْموروف، فجأة، يحسدُ زوِيف بشدة، لأنه سوف يذهبُ غداً ويرتدي البدلةَ والقميصَ الأبيضَ، وربطةَ العنق، ويمشي من دون سلاح، ومن دون الحذر الضمني من النظرات الجانبية والحدس. قال ببطء لاوياً لسانَه (فقد بدأت الفودكا تؤتي مفعولها):

لا يمكنُ أن تكون سعيداً، إلا في بيتك.

كانت الحقيقةُ الواضحة تلك، التي قالها الصديق، غيرُ مريحة لزوِيف لسبب ما. انتصب، وقال:

لا. انتظر. عليك أن لا تكونَ بهذه الحال، وهذا المزاج.. سيرى المقاتلون...

أدرك سْموروف أن زوِيف قد ثمل تماماً، ولم يعد يسيطر على أفكاره مثل أي مخمور، وأن عليه أن يوافقه على أفكاره، لكن لسانه، ورغم إرادته، راح يجادل:

أيُّ هيئة يجب أن تكون لدي؟ هل هي هيئةُ النشطِ المتيقّظ، أها؟

أيُّ مثال سوف يأخذه المقاتلون إذا ما رأوا قائدَهم مُنكَّسَ الرأس، مهدودَ القوى؟ يحتاج الفتى- ابن التاسعة عشرة إلى شحنةِ وطاقة المقاتل الأقدم.

أشعل سْموروف سيجارة، والتصق أكثر بالطاولة:

انتظر! ها أنا مستلق مع أفراد البحارة الجدد، والشيشان يحيطون بنا. وأعرف أنا، أنهم سيقتلوننا خلال عشر دقائق. عندها، ماذا علي أن أفعل، هل أصرف أسناني أمام أولئك الفتيان، رافعاً من معنوياتهم؟

عليك بذلك!

لماذا؟

أنت تعلم جيدا أن هناك اختلافاً بين قتالِ المقاتلِ اليائسِ والمقاتل السعيد.

ما الفرق، سيقتلوننا ليس بعد عشر دقائق، بل بعد خمس عشرة دقيقة.

هيئ لزويف أنه بدأ يفهم سْموروف:

حسناً، ماذا ستقول لهم قُبيلَ الموت؟

ضحك سْموروف:

لا شيء. أيّ سخافة تقول.. سوف أقول لهم: صلّوا، أيها الشباب لله. وأنا نفسي سوف أصلّي.

لو لم يكن زوِيف ثملاً لضحك عالياً.

للّه؟ منذ متى أنت تؤمن باللّه؟

غضب سْموروف:

بماذا عليّ أن أؤمنَ حسبَ رأيك؟

حزن زوِيف لصديقه حزنا حقيقيا لأول مرة. لقد تاه سْموروف، وسرح في الخيال. لكنَّ الحياةَ يبنيها الأشخاص أنفسهم، طوبةً، طوبة. كلُّ شيء تحتَ السيطرة. أنت تقف على الارتفاع الذي تبنيه لنفسك. لقد عرف ذلك مع سْموروف منذ الطفولة، درسوا، عملوا، لم يرحموا أنفسهم... قال زوِيف مصالحا:

سوف يسمعون لك، فالقادةُ غيرُ ضروريين على الإطلاق.

أدرك سْمـوروف أن صديقــه يـتراجعُ لصالحه، ليس عن قناعة بل إشـفاقاً، لذلك احتدّ كـثيراً:

بعضهـم غير ضـروري. عندما أرى قائد كتيبة ثملاً، واسـترخى بسـبب سـكره، فكيـف يمكنني أن أرفـعَ من معنويـات وحدته؟ هل أقـولُ لهم إنه بطل؟

انتظر، انتظر، لكنّ الجيشَ مبنيٌّ على هذا النظام على الطاعة المطلقة...

لـو أننا كنا نخضع لطاعة مطلقة، لما بقـي لدينا واحدٌ على قيد الحياة! وبالمناسبة، ولما كنتَ، حتى أنت، يا زويِف!

لماذا؟

لأن من يقفون في الأعلى أغبياء.

لقد شطحتَ كثيراً...

انظر الرئيس...

هل هو أيضا زفت؟ يمكنُ القولُ، حقيقة...

اشـتبك سْمـوروف وزويِـف في الجـدال. وبعـد أن تعبـا، سـكتا دون أن يتصالحا. سـيقول سْمـوروف غداً مودعاً صديقـه: «الحمـد للّه أننا مختلفان» وسوف يمد يده، وسوف يضغط زويِف عليها بشدة، على طريقة الرياضـيين. بعد ذلك سـوف يسـافر زويِف على الطائرة ويرى أسـفله مستطيلاتِ الحقول المتداخلة ببعضهـا. إنها تبدو مغطاة تماماً بحُصـر من القصب مصنوعة منزلياً. وتظهر هادئة، مسالمة من الأعلى. ثم تظهر الجبال، اللامعة تحت أشعة الشمس، تكاد تجرحُ العيون، وسوف يغلق زويِف ستار نافذة الطائرة. تُحضـر المضـيفةُ الصحف، والإفطار، وسـوف يرحل التفكير إلى موسكو، وإلى العمل.... وفي هذا الوقت سـيكون سْموروف مسافراً في سـيارته الـ «GAZ» عَبرَ الشـيشان، يراقب الطريق بعيني طائر، ولن تكون لديه أية أفكار.

وسوف يسأله السائق فوفكا، الذي يعرفُ كل عاداته، بصوت مهيض:

هل أفتح على الأخبار؟

افتح!

«كانت خسائر القوات الفيدرالية في الشيشان ثلاثة إصابات: قتيلٌ وجريحان»

لم تكن الأخبار الأخرى تعنى سْموروف، ولم يكن فوفكا ينتظر الأوامر، ليغلق الراديو...

قصة حب بسيطة

كنت دوماً أحبُّ قراءة الكتب. لقد قلّبت كل الكتب في مكتبة قريتنا. عملت لمدة عام بعد إنهاء المدرسة على «تراكتور»، ثم ذهبت للخدمة العسكرية لمدة ثلاث سنوات. كنت أرغب بالزواج قبل الالتحاق بالجيش، فقد كانت لديَّ قصةُ حب. غالا- غالينكا. قالت أمي: «هل جننتَ؟». عائلتنا كانت فقيرة، فأبي توفّي، وكان علينا أن نربّي البنات، وأنا الابنُ الأكبر. خطيبتي كانت أيضاً من الفقراء. تذرف أمي الدموع، أحزن لها: تجري مثل نحلة من الصباح، وحتى المساء في «الكُلخوز»(*)، وفي أعمال المنزِل، وحديقتِه، وكان عددنا ثلاثة...

كنت أتمنى لو أُكمل دراستي الجامعية. ذهبتُ على عجلٍ إلى المدينة. لجأتُ، في الخدمة العسكرية، إلى الكتاب، كلّما توفرتْ لي لحظة من الوقت. لكنّنا كنا نعيش في فقر... بل في عدم. هذا مهين. لديّ يدان، وقدمان، وشباب، وصحة، لكن لا شيء في الجيب. أخواتي يذهبن إلى حفلات الرقص على الدور. لا يوجد لديهن فساتين يلبسنها.

سافرتُ بعد الخدمة العسكرية إلى موسكو للعمل بالمياومة. حتى إنني لم أعرّج على البيت. كانت مهنتي في الجيش قيادة المركبات. لكني ذهبت إلى ورش البناء لتأمين السكن. أقذر وأصعب عمل: عامل «خرسانة». عمّال المياومة أناسٌ من الصنف الثاني. كل شيء غريبٌ من حولك، متعجرفٌ، ومفرطٌ بالتأدب. كانت الإدارة تحترم العمال في الحقيقة.

(*) المزارع التعاونية في العهد الاشتراكي.

تعرفت في العمل على فتاة تعمل جَصّاصة. كان اسمها أيضا «غالينا». وكانت تشبه خطيبتي. تزوجنا بسرعة، خلالَ ثلاثة أيام، كان يعتمد على ذلك، أن نحصلَ على شقة، أو لا نحصلَ. حصلنا على ما نريد! أحضرتُ أمي فوراً لعندي، أما أخواتي فقد التحقن بالدراسة. بعد ذلك وُفِّقن بالزواج بسرعة، الواحدةُ تلو الأخرى.

لم يدمْ المقامُ بأمي، فقد توفيتْ بالسكتة القلبية. كانت قد باعت منزلنا في القرية بنفسها، من دوني. كنت خجِلاً أن أذهب إلى هناك. لقد خنتُ حبي، ماذا عساي أن أقول هناك؟ ومن جديد نحتاج إلى المال، لقد وضعتْ زوجتي مولوداً ـ توليك، وقعدتْ في البيت. ذهبتُ إلى مرآب الحافلات. عملت على خطوط المسافرين. كنت أُرهَقُ غاية الإرهاق. العمل مع الناس مثيرٌ للأعصاب، وممِلٌ، وموحشٌ. كان لدي رفيقٌ ـ فولوديا خرامتسوف. كان رجلاً موفورَ الصحة، قويَ البنية. كان يتبغني بوردية العمل، وكان يحبُ المال كثيراً. توفي خلف المقود. قال الأطباء إنه توفي بسببِ الإرهاق.

لقد وُفِّقتُ بزوجتي، لا يمكن أن أقول شيئاً سيئاً بحقها. كانت لطيفةً، وغيرَ مشاكسةٍ، لديها طبعٌ مثلُ الذهب، مدبرةً، ومحبةً للعمل. بماذا يمكنني أن أعيبَها! إنني أرتكبُ إثماً إذا قمت بذلك! لقد وُفِّقتُ. عندما يبدأ الأصدقاء بالحديث عن «زوجاتِهم الثرثاراتِ اللائي يشبهن المناشير»، فإنني أهزُّ رأسي وحسب. ذلك هو الصحيح! لقد توافقت مع غالا كثيرا، فكلانا من القرية، وكلانا نشأ من دون أب.

ومع ذلك، يُهيأ لي أحياناً، عندما نتخاصمُ (وكلُّ شيء يحدث في كل العائلات)، لرُبما أن الحياةَ مع غالا الأولى كانت أفضل. ولرُبما أنها كانت أكثرَ فرحاً، أليس كذلك؟... ولربما كان عكس ذلك، ربما كانت أُمي محقةً، فقد كان ممكنا أن أُمضي حياتي معها في الكلخوز، ولكنتُ قد تعذبتُ متنقلاً على سكة الحديد، ولمِتُّ بفعل السُكر... ربما!... ومع ذلك، ما أزال أفكر، لربما كنت أكثرَ سعادةٍ معها. ولم يصادف أن مرّ يوم من دون

أن أتذكرَهـا، وأن أتحدثَ معها. هـل تصدِّق؟ حتى وأنا أنـامُ إلى جانب زوجتي، كنـت أفكر بهـا... وها هو ابني ينهـي كليـة «باومان»، ويتـزوّج، لكن؛ لم يأتني بحفيد.. ومع ذلك، لم أسـتطع نسـيانها، بأي حال من الأحوال. ومع التقدم بالعمر صارت تأتيني أكثرَ في أحلامي.

وبعد العمل في محطة الحافلات، ذهبتُ إلى البعيد للبحث عن الروبل ذاته. كنت أريد أن أرتاح.. لقد مللتُ حتى الموت من العمل على الحافلة. بالتأكيد فـإن العمل علـى الشـاحنات الكبيرة ليس عسـلاً، فقـد يصـادف أن نواجه مجرمين، وتتقطَّعُ بنا السُـبلُ في الشـتاء في الحقول الجرداء. لكنْ هذا العملُ أعجبـني أكثر. الآفـاقُ المفتوحـةُ، والرحابةُ، خصوصا عندمـا تعبر الحقول في الخريـف، فتحضـر الرغبةُ بالشـراب في تلك الفيافي، الشاسعة.

كانـت زوجتي قويـةً، ولم تكن صاحبةَ سـلوكٍ خفيف. وأنـا بدوري، لم أخنهـا ولا مـرّة. رغم أن هذه الإمكانيـة متوفرة لدى أيِّ رجلٍ، ولدى السـائقينَ بشكلٍ خاص. لكني لم أرغبْ بأي واحدة. كنت أشمئز من ذلك.

كنت أسـافر، وأسـافر، وأفكِّر: ماذا لو اخترتُ وقتاً مناسبا، وعرَّجت على قريتنـا الأم، وألقيت نظرة علـى «غالينَ»تي؟ ولو نظرةً واحـدةً! ولو من بعيد! وقـد توفَّرت لديَّ تلكَ اللحظةُ. أقتربُ مـن القريـة، تتخدّرُ أطرافي. ويبلِّلُني العرقُ البارد، لا خوفاً، بل من شـدّة التّوتـر. لم أتمكـن من الانعطاف إلى القرية. كـان هناك جدولٌ قريبٌ، انعطفت إليه، قلت: أسـتحمُّ، وأُهدِّئ نفسـي. هناك وجدت الجد بانتيلي، وقد أحضـر بقراته ليسقيها. لم يتذكرني (يمكـن أن يكـون قد تظاهر بذلك..؟) أمّا أنا فقد عـرفته فوراً. لقد كـان راعياً عجوزاً حتى وهو في مثل سني.

اقتربـت منـه. تبادلنا أطـراف الحديث عن كل شـيء: الطقس، والموسـم الزراعي، والسـياسة. كنت ألفُّ وأدورُ بالحديث، وأخيراً قلت:

كان لدي صديقٌ من هذه القرية، خدمنا معاً في الجيش، وكان يتلقى رسائل من فتاة اسمها غالينا ريبيانينكينا...

قال:

ماذا يمكن أن أقول لك الآن؟ لقد تزوجت غالا مزارعاً، ولديها طفلان، يعيشان، في الحقيقة، ليس على وفاق، فالزوج للأسف يتعاطى الكحول... لقد حقدتُ على ذلك المزارع.

قلت في نفسي: «يا له من نذلٍ! إنه يُهين غالينتي! أيُّ دابةٍ هو!» دُرتُ حول القرية، ودُرت (وددتُ لو أُحطّم وجه ذلك المزارع)، لكني رحلت إلى بيتي.

لم يعد بالإمكانِ العملُ على الشاحنات الكبيرة في التسعينات.. بدأ أفقٌ مخيفٌ، لا نهايةَ له. ولم يعد العمر يساعد على التنقل في مهماتٍ كثيرة، ومن دون راحة. علماً أنني، ومن غير تبجح، سائقٌ ماهر. ابني توليك، اقتفى أثري وأصبح مهندساً ميكانيكياً، و يحب السيارات أيضا.

بشكل عام وجدت عملاً مربحاً- سائقاً لمدير إحدى الشركات. إنه رجلٌ صاحبُ مزاج، لكني تمكنت من التّكيف مع ذلك. لقد اعتدت على حيله وألاعيبه. إنه يدفع بشكل جيد، ولا يبخل. اشتريت سيارة «فولغا»، كانت جديدةً، تقريباً، وتعمل على الديزل. كانت قد أُخرجتْ من الخدمة، إلا أنني، ومنذ شبابي، وأنا أحلُم باقتنائها، إذا ما توفر لدي المال. السيارةُ ليست سيئةً، وبما أنني ميكانيكيٌ، نوعاً ما، فقد أصلحت محرّكها، فهو يعمل الآن مثلَ الساعة.

وإذا ما عُدت باكراً إلى البيت، فإنني أجلسُ في المطبخ وحيداً. لدي اهتمام ما، وهو يستحوذ عليّ- إنه الشِّعر، الذي أحبه كثيراً. إذا ما وقع بين يدي كتابٌ جيدٌ، فإنني أحفظه عن ظهر قلب تقريبا. وأنا أقرض الشعر أيضاً، ولا أريه أحداً. إنني أخجلُ نوعاً ما.

توليك يعرف بهذه الهواية لدي. إنه شاب ليس سيئاً. لا يتعاطى الكحول، لا يدخن، يمارسُ التزلج، محبٌ للحياة العائلية. لكنْ، الابنُ ليس صديقاً. كلّما أريتُه ما أكتب، يسألُ عمَّاذا أكتبُ، ولماذا أحببت طول عمري امرأة أخرى غير والدته؟ أجيب أنني أكتب كيف عشنا معاً في بيتنا، وكيف تزهر أشجار التفاح في الحديقة، وكيف كنا نتمشى على طول النهر، وكيف مرَّ شبابُنا...

كانت لدى مديري قصةُ حب فتيةٌ. إنه يعيشها بعيداً عن زوجته. أعدتُه مرة إلى البيت متأخراً، بعد «اجتماع». كان ثملاً، وراح يشكو لي، تكلَّمَ كثيراً، قال، إنَّه لا يُحبُّ زوجتَه، وإنه لا يستطيع أن يتركها، فالشركة مسجلةٌ باسمها. أُبادله المشاعرَ، قلت: لا بأس، فلدى كلٍّ منا مصيبتُه. قال: ماذا تفهم أنت بالحب؟! لم أدخل في جدالٍ معه. لكنَّني فكّرت: لماذا نحن لا نعيشُ كما يجب؟! لماذا يُعذِّبُ بعضُنا بعضاً؟!.

مرّت الحياة بالطبع كما مرّت، ولا ألومُ أحداً. هل يمكنني أن ألوم أُمّي؟ لقد أرادت الأفضل، بالنسبة لي. أنا نفسي لم أُبدِ إرادة. أليستْ الإرادةُ ضروريَّةً في مثل هذه الحال؟.. إذا ما وهبك الله حباً في مطلع شبابك، فلا تضيعه، ولا تعطه لأحدٍ آخر، ولا داعِ أن تستمعَ لأحدٍ ما، عدا قلبك. هكذا هو الأمر. لقد ثرثرتُ كثيراً. إنك تحملُ كلَّ شيءٍ في داخلِك، تحملُه، وفي نهاية المطاف يخرجُ رُغماً عنك، فترتاح. إنني ما أزال أتذكّر كيف ودّعتني إلى الجيش. إنني أرى عينيها الغائمتين، تلمعان بالقلق... وجبينَها الوضاءَ... وشفتَيها البريئتين، اللَّتين لم تعرفا قُبلَ غيري...

فلتبقَ هي كذلك إلى الأبد...

غداءٌ في مجلس الفيدرالية

كان السيناتور بوركين رجلاً حتى في الحقبةِ السوفيتية، وعلى ما يبدو، أنه لم يكن أغبى شخص من بين الأسماءِ العديدة، لأنه استمر جالساً على كرسي الوجهاء حتى الآن. كانت موراموفا تتحاشى نظراته. كان ما يزال في نظرته الطيبة جداً، شيءٌ ما زجاجي. ولأن موراموفا كانت تطيلُ النظرَ، وبخجلٍ، بأناملَ السيناتور الناعمة؛ كان كلُّه منيراً وكأنه دميةٌ مضيئة. كان المساعد يجلس بعيدا قليلا مرتديا جاكيتا وربطةَ عنق؛ يداه ترتجفان، عندما كان يخلطُ الدوسيهات «الواردةِ»، و«الصادرة».

تحدّث بوركين عن خطّته لإنقاذِ روسيا. كانت موراموفا تهزُّ رأسها بطريقة محترفة، لتشجيعه على مزيد من الصراحة، الميكروفون كان مفتوحا، وكانت أفكارها تنطلق بعيدا. كانت تفكر بحياتها التي دخلت في مأزق، وصار يُهيأُ لها، أن موسكو كلّها، وكلَّ المساحات التي تراها، أصبحت تتقوَّضُ لذلك السبب. تحدَّث السيناتور عن حلف الناتو، عن حلف وارسو، عن الصين، عن الجغرافيا السياسية، مسمِّيا أعضاءَ الحكومة بثقةٍ: «ميشكا»، «فالكا»، «غريتشكا»(*)، في حين كانت موراموفا تستذكر تحطيبَ الأشجارِ في الميادين بحزن، وتكسيرَ أيدي وأرجل المعوَّقين الشباب، الذين يتسوّلون في المترو؛ واليافطةَ المعلقةَ فوق عرض الشارع، والتي تحمل شعار «كُلْ، بقدر ما تستطيع! فقط بثمانية دولارات». مثل هذه الكلمات كانت تُسمعُ من مكبِّر صوتِ المطعم مثلُ اللعنات، أما في ممر

(*) يخاطب الروس بعضهم بعضاً بأسمائهم مرفقة مع اسم الأب. وعند رفع التكليف يخاطبون بعضهم بالاسم الأول. وعند رفع التكليف تماما يخاطب الشخص باسم التصغير. كما هو في القصة.

المشـاة القريب، فقد كـانت تنضَحُ نتانـةَ البولِ المركَّزةُ، مما دفع موراموفا إلى إمســاك أنفاسها، عندما كـانت تضطرُّ للمرور من هناك. وبشكـل عام، ومنذُ زمن ليس ببعيد، وحيثما كـانت تتجهُ، كـانت تَسـقطُ في نظرها موسـكـو المهانـةُ، بصـرخاتِ الرعبِ في إعلانات الســينما، في الدعايات المليئةِ بالإثارة؛ كـانت تحاولُ أن تلغيّ سمعَها، كـي تتحاشـى صخبَ السـيارات، والصافراتِ، وزوامـيرِ التحذيـر؛ وكـانت تحـاولُ أن تلغي خـداعَ الجاذبية، كـي لا تشـعر بأنفاس المواطنين المشبعةِ برائحة السجائر والبيرة المثيرة للغثيان. كـانت تهتزُّ معهم في الحافلات، وتنحشـر بينهم في حشودِ ركّـابِ قطارِ الأنفاق، وتُزاحِمُهم في الأسـواق... لقد توقفتْ عن حب أولئك الناسِ، الذين تحولوا أكـثر إلى كـتلٍ لدائنيّـة، وإلى بشـر لدائنيين، موالـين لإرادةِ الحضارة. لا تفكِّـرُ، لا تحسُّ، لا ترغب. كـان عاراً أن ترى الحياةَ علـى ذلك النحو، لكنها لم تكـن تستطيع أن تفعل شـيئاً مع نفسـها. فكـرت موراموفا بامتعاض، إنه قد يحدث معها نفسُ الشـيء، ويظهر قريبا في داخلها «جزءٌ لدائني». لكن لم يـكـن لديها، لا الإرادةُ، ولا القوة كـي تغيّر الحياة القائمة.

أنهى بوركـين أخيرا. كـانت لديه طلاقة غورباتشوف(*) في الكـلام. ومن ذلك الزمـن، علـى ما يبدو، عاش نوعاً من ديمقراطية «البيريســترويكـا»(**)، فهـم «الاحتياجـات الصغـيرة للإنسـان الصغـير». لمعـت في عيني الســيناتور الزجاجيّتين نارٌ حقيقية:

سوف أوقِّع لك علـى التكـليف مع وقتٍ كـافٍ، تغدّي عندنا.

همهمـت موراموفـا في داخلهـا، إلا أنها قالـت بلطف، إن وراءَهـا كـثيراً من العمل بدءاً من هذه اللحظة، وأن عليها أن تلحقَ عملها.

(*) هو آخر رئيس سوفييتي حتى انهيار الاتحاد السوفيتي عام ١٩٩١.
(**) إعادة البناء. الخطة التي حاول من خلالها غورباتشوف إنقاذ الاتحاد السوفييتي من الانهيار.

وعندما راحت تودع السيناتور بلطف قدرَ استطاعتها، حاملةً معها خطةَ إنقاذِ روسيا (التي تحتاج الآن إلى تفكيك شيفراتها بذكاء، «وتمشيطها»، واستكمالها بكلماتٍ إنسانيّةٍ، مدركةً أنه لن يحدثَ بسببها أيٌّ نقاش، كما كانت متأكدةً من ذلك). لقد استولتْ عليها رغبةٌ عارمة، لدرجةِ أنها قرّرت: نعم، لا بدّ، على ما يبدو، «هنا» أن «تبتلعَ» الانطباعات الثقيلةِ ليوم العمل هذا.

وبالفعل، فقد كان يسود في المطعم الواسع مناخٌ آخرُ تماما، كما يقول مذيعو التلفزيون الجدد. تعجبت موراموفا من ترحاب المضيفة في الصالة، التي كانت تبتسم لها من دون زيف، داعية إيَّاها بلطف إلى إحدى الموائد، غلبت لطف الطباخين، الذين يعرفون رغبة الزّبون، ما أن يفتحَ فاه؛ والأكثرُ سحراً هو ذاك الطابور، الذي كان يتحرك بسرعة وسلاسة، متداولاً أسماء الأطعمة العجيبة. كنتَ تُحسُ في سلوكِ «الناس هنا» بالحرية، والنبالة، ولطف همسات أولئك الذين ينتمون إلى «دائرة» المجتمع الأخرى. إلى ذلك، كان البوفيه مخصصا للحَشَم المساعدين، و«الخدم»، والموظفين الغرباء، أمثال موراموفا. كان يمكن أن تتوقع أو تحزر فقط، كيف كان يبدو مطعم أعضاءِ «السنات» (*)، حيث كانت النادلات الرائعات، الرشيقات يتنقَّلن جيئةً وذهابا، ومع ذلك، فقد رأت موراموفا فيها أصداء جنة الشيوعية في وسط القاعة كان ينتصب عددٌ من الأكواب، وجاطاتٍ مليئة بسلطة الخضار التي كان يتناولها المدعوون بلا مقابل تماما. وكان الخدم يتقدمون باهتمام، واضعين المنتج النقي بيئيّا بعناية، والطعامُ المفيدُ المزوَّدُ بدقةٍ بفيتامينات، وذلك الغولُ، ذو المئتي أو الثلاثمائة رأس كان يأكل، ويمضغ، ويبتسم، ويهز رؤوسه للأصدقاء والمعارف، متمنيا لهم الشهية الطيبة...

وفجأة تذكرت موراموفا أوَّلَ سفرٍ لها، أولَ دورة إلى مقاطعة إيفانوف، حيث أضرب هناك المعلمون المحليون عن الطعام لمدة ثلاثة أيام. كان ذلك

(*) مجلس النواب في روسيا.

في شهر تشرين أول من خريف عام ١٩٩٥، قلَّبت الذاكرةَ بلطف؛ تذكَّرت، سافرت في... عابرة على طريق مفككة قذرة؛ وكيف تساقطتْ زخاتٌ من المطر، وكيف أنَّها رأت في كل بيت من بيوت القرية أكوامُ الحطبِ من خشب شجر البتولا؛ التي لم تلحق أن تسودَّ، وقد هزّها بياضُ قطع الحطب الشديد، وبياضُ أشجارِ البتولا الخاملةِ خارج حدود القرية، المبتلةِ؛ بسبب طقس القرى الخريفي الماطر؛ كما وتذكّرت صباحاً طفولياً في النادي القروي، حيث كان الصغارُ يقرؤون أشعاراً عن عظمةِ روسيا، بعيدا عن عيون ورعايةِ الأخوةِ والأخوات الأكبر سنّاً، مرتدين لباس الاحتفالات من الحقبة السوفيتية، ورأت صوصاً أصفرَ على حافة النافذة في «الزاوية الحيّة» في إحدى المدارس الجائعة؛ كان الصوص ذو الريش الناعم، يتمشى غير متعجل ملتقطا حبّات القمح... أما المُدرِّسات اللواتي كنَّ للأسف متوتراتٍ بسبب زيارتها، إلا أنهن رُحنَ يتبادلن مع موراموفا وصفات العيش- إحداهن على سبيل المثال، تحدثت عن أن كلَّ شيء من الطحين تخبزه بواسطة الماء، حتى أنه ينتج معها أشياء ليست سيئة... تذكرتْ وجوهَ التلاميذِ الأكبرَ سناً، الجادّةَ، العابسةَ، ومديرَ المدرسة، «الكومسومولي» (*) السابق، الذي كان يشرح لها:

أرجو أن تفهميني، لا أستطيع أن أجوعَ، أنا رجلٌ واحد في المدرسة، إنني مديرٌ، مسؤول عن كل شيء: عن التلاميذ، والمعلمين، والمدرسة... لكن لا تعتقدي أنني أُدينُهم، إنني، وعلى العكس من ذلك، أؤيدُهم. لدينا أيضا مياهٌ معدنية، و«سيارة الإسعاف» جاهزة لأن تأتي...

ومجدداً كانت الطريقُ، والوحلُ، وأشجارُ البتولا الحزينة على جانبيها؛ والتي بقيت جميلة حتى في حزنها، بكلمة، فقد كانت تشكو، من أنَّها لن تذهبَ من هنا إلى أي مكان آخر، لن تختفي، لكنَّ مصيرَها محتومٌ آجلاً أم عاجلاً ستتحوَّل إلى حطب...

(*) نسبة إلى الكومسومول، وهو اتحاد الشباب الشيوعي في عهد الاتحاد السوفيتي.

كانت موراموفا تتأملُ الخدمَ المشغولين، وهم يتحركون باهتمام حاملين صواني إلى مكان الشَّبع المريح. كانت تتأمل وتفكر: كم كانتْ سعيدةً وهي تسير على الطريقَ المفكَّكة، حيث كان في استقبالهم امرأةٌ تطاردُ رجلا سكرانَ بشاربين أسودين، وبيدها عودٌ جافٌ، أما الرجلُ فقد راح يجذبُ حذاءَه المطاطيَّ، الذي يُشبهُ القنينة، من الوحل بصعوبة شديدة. ومن خلال سترتِه المفتوحة لمعَ قميصُ مشاةِ البحرية المخطط.... وتهيأ لها حينها فجأة، أنها ليست وحدَها، على ما يبدو، كانت سعيدةً سعادةً حقيقية، الشيء الذي قد لا تكونُ أدركتْه، بل والمعلمون الجوعى، والمرأةُ صاحبةُ العودِ، والرجلُ صاحبُ قميص البحرية، الذي كان يستطع أن يصل إلى الطريق غير الموحل، والصوصُ، وأشجارُ البتولا، وكلُّ شيء! لكنْ، أين كانت تكمن تلك السعادةُ؟ لماذا هي غير موجودةٍ هنا، وسطَ هذه الكثرةِ من الجاطاتِ المليئةِ بالأطعمة، ولن تكونَ موجودةً؟ هل يُعقل أن الناسَ، الذين يأكلون ويشربون هنا، والذين يلدونَ الكلماتِ، والأوراقَ، و«خططَ إنقاذ روسيا»، لا يعون هذا، ولا يشعرون به؟!

بكت موراموفا بصمت، وراحت دموعها تتساقطُ في صحنِ الحَساء، الذي برد، وتذوبُ فيه بلا أثر...

وداعُ سلافيّةٍ

الكلُّ يسافر إلى مكان ما، الكلُّ يسافرُ: إلى السوق، إلى محطة القطار، أو إلى نُزلٍ للمبيت. ذلك محزنٌ، لا تستطيعُ أن تختفي في أي مكان. يزحف الليل، خانقاً.. تشتعل مصابيح الأرصفة في النوافذ. تجلس أنت في صالة الانتظار وتفكر: إلى أين تأخذك الدنيا؟! كم هو البقاء في البيت أفضلُ وأسهلُ! عيون الإشارات الضوئية حمراءُ، ملتهبةٌ الوقت يتسرب بالثواني. يأتي الصوت من إذاعة محطة القطارات: «سيغادر القطار (غير واضح) من الطريق رقم أربعة، أرقام القاطرات (غير واضحة)».. الشيء الأهم هو سرعة الكلام، العبور السريع. يتحرك المسافرون، أداروا رؤوسهم مستسلمين.

ليلاً، اشتعلت أرضيات البلاط، متحولةً إلى مربعات. مرّت امرأةٌ، تحمل تحت إبطِها قطعةَ سجقٍ كراكوفي (*) ملفوفةً، تفوح رائحتُها الطازجة. صاح مشردٌ على المرأة؛ لكنها لم تعطه، بالطبع. المشردون كثرٌ هذه الأيام، إنك لا تستطيعُ إطعامَهم جميعاً.

أما رجال القرى فيتجادلون بالسياسة من وراء الظهور. يفرزون الأسماء المعروفة. يتنهَّدُ أكبرُهم، قائلاً:

لقد ضاعت روسيا! سوف تسمى بعد اليوم باسم آخر.

بأي اسم؟

باسم الجمهوريةِ العبرية. سوف يترك اليهود الأرض للفلسطينيين، وسوف يبحثون عن أرضٍ جديدة يغتصبونها. فكيف لهم أن يعيشوا، وأين؟ سوف يستولون على روسيا. وستصبح مزرعة مركزية لهم، هناك في إسرائيل...

(*) نسبة إلى مدينة كراكوف في بولندا.

سُمِعتْ أصواتٌ نسائيةٌ تتأوه، توقوق، ومن جديد تعبت الإذاعة، وتكلمتْ بشكل ميكانيكي: «وصل إلى الطريق الأول... التوقّفُ محدود... ». متى ينتهي كل ذلك! دورية الشرطة ظهرت عند الأبواب. كانوا قصارَ القامة، بوجوهٍ سمجة، معهم عِصي غليظةٌ. هبّت الدوريةُ مثلُ الريحِ على المشرد. لا بأس، الحدثُ جاء صيفاً، لن يتجمدْ المشرد من البرد.

تُدقق الدورية ببطاقات الهوية الشخصية لدى الأشخاص من القومية القوقازية، وبشكل خاص، لدى النساءِ اللائي يحملن صرراً. ينقلون الصرر في البداية، ثم الأطفال، أما الرجال، فهم هنا منذ أمد بعيد. يمكن اعتبارهم محليين.

السهرُ يتقدّمُ.. الذهنُ غير صافٍ. ضبابٌ، ضباب. أما الرجالُ، والظلامُ، فينتظرون القطار الكهربائي الأخيرَ إلى يلان- كولينو. ويتحدث أوسعهم اطلاعاً، بصوت جهور عن فظائع المساعدات الإنسانية: يقال، إن أميركا أرسلت فولَ صويا إلى بيوت رعاية الأطفال، تلك الصويا غيرُ نظيفةٍ، مخلوطةٌ بموادَ كيميائية، يُجري الأميركان اختباراتٍ على أطفالنا، ويطلبونَ تقريراً شهرياً- كم طفلاً أكل منها؟ وماذا حصل لهم؟...

يبدي الكبيرُ، ذاك الذي تحدّثَ عن «الجمهورية اليهودية» ملاحظة:

شيء حسن، أنهم لدينا يسرقون كثيراً.

يحمحم الرجال بصوتٍ عالٍ، ومدو. سوف يعودون إلى البيت بمزاج جيّد، وهناك في البيت تظهر المشاغلُ، والأمورُ ذاتها. أما هنا، فأينما أتيتَ- فعملٌ مضنٍ. تستيقظُ في الليل- كما لو أنك في محطة القطارات، كما لو أنك مسافرٌ عابرٌ (ترانزيت). طولَ الحياة تسافر، تسافر إلى مكان ما... أين؟

ينسكب الضوءُ الأصفر من الأعلى، ساطعاً، لكنَّ النفسَ مكتئبةٌ. الإذاعة بدأت تشوش وتسعل. سيعلنون الآن بصوت غيرِ واضح، كم ذلك ممل؟!

وفجـأة موسـيقى! نشـيد «وداع سـلافيّة». كـم كـان ذلـك واضحاً! في الحـال، رعشـة واضحـة في الظهـر. النسـوة القـادمـات من القوقـاز صمتنَ، وانكمشن. أيُّ جمالٍ! أيُّ قوةٍ مبهجةٍ في ذلك اللحن! أيُّ معاناة! وداعٌ، وحزنٌ... لكن؛ لا يمكنُ إيصالُ كل ذلك!... تفحصتُ الصالةَ بنظراتي، التي بدت لي فجأة أنها فارغة، غادرها الجميع تماما. ما أن انساب صوت النشـيد، حتى تدفق نهرٌ فضـي، وسـيل من الدموع السـلافيّة، والشـبابُ، والأماني غـير المتحققةِ، واللقاءاتُ، والمشاويرُ...

لفَظَ النشـيد أنفاسَـه لقـد أوقفوا الإذاعـة. غادر القطار إلى موسـكو. يصادف وجودُ أيام عندما تحسدُ المشـردَ. الأفضلُ أن لا تعرف شـيئا، أن لا تفهمَ، أن تنحدرَ إلى الحالـة الحيوانيَّة، أن تحلُمَ بقطعة من النقانق، أن تطاردَ القمـلَ، من أن تسمع هذه الموسيقى، وأن تتذكرها!

هـــروب

في ذلك الصيف كان لدي فقط أربعة أيام.

لا يحق للكاتب أن يشكو غياب الوقت. لو كان ذكياً، لحصل على ما يريد زمنياً ومكانيّاً.

كنت أشكو. صبرت. ليست لدي شهرة عالمية. لا تعود كتاباتي على بيتي الصغير بأي دخل. إضافة إلى أن ما أكتبه، على ما يبدو، لا يهم أحداً غيري. أنا أضحي بنفسي دائماً. فأنا في نهاية المطاف امرأة. كرهت الغسيل، والتنظيف، وتحضير الطعام هذا الصيف. كنت أثير حول نفسي في العمل زوبعة من الخلافات. وكانت توافه الأشياء في البيت تصيبني بالضجر.

كنت ألوم نفسي في نفس الوقت على الأنانية والقسوة. لكن الصيف انتهى، لقد هزم ما تبقيلديّ من ضمير. هربت. في العمل اعتبروني في إجازة من دون راتب، وأني سافرت في رحلة.

ذهبت إلى نُزُل «بوريفيسنك طائر النوء» للعمال المتقاعدين على شاطئ نهر الفولغا. انتظرت هناك طويلاً حتى يعطوني غرفة، كدت أفقد صبري، إلا أنني كنت قد وصلت مساءً، وأخبروني بأنني لا أستطيع أن أذهب إلى أي مكان آخر. كان لدي عمل في الصباح. كانت المديرة تدور بين الطوابق مشعثة الشعر مثل خروف أجعد، متحدثة بالهاتف، منقبة بين الأوراق. أخيراً سلموني مفتاح الغرفة. كانت الغرفة ضيقة مثل بقية من قلم رصاص، بجدران ملطخة

ومخيفة. لكن بالمقابل كنت وحدي. احتجبت عن العالم، كان شعوري وأنا أقترب من النافذة، مفعماً بالمتعة. كان زجاج النافذة غائماً، فهو لم ينظف منذ مدة طويلة. كانت النافذة تطل على الغابة، قلت لنفسي: لا بأس، لا بأس.

كانت أياما سعيدة. كانت إقامتي، على ما يبدو، غير لائقة، والمبلغ المدفوع لقائها فيه خسارة كبيرة. لكن كان لا بد أن أكون وحدي، من حين إلى آخر، وحيدة تماما. من الصباح وحتى الظهيرة كنت مبتلاة بجبال من الورق، وقد منحني ذلك العمل غير المفيد متعة غريبة. فأنا في حقيقة الأمر لا أستطيع أن أصنع بخيالي عالماً أوسع وأكثر تنوعاً من الواقع الموجود، لكن كانت لدي الرغبة باجتراح عالم أفضل من ذلك الذي كنت أحتك به كل يوم، عالم يعيش فيه رجال جميلون، ونساء مخلصات، عالم يملأه هواء حر وبحر مالح، وضياء كثير وحب كبير. عملت بشغف، لكن، ما أن يأتي الغد، وأعيد قراءة ما كنت كتبت، حتى أدعك الورق بيدي وأقذف به في سلة المهملات بلا أسف. كنت أبكي أحيانا عند المساء من قلة حيلتي. ومع ذلك فقد كنت سعيدة. لأن معنى الحياة ليس في أن تكون كاتباً، بل في أن تعيش حراً، وبشرف، دون أن تفقد ذاتك.

كنت أتناول غدائي في مطعم النزل. كان يجلس خلفي عائلة من ثلاثة أفراد: الأب، والأم، وابنهما ميشا. كانوا يتحدثون بصوت منخفض، مناولين، بعضهم بعضاً، قطع الخبزخلسة، فصرت أتأخر في مشيي حتى لا أحرجهم. بعد الغداء توجهت إلى نهر الفولغا. كان الماء بارداً ولونه بنياً، ولم يكن يسبح فيه أحد. أنا بدوري غسلت قدمي فيه فقط، وأمضيت بقية الوقت بالمشي على الشاطئ المرتفع، الذي يتخلله تقطعات، والذي كشف عن أحشاء الأرض لعشرات الأمتار، أراقب طيور النورس بحركاتها الدقيقة، والمفاجِئة في كل تحليق لها؛ وبينما كنت أحدق في الأفق، إذ بحزن غير مفهوم، حزن عميق يتملكني.

صادف أن كانت هناك نفايات على الشاطئ: مرطبانات فارغة، ورق، علب معدنية وبلاستيكية؛ وبدت الأرض مسودّة من آثار حرائق قديمة. عادة ما كان الشباب يأتون بسياراتهم تصحبهم الموسيقا، والمشروبات؛ وعلى ما يبدو فقد كانوا يمضون الوقت هنا حتى الليل. كثير من الفتيات كن يدخّن السجائر، ويطلقن شتائم مقذعة بصوت عال يسمع من موقف الحافلات؛ لم يكن تعجبني حركات الشباب وهم يمدّون أيديهم إلى صدور صديقاتهم، أو يحيطون خصورهن بأذرعهم، ثم ينقلبون على الأرض وهم يقهقهون بصوت عال. كل ذلك لم يتوافق مع العالم الذي تجلّى لي في الصباحات في الغرفة التي تشبه بقية منم قلم رصاص.

غادرت نزل الـ«بوريفيسنيك طائر النوء» قبيل الغروب أيضاً. سلّمت الغرفة للخادمة العجوز المرأة النحيلة، المشيبة، ذات العينين الطيبتين الباهتتين، اللتين كانتا زرقاوين في يوم من الأيام. يداها السمراوان، الهزيلتان تشيان بأنهما مارستا أشغالا كثيرة. بشكل عام، كان مظهرها يوحي بالطاعة التامة، التي غالباً ما تكون عند الكلاب التي تتعرض للضرب. كانت تلك السيدة تنظّف غرفتي يومياً، وكانت تؤدي عملها بصمت، وبدقة، وكما يبدو، فإنها كانت تحترم عملي. والآن، وأنا أودعها، كنت أعاني من الحرج أمامها: هربي، وكتاباتي، وأفكاري المعمقة، كل ذلك فقد معناه أمام نظرات عينيها الدامعتين، الكابيتين، الطيبتين.

كانت الغرفة موطبة على ما يرام. تناولت حقيبتي اليدوية. وهنا أوقفتني، وسألت:

إنني أراك تكتبين، وتكتبين، طوال الوقت.. ترى، ماذا تكتبين؟

ارتبكت بعض الشيء، وقلت:

نعم أكتب! (لا يمكنك أن توضح لعامل كل تلك الغباوات الثقافية)

وهل ينشرون ما تكتبين؟

أحيانا.

قالت:

لدي ولد يكتب أيضاً. وهو يعاني، المسكين! لا أحد ينشرله شيء!

وماذا يكتب؟

فانتازيا. أو أدب إثارة! (مخيف كان أن تسمع من امرأة عجوز كلمة «أدب إثار»، لقد لفظتها بطريقة مضحكة).

مفهوم.

وأنا أقول له: بُنَيّ، اكتب عن حياة القديسين، فسوف يعترفون بك.

حياة القديسين؟ هذا مثير! (لم أكن أهتم من قبل بالأدب الديني).

نعم، حياة القديسين! ترى كل الناس الذين يعيشون حولنا هم قديسون. أقول له، أنت يا بني، اكتب عنهم. فيقول لي: أنت يا أمي، لا تفقهين شيئا! وأخذت نفساً عميقاً، بحزن.

ألقيت نظرة عند آخر الممر. كانت المرأة ما زالت تنظر بأثري. ضئيلة، نحيلة، مشيبة، بمعطف خفيف. إلى جانبها كان دلو المسح، وعلى الحائط كانت تتكئ القشاطة مع الممسحة، والمكنسة. عندما استدرت لوّحتْ لي بيدها من دون حماس. لوحت لها بدوري بحيوية وحماس زائد. وقد رحت أحاول

تذكـــر حركتي تلك الكاذبة مرة أخرى وأنا أنزل الدرجات بعد ذلك، ماشـــية في الشارع.

فهمت أخيرا. هكذا ودعت والدي لأول مرة غادرت فيها البيت.

أولغا إيجينياكوفا (*)

- الشقة .
- أساس الحساء .

(*) ولدت سنة ١٩٧٥ في مقاطعة تيومينسك في أقصى شمال روسيا. درست القانون والصحافة في جامعة تيومينسك. تعمل صحفية. لها عدد من المؤلفات الأدبية ذات الطابع القانوني. تعيش حاليا في موسكو.

الشقـــة

تتكون هذه الشـقـة من جلطة دماغية، وشُـبهة في سـكتة قلبية، ولتر عزيـز مـن الدموع، وبعـض المراثـي واللعنات القيّمـة، وعام ونصـف من ليالي السُّهد، وزوجين من تغاضـين الجبين، وبالقيمة النقدية: مليوني روبل.

تشـمل القصة تسع عائـلات، وأكثريـةً ممن عاشـوا وفق المبـادئ: هو يتعاطـى الكحول، و يخون. هي تعمل وتكسـب، وتربـي الأطفال، وتحمل أعباء المشاكل العائلية والكدمات. لقد وقعت نساء حرائر، مدبرات، بالمعنى الكامـل للكلمـة، مرتين في عائلات غير كاملة، وبالتالي في المشـاكل. كانت مشـاكلهن تتجه، بشـكل أساسـي، إلى تحصيل دخل أكبر، لأن «الوطـن» الثلاثيـني، المكون مـن غرفتين، والـذي يُعرَف، بين أفراد الشـعب بـ «شـقق بريجينيف»، لم يعد جذّابـاً. لقد اجتذبتهم الغابة البـاردة، التي يعمل فيهـا عبيـد مطواعون من آليات شرسـة تشـبه الجعلان الأميركية. نسجت سـيدات الأعمـال داخلهـا، كمـا يفعل السـنونو، عشـين مريحـين، ورحن يشـربن القهـوة الطبيعية كلَّ صبـاح، ويتزاورن، ويتشـاكين. باختصار: إنه غياب الرجال، من المسـتخدمين: البنائين، والمدلّكين، وأطباء الأسنان. إنهن لا يريْـن الناس، وبالتحديد، الناس من الجنس الذكري، الذين يسـافرون على الدرجة السـياحية، ولا ينزلون في غرف الديلوكس، ولا يملكون أكثر من تأشـيرتين، في العام، على جوازات سفرهم. كن ينتظرن أمراء، بشكل عام. وفي المقالـب الصغـيرة، التي تحدث عندمـا يتصل رجل ولديه «نوايا حسـنة»، فقـد كانت لديهنَّ إجابة معتـادة: «المعذرة، فأنا لا أتذكـر أنني حصلت منك على أي مجوهرات». عندها يتطاير الرجل المكسوف كماء النشادر من دورق مفتوح. كل ذلك بسـبب أنهن كن يبحثـن عن مكافئين لهن، كما تعلَّمن مـن أمهاتهن. لكن لا يوجد مكافئون للمرأة الروسـية اجتـازوا كل مراحل

«البيزنيس»، وبـدأوا عملهم من «الصفر»، لا، لا يـوجد، ولميوجد، وعلى الأغلب فإنه لن يـوجد.

أوه، هـذا شـكل خاص مـن الحفاظ على النـوع، هـكذا يقال بشـكل موارب... الشّباك على الشـرفة، مطلية بأفضل أنواع الدهـان. في البداية أنت تقولـين: «أوي، لماذا الصرف هنا، في هـذا المكان المتواضع؟ علـى أي حال فهو غير مرئي». لكن الجارة المحزونة من حياة العائلة تكشف ذلك السر: كان هنـاك حريق، احـترق كل شـيء، وإن ما عملـوه صحيح، فقـد كان المنزل مؤمّناً من الألف إلى الياء. جاء مندوبو شـركة التأمين، وأجروا حسـاباتهم مدة يومـين: صوّروا كل شـيء، وعندما صدر قرار التعويض، وصار كل شـيء وراء الظّهـر، أجري هذا الإصلاح القاتل، الذي أُعجب به السمسـار، وأنتم، أيضاً. فليكن البناء لم يعجبكم، فمِن قَبلكم كان بناء لأربعة أشخاص، ومخازن لخمسة. كانت الفتاة المتزوجة تخرّب الفتيات الصغـيرات، كان في الغرفة متـكأ، هنا كنّ ينمن. أما ماذا كان يفعل لاحقـاً الرجل العجوز هنا بيديه المرتجفتين، فيبقى سراً. لم يعد المكان جميلاً، هنا تلقى بكرات، وزلاجات، ومضارب وخوذ «هوكي»، ومختلف أنواع سـقط المتـاع، الذي يُحمَل، لديك، معنىً روحياً تقريباً، أيضاً.

بعد ذلك، سـوف يجـد نجلك أدوات طبيـة، تحت حوض الحمام، ووشـاحاً نسـائياً، و«مرآة» للكشف النسـائي الطبي. امرأة أخرى، من الجارات الرؤوفات الرؤومـات، سـوف تؤكـد لك شـكوكك: نعـم، كانـوا يجـرون عمليات إجهاض في البيت: أجروها لزوجين من العمارة أمامي. لكن الأشـياء في الحياة مترابطة. الآن لديهما ولد أصم، طفل رائع يبتسم لكل شـيء ما إن تكلِّمه.. إنه يعتقد أن العالم مشـرق كلّه، على ما يبدو، وأن الناس جميعهم طيبون، ولا يتمنون له، ولعائلته، سـوى الخير. أما الوالدان فيكادان يفقدان عقليهما من الحزن.

يُعثر، بعد أسبوع، على رسالة من ألمانيا في صندوق البريد. كان مغلف الرسالة ممزقاً ـ حسب عادات أهل المساكن الشعبية، في العهد السوفيتي ـ وفي داخلها العديد من الصور. فيها يجمع المواطنون الجدد، في البلد المنتصر، محصول الفاكهة. الرسالة ليست موجهة لك، بل لساكن الشقة السابق، أنت تسكتين، فبعد ذلك ستأتيكِ الأصوات من الماضي، والناس في هيئات متنكرة، وبعد ذلك، يأتيكِ محضرون من المحاكم في لباس خاص، من جلد النمس المرصّع بالأحجار الكريمة كبيرة الحجم، سيقومون بتفحصكِ بلا خجل، وتوجيه الأسئلة حول ماضي العقار الذي تملكينه. تتنفسين الصُعداء، وأنت تودعينهم، لكنك لا تتمكنين من إغلاق الباب، إذ يظهر أمامك مندوبون يحملون أوراقاً، ويريدون أقناعكِ بالتصويت للسلطة الجديدة، القديمة من حيث الجوهر، التي تغذّ السير نحو مواقعها القديمة، وامتيازاتها، ورواتبها. ومن أجل ذلك يصبح الناخبون ضروريين مثلك أنت، ساكن شقة «الغرفتين»، في مركز المدينة. إنهم لا يستطيعون الوصول إلى الغابة الباردة، والأكواخ ذات الطراز الغوطي، المحروسة بالكلاب الشرسة، حتى إنه ليس من السهل إقناع الناس الذين يحبون المسلسلات البرازيلية بالقهوة الطبيعية الآتية من تلك الدولة. إنهم ينظرون إلى وعود السلطة، كما ينظرون إلى اليوم الآخر، بسخرية. أمّا أنت، التي تقدمين الضيافة للمندوبين في المطبخ، ستعرفين الحقيقة التي لا تلزم أحداً حول التقنيات الانتخابية، وبدقة أكبر، حول غياب أولئك الذين ينجحون بضربة واحدة في الانتخابات: أولئك الذين يجب أن ينجحوا، و يخسر أولئك الذين يجب أن يخسروا. كل شيء يُحلّ في مكتب واحد، والنتائج معروفة، من البداية، حتى صدور هتافات النصر: «هورا».

وكما تؤول الأشياء، فإن العيوب في الشقق لا تصل إليك. فالجدران مغطاة بالورق الجميل، والسقوف معلقة. العالم ضيق. أنت تصتطدمين بالصدفة بالساكن القديم وأنت تتمشين مع الكلب في الساحة الخارجية. أوه، إنه الحب رقم اثنان، الذي لطالما مص دمك، في حينه. فقد كان لديك

حب، ولا يمكن الفرار منه، أو الاختباء منه في خزانة ذات لون جوزي مريحة. لكنَّ الماضي، الآن، غير مريح، إنه يسكن غير بعيد، في سكن الشرطة مع العائلة. وكل شيء لديهم على ما يرام. لكن هناك بعض الغضون، على الوجه، لأسباب أخرى. أمّا ما حصّلتَه أنت حتى عمر التاسعة والعشرين، فسيكون في مقدوره الوصول إليه، بقدرة الله، عند الأربعين. بكلمة واحدة، إنها الكآبة. وما تبقى شكليات.

أنت تصححين جواز سفرك، وتغيّرين ملابسك، استعداداً للسفر، إلى باريس، وتنوين شراء أشياء للبيت، في الوقت نفسه: ستائر، على سبيل المثال، أو أغطية. الماضي لم يعد يسكن في سكن الشرطة، يفضّل سماع موتزارت بواسطة سماعات الأذن، عندئذ، يظهر حق أخلاقي في أن لا يلاحظ الحب السابق، وبالتالي، أن لا يحيّيه. ولم تكن نكاته جذابة عندما راح يسخر: لماذا إلى باريس، ما دمت تستطيعين أن تشتري كل شيء من هنا؟ لا يعنيه ماذا تريدين أن تُحضري، من البعيد البعيد، وبشكلٍ عام، لا يعنيه لماذا تسافرين إلى هناك. ما الفرق، في ما نرتدي: جاكيت من «ديور»، أو طوق كلب؟ لكن الماضي يمتلك تأثير الكادر رقم ٢٥، كم ذلك قاتل! إنه يربطك، دائماً، بشكل غير مرئي، وتأتيك فكرة غير متوقعة في مطار شارل ديغول: ماذا لو وفّرت للانتقال من مركز المدينة إلى الغابة، أيمكن أن تجدي وسط الأكواخ مكاناً من أجل بيتك العزيز؟ نقوّم الفكرة، كما يليق بها، ونسافر إلى سان تروبيه لرؤية رسم للبيت في معرض فرنسا الشامل. وداعاً! حقيقة، ها أنت تنتقلين إلى الماضي بشكل مخطط. وكما لو كان صدفة، تتذكرين أن الشقة تحتوي على شحنة إيجابية هائلة، عندما سمعت أُمّك بانتقالك قالت لنفسها: «ها أنت ستسكنين في مركز المدينة، يا إلهي، يا للسعادة».

أساس الحساء

كان سيلانتيف يسعى دوما إلى «البروز بين الناس»، لذلك كان يبدأ عمله باكرا، وكان يعمل عن اثنين. كان أولَ شخص من شركتنا يشتري سيارة، وكوّن استثماراً خاصاً، وها هو الآن يمتلك بيتاً مستقلاً من ثلاثة طوابق، وغرفٍ مريحة، ونوافذَ واسعة، يُطلُّ على العالم بثقةٍ وتحدٍ. ورغم أنه ما زالت تجري فيه أعمال التشطيبات، إلا أنه كان يوحي بشعور البيت المكتمل. لقد استقبلني كما يليق بمُضيف، ببعض السرور وطلاقة اللّسان. إنه باختصار سيلانتيف! كنت قد شاهدت الجوهرة بسرعة، وعزمت على المغادرة، عندما تذكرت، أنني لم أتناول إفطاري، وكان الوقت قد اقترب من العشاء.

إذا كان هذا السبب، فلا تتعجلي المغادرة. فهم يجهّزون في المطبخ تحفاً من المأكولات، لذائذ شرقية منوّعة، وأنواعاً من الحساء، واعذريني على الصراحة، إنها أفضل مماهو عندك.

استدار سيلانتيف، ونادى على أحد ما. خرجتْ من الجناح الإضافي امرأةٌ شرقية، فأصدر أوامره لها أن تحضر لي الطعام. انحنت المرأة باحترام ثم ذهبت.

انتظري لحظة، دعيهم يجهّزون المائدة كما يجب، لا تتعجلي. اسمعي ما أود قوله لك، انظري إلى تلك العلّية هناك، إنها لك. عندما تأتين لضيافتنا، سأضع مكتبا لك، سيكون بإمكانك مشاهدة الغابة والكتابة. وسوف ترين، إنك سوف تكتبين أشياء مشرقة. سوف تكون كتابات في الحب والصداقة. فأنا، كلّما تناولت شيئاً لك لأقرأه، أجد فيه اضطرابات، أحيانا تصفين المرضى، وتارة.... ، وتارة عمليات الإجهاض... من أين لك كل هذه

السوداوية؟ انتظري قليلا، عندما أكمل البيت، سوف أدعوك، وسوف يتنفس أدبك تفاؤلاً!

توجهتُ إلى العلّية. ذكّرتني الطباخة الشرقية بوحش حبيس القفص، كانت تنظر إليّ بفضول وخوف في نفس الوقت، ابتسمتُ أنا، وأثنيتُ على الحساء. ابتسمت هي الأخرى. سألتُ مبدية أعجابي بالحساء اللذيذ:

ماذا تضيفين، أنت، إلى الحساء؟

راحت تتكلم باضطراب

في البداية الأساس، من الضروري الأساس، إنه مثل أساس البيت.

الأساس؟

نعم. الأساس- هذا حساء اللحم، يجب أن يسلق اللحم لمدة ساعتين.

أخرجتُ دفتر ملاحظات كي أدوِّن الوصفة. سألتْ:

أأنت أديبة؟

ابتسمتُ. واصلتْ الكلام: «سيدي يحترمك جداً، كان يقرأ وهو يبكي. إنه يعيد قراءة كتبك.

هل يقتبس منها؟

إنه يقتبس منها كثيراً. كلمتك بالنسبة له قانون. أنت تكتبين أشياء حقيقيةً وحزينةً جداً. في إحدى المرات بكى، ثمل جداً، وبكى. بكى طويلاً.. طويلا.

وهل بكيتِ أنت؟

لا، لقد بكيت أنا مرتين في حياتي. عندما حطّموا زوجي...

حطّموا زوجك؟

نعم، لقد سقطوا من منشأة، من الطابق الثاني، وسقطت فوقهم الخرسانة، والعوارض الخشبية، مرّ على ذلك عامان. لم يكن المسؤول صديقُكِ، كان شخصاً آخر، وفي منشأةٍ أخرى، نقله إلى عزبته الريفية، وأخذ القادرين على

الحركة منهم وجعلهم يعيشون، اشترى لهم فودكا كثيرة.. كثيرة. كانوا يشربون وينامون.. يشربون وينامون. وقد نَمَتْ عظامهم الآن بشكل غير صحيح. زوجي لم يعد قادراً على المشي، وأخي يمشي بمساعدة العصا. عصاً صغيرةٍ. من دونها يصبح أعرج، أعرج تماماً، إلا أنه يمشي بمساعدة العصا.

وهل طلبتِ من أحد المساعدة؟

لا، نحن أوزبيك، لا أحد يساعد الأوزبيك، لنا الله فقط. وأنا أرجوه كلَّ يوم من الصباح وحتى المساء.

هل لديكما أبناء؟

لدينا ستة أطفال. الكبير أكرم، سيكون ذكيا. إنه الآن في البيت، هناك دفء ولا يوجد شتاء على الإطلاق. عاش هنا ست سنوات، عاش من عمر سنة وحتى السابعة، عندها، قرّرنا أنا وزوجي، وأخوا زوجي والصغير أكرم أن نسكن في مكتب. المكتب في مركز المدينة، حجر البناء يبدو من النافذة جميلا وعصريا جدا، و نحن نعود متأخرين لننام، نصِفُّ الكراسي، ونمضي ليلنا، وهكذا أمضينا ست سنوات، أما أكرم، فقد كان يختفي تحت الأريكة خشية أن يراه المضيف، لأنه لو رآه لطرده، إن لديه زبائن أغنياء. كان أكرم يختفي، ولم يكن يرى سوى أقدام الزبائن، كنّا نترك له الطعام، ونذهب، عندما نعود، ننظر تحت الأريكة. اخرج يا أكرم، عادت جماعتُك. يخرج، يعدو قليلا، يلعبُ، يستحمُّ في المغسلة و.. من جديد تحت الأريكة. وقد تعوّد أن لا يذهب إلى الحمام لقضاء حاجته إلا في الليل، عندما تحلّ العتمة.

وكيف يعيش الآن؟

إنه يدرسُ جيداً و يُحبُّ روسيا، عندما يكبر سوف يأتي للعيشِ هنا، سيأتي بشكل نهائي.

هل لديكم أبناء آخرون؟

كان لدينا ولد رائع بعد أكرم، مرض ذات مساء ومات. استدعينا طبيبا، لكنه لم يحضر؛ لأنه ليس لدينا تأمين. في ذلك الوقت، لم يكن لدى زوجي أيضا بوليصة تأمين. لكن زوجي حصل على التأمين لاحقاً، وكذلك على الجنسية، وإذنِ العمل. أما أنا فلا. أحتاج إلى ثمانية آلاف.

لديّ أيضا حامد، إنه صغير جداً، عشرة شهور. انظري، إن صدري ينزف منه الحليب. الحليب يهرب. أنا أُرضعه مساءً فقط، عندما نعود إلى البيت. عندما يحرّرني السيد أحتاج إلى سفر ساعة، ويكون قد حلّ المساء. حامد الآن مع زوجي، إنهما ينتظراني. السيد محترم، لم يكن لدي مثله من قبل. إنه يعلّمني الكلام بالروسية طول الوقت، أما أنا فلا أعرف كثيرا. وعندما لا تعرفين اللغة، كيف يمكنك أن تشتغلي؟ أما هنا فقد سمح لي أن أقدّم الطعام للضيوف، وأن أدعو لهم بالشهية الطيبة. هل يعجبك؟ شهية طيبة، يا أدب.

دميتري يرماكوف (*)

- بيت على الطريق القديم.
- بوجوليه.

(*) ولد سنة ١٩٦٩ في مدينة فولوغدا، وما زال يعيش فيها. درس الآداب. عمل مدرباً رياضياً، وصحفياً. له عدد من الأعمال النثرية، وحاصل على عدد من الجوائز في الموسيقى.

بيت على الطريق القديم

هَـوَت السـيارة كما لو كانـت قد سـقطت في حفرة. وفجـأة اضطرته تلـك السـيارة اللعينـة إلى الانعطـاف إلى الطريـق القديـم! كانـت تلـك الطريق، بالاحتـكام إلى الخريطة، تختصـر الطريق إلى البحيرة بنحو ثلاثين كيلومتراً. ومن هنا جاءت مغامرة ساموروكوف.

يحـاول مرةً أخـرى الخروجَ من قـاع الحفرة. يزمجر المحرِّكُ فجـأة، ويتطاير الوحل في كل الاتجاهات.... لا، لا يمكن الخروج.

بـدأ الغسـق يشـتدّ. والريـاح تهـب محركـة رؤوس شـجر الصنوبـر، التي استيقظت مضطربة. وبدأ رذاذٌ مطري بالهطول.

هنا، شاهد ساموروكوف أمامَه، خلف جذوع وأغصان الأشجار، نوراً أصفر. ماذا يكون ذلك؟ هل هي قرية؟ أقفل أبواب السـيارة، وسار باتجاه ذلك النور، حاملاً حقيبة فيها بعض المواد التموينية على ظهره، على عجل.

وصل بيتاً بعد عشـر دقائق.

كانت العاصفة تدوّي في كل مكان. كان البيت الذي أضاءته البروق، يقـف علـى رابية صغـيرة. لم يكن يحيطه لا سـياج، ولا حديقـة. كانت هناك طريق ترابية ضـيقة تمرُّ من بين الشجيرات الصغيرة إلى السقيفة. صعد سـاموروكوف الدرجات المبتلّة بحذر، وقرع الباب. نظر أحدهم من النافذة. سُمع وقع خطوات، ثم أحدث مِغلاق باب ضجيجاً.

دعا رجل عجوز مِحدودبُ الظَّهر، كسا الشيب فروة رأسه، ساموروكوف إلى الدخول دون أن يتفوه بكلمة واحدة. لم يكن باب السقيفة الداخلي مغلقاً. ذهب ساموروكوف فوراً إلى مكان تتراقص فيه بقعة ضوء ضعيفة.

كانت هناك شمعةٌ مشتعلةٌ على المنضدة، يفوح منها رائحة الشمع المحترق. وكان أمامَها كتابٌ سميكٌ مهلهلٌ بغلافٍ أسود.

هل يمكنني المبيت، أيها الشيخ؟

بِتْ.

تأمَّل ساموروكوف العجوز: عينان زرقاوان غائمتان، لحية قصيرة، قميص بني مزرّر، عليه خطوط سوداء متقاطعة على شكل مربعات، وسروال بشيالات.

ركّز العجوز نظراتِه على ساموروكوف. ساموروكوف الذي لم يتوقع نظرةَ العجوز تلك قام بسحب نظراته.

قدّم العجوز، مشكوراً، لساموروكوف غرفةً صغيرة للمبيت، لها نافذة صغيرة ذات دفتين، وفيها بسطة عليها فرشة رقيقة، ووسادة قذرة، وبطانية بالية.

«سأرضى بها من أجل الدفء». أخرج ساموروكوف من حقيبته زمزمية مسطّحة، جذبته رائحة الكونياك. شرب بعض الجرعات وأعاد الزمزمية إلى الحقيبة.

الآن فقط عرف كم هو مُتعَبٌ.

«لا بد أن أعرف من العجوز غداً أين يمكنني أن أحصل على جرّار لسحب السيارة... ».

... ولم يعرف ساموروكوف ما إذا كان قد نام خمس دقائق أم عدة ساعات.

انتفـض من فراشــه، فتح عينيــه: كـان العجوز يـقف في البــاب، حاملاً شمعةً مشتعلة من دون شمعدان، وكـان الشمع الساخن يذوب سائحاً على يده.

ما بك أيها الجد؟

لكــن هيئة العجوز راحت تتلاشــى، متحولةً إلى ســحابةٍ مــن دخان. قرَص ساموروكـوف يده، ونفض رأسه. إنها رؤيةٌ لم تتم. أمّا خلف النافذة، فقد كـان الرعد، والبرق، وكـان المطر ينقر على السطح....

راحت السـحابة الدخانية تتلبّد من جديد وتتشـكل على هيئة بشـرية، بثــوب وردي طويـل، وشــعر منسـدل، أمــا العينــان، فقد كـانتــا مغمضتين، وعندمــا فتحتهما، عــرف ســاموروكـوف أن... لقد كـانت تلـك الهيئة لزوجته الأولى مارينا، التي توفيت قبل ثلاث سنوات.

لقد عرفها من شعرها، الذي كـان يهفهف على ظهرها وكـتفيها. همست:

لوشا، إنني خائفة عليك.

ثم راحت الهيئة تتلاشــى، وارتفعت الســحابة المضيـئة بفعل نور الشمعة، كـما يـبدو، إلى الأعلـى، ثم اختفت.

خلـف النافـذة، كـانـت الرعود تقصـف كـما لـو كـانت مدافـع. حاول ســاموروكـوف النهوض من الفرشة ســاقطاً علـى ركـبتيه علـى الأرض. صـرف بأسنانه، وأنّ من الألم، أمسك برأسه، وقال:

سامحيني، يا ماريا!

... عادت الذكـرى... كـانت ماريا ترجوه:

لوشا، دعني أذهب إلى بيت أمي، من أجل اللّه. إنك لا تحبني.

أمــا هو، فقد ابتســم، وقال ممازحــاً، مؤكـدا لها أنه يحبها. وكـان نفســه يـعرف أنه يـكـذب. إنه لم يطلِّقْها، لأن... ، لا، إنه لأمر سخيف! الزوجة ستذهب

من عنده دون الحاجة إلى مبرّر. لقد كانت موثوقة، ومدبّرة...

الآن لديــه زوجة ثانية، إنها غالا، وهي تنتظر مولوداً. يبدو أن كلَّ شــيء علــى مــا يـرام... لكنْ! لقد رجته أن لا يذهب لصـيد الســمك هــذه المرَّة. إلا أنه ذهب. قرّر أن يـعاند. وذهب، فقط، لأنه رغب بذلك.

بحث ســاموروكوف عــن الحقيبــة في الظلام، وأخــرج الزمزمية، شــربَ، وغاب في نوم ثقيل وعميق.

استيقظ. تذكر ما حدث في الليل، تناول الزمزمية، وسمع من خلف الباب كلاماً:

من أنت أيها العجوز؟ ماذا تفعل هنا؟

كان الجواب:

أفعلُ، ما أرى.

ولم يحتمل ساموروكوف النظرة مرة أخرى... فقد راح يعدو عبر البركة الرطبــة، وحــرش الحور الرومــي، إلى المــكان الذي ترك فيــه الســيارة. قرّر أن يســحب السـيارة بنفسه! وإذا لم يستطع أن يســحبها، فإنه ســيعود إلى البيت مشــياً على الأقدام، أو زحفاً على الركبتين. المهم، أن يـعود بأســرع ما يمكــن إلى البيت. المهم، أن يـرى غالته حيّةً، لم يمسسها ضــر.. حيّةً لم يمسسها ضــر...

بوجوليه

سألته زوجته في الصباح:

هل تذكر ما وعدتني به؟

وقف سيرجي مشدوهاً، فهو لا يتذكّر شيئاً.

وعدتني أن تشتري لي بوجوليه.

تنفس سيرجي الصعداء، وقال:

ما دمتُ وعدتُ؛ إذاً فسوف اشتري.

ارتدى ملابسه بسرعة، قبّل زوجته الناعسة، بشعرها المنفوش، وخرج باتجاه مدخل المنزل، انتعل حذاءه هناك، في العتمة. صاحت أولغا من داخل العتمة:

عد سريعاً، يا سيريوجا!

سُمع صوت المزلاج وهو يُغلق. تثاءبت أولغا، استدارت نحو الحائط، ضمّت ساقيها، ومسّدت على بطنها، ابتسمت ثم غفت.

كانا قد تزوجا منذ عام مضى. استأجرا شقة مكونة من غرفة واحدة. عمل سيرجي خرّاطا في مصنع، أما أولغا فقد قعدت في البيت لتحيك الدانتيل المخرّم. كانا سعيدين.

أولغا حامل في شهرها الثالث الآن. وقد أصبحت مزاجيّة جداً، لا تكتفي بمنعه من الاقتراب منها، بل وتتدلل. تارة تشتهي البرتقال، وعليه الإسراع إلى

الـدكـان لإحضارها، وعندما يُحضـرها، تأكـل فصّــاً واحداً وتقـول: «لا أريـد» وقد تقـول في وقت متأخر من الليل: «دعنا نتمشى، إنني أختنق»، أما هو، فعليه أن يـستيـقظ في الـسادسة صباحاً.

لقد تعب من كـل هذه الأشـيـاء، حتى إنه صار يتعمد التأخر في العمل.

«اليوم تريد البوجوليه! أحقاً أنا وعدتها؟ لو قتلتموني لما تذكرت».

راح يفكر بأمر آخر. هل سأحصل على عمل؟ وهل سـيـدفعون لنا الراتب كاملاً، أم مقسطاً؟..

حصـل على العمـل. في العمل، لم يكن يفكر بأي شـيء، إلا بالعمل ذاتـه. لكن؛ في فـترة الغداء، وبعد أن انتهى من الطعـام، راح يُدخّنُ مع زملائه في العنبرِ، سأل الرجال الذين يعملون في الوردية، فيما إذا كان أحدهم يعرف ماذا تكـون «البوجوليه»

قال لوشا غولوبييف:

تقول بوجوليه؟ إنها حلوى على ما أظن.

اعترض ميخايليتش:

لا، إنها عطر.

قال فولودكا كولوسـوف الخبـير العظيم بالنسـاء، وبالتالي بعطورهن، بحزم:

لا، لا يوجد عطر بهذا الاسم.

قال غولوبييف من باب الفضول:

ولماذا يهمك أمر البوجوليه؟

دمدم سيرجي، مستاءً: هكذا.. إنه ضـروري، ثم انتقل إلى الماكنة.

صرفوا الرواتب. صرفوها كاملة. لقد حان وقتُ العودة إلى البيت، ولم يعرف سيرجي بعد، ماذا تكون البوجوليه. راح يفكّر بنظرة أولغا المكسوفة، وكيف ستقول له: وعدت ولم تف بوعدك. إنك لا تفكر بي... «لا، عليّ أن أجد هذه البوجوليه اللعينة!

مشى متثاقلاً إلى محطة الحافلات. كان الناسُ المتعجلون إلى بيوتهم يتجاوزونه، وفي مواجهته كان يسير أولئك الذاهبون إلى الورديَّة الثانية.

... تعجلّ إلى كشكٍ تجاري ليحقق أمله. كان الكشك يحمل يافطةً مزركشةً مثلَ سِجّادةٍ من كَثرة الملصقات الملونة.

هل يوجد لديكم بوجوليه؟

رد البائع غير المرئي من خلال النافذة الصغيرة، بسؤال:

وماذا تكون هذه؟

لم ينزل في محطَّته، بل استمر بالسفر. تجوّل في سوق مركزي. قرأ كافة أسماء العطور على الزجاجات والعلب في قسم العطور. لم يجد بينها أي بوجوليه.

بدأ مطر خفيف بالتساقط. لم ينتظر سيرجي الحافلة، وتحرَّك مشياً.

لم يعرف، هو نفسه، لماذا انعطف، في لحظة معينة، إلى محلِّ عالم الطفولة» ليس ببعيد عن المنزل. وقفَ شاردَ الذهنِ طويلاً إزاءَ دكّة، عُرضت خلفها، على أرفف، دمىً طرية. قد يكون وقف طويلا هناك. راحت بائعة شابة تنظر إليه بدهشة وارتياب. فكّر سيرجي: «يجب أن اشتري شيئاً ما حتى لا تُغيِّرَ فكرتَها عني»

أرني من فضلك، أيتها الفتاة! ذلك الأرنب.

كان الأرنبُ ذا فروٍ ناعمٍ، بوجهٍ مضحكٍ، وعينين تفيضان حيويّة.

سآخذه.

قالت الفتاة:

إلى المحاسبة لو سمحت، ثم ابتسمت كاشفة عن أسنانٍ غير منتظمة.

أخفى سيرجي الدمية في عُبّه. استقر الأرنب الطريُّ الدافئُ هناك، وبدا، كأنه يتحرك. فكّر «لماذا تراني أخافُ من أولغا؟ إنها قد تكون نسيتْ الموضوع»

فتحت أولغا الباب، عندما أحست بمَقدَمه على الدرج، وسألت فوراً:

هل اشتريت بوجوليه؟

لا.

أطلقت زفيراً من صدرها، وذهبت إلى غرفتها.

كانت مستلقية على السرير، ووجهُها باتجاه الحائط. دغدغها سيرجي بأذن الأرنب. استدارت. أخذت الدمية، ضمتها وابتسمت، قالت:

يا له من أرنب جميل!

ثم سألت:

لكن لماذا لم تشتر البوجوليه؟

أولاً، أعترف صدقاً أنني لا أعرف ماذا تكون.

تذكّر سيرجي أن أولغا طلبت منه أن يُحضر نوعا من نبيذ العنب. لم يسمع الاسم حتى النهاية، لكنه وعد بشرائه. ضرب بكفه على جبينه:

أوي! انتظريني، سأعود بعد لحظة!

قالت:

لا. تعال هنا.. إنك مبتلٌ عرقاً... وأخذت يده، وضعتها على بطنها، وقالت:

إنه يتحرك.

قال سيرجي متشككاً:

مِنَ المبكِّر قولُ ذلك.

توجهت أولغا إلى من كان في أحشائها:

أترى أيَّ أرنبٍ جميل اشتراه لنا أبوك...؟

خرج سيرجي بهدوء من الغرفة وراح يغيّر ملابسه في مدخل المنزل. لقد اعتاد أن ينفّذ وعوده.

نيكولاي فورونوف (*)

(١٩٢٦ـ٢٠١٤)

- نريد منقذاً.

(*) كاتب روسـيمعروف، كتب حوالي أربعين كتاباً، بما فيها رواية «حياة الشباب في مدينة جيليزنودولسك»، التي أعيد طباعتها عدة مرات. ولد في منطقة الأورال، ودرس في معهد الآداب. وله إسهامات في تطوير الآداب في مدينة ماغنيتوغورسك. توفي في موسكو.

نريدُ منقذاً

عاد الابنُ من السوق، ودخل المكتبَ مباشرة. كان قد أحضر معه سلَّةً من التفاح. كان الجو صقيعياً بعض الشيء، ولم يكن هنالك ثلجٌ يتساقط. كان المطر قد هطل قبل ذلك، وتحوَّل الماءُ إلى طبقة جليديَّة زجاجيةٍ؛ تتهشّم تحتَ الأقدامِ على الإسفلت.

بالرغم من أن أنطون قد تركَ السلةَ في المطبخ، إلا أنَّ مجردَ قدومِه، على أي حالٍ، جلب رائحة التفاح. عادتْ الأم تانيا من الصقيع تحمل رائحة العشب. أما أنطون فقد كانت تفوح منه رائحة التفاح. وأخته إيرينا فقد صاحبتها أنفاس المرج العطرةِ، والمرّةِ، في ذات الوقت. كنتُ مسترخياً على الطاولة، شاعراً بالقلب يمتلئ بكلمات ضرورية، والقصةُ التي كانت تتشكّل، في داخلي، عن طفولتِنا أنا وزوجتي، راحت تتنحّى جانباً. لقد اندفع ابني إلى المكتب في وقتٍ غير مناسب، رفعتُ له يدي فوق كتفي ملوحاً دون أن ألتفتَ إليه. كانت أنفاسُه سريعة.

أبي، اليوم هو الأحد.

إنني أعمل طيلة الأسبوع، وأخشى أن أتوقف عن الأدب.

ستعوّض ذلك، يا أبي. إنني لن أستطيع أن أحصل على وقت آخر.

لم يحاول أنطون أن يربطني به منذ طفولته: يبدو أن اهتمامي الثابت به قد تغلغل وتجذَّر فيه.

ماذا حدث، يا بُني؟

احمـرَّ خـدّا ولدي أكثر من المعتاد. لم يكن قلقُـه، كما يبدو، مزحةً، أو لم يكن سخيفاً، على أقل تقدير، كما يحدث عادة مع الصبيةِ في عمره.

الثرثـرةُ تثير مللَ الناس. كان الوسط الذي وُجدت فيه، عسـيراً بسـبب الخوفِ والقلق، ورحت أفكِّرُ، وأنا مستغرقٌ في اليـأس، أنَّ البحرَ أكثرَ صمتاً من الناس.

لقـد واسـتني قلـةُ حديث أنطـون. وهـو لم يتفـوه بكلمةٍ واحـدةٍ و نحن نغذّ السـيرَ إلى السـوق. كان هنـاك مراهقـون واقفـين خلـف البـابِ الجانبي لسـوق المنتجات الريفيَّة- البازار- مباشـرة. كان اثنـان منهم يعتمران قبعتين لهمـا آذان مدلاّة، مصنوعتـين من فـرو كلابٍ متهرئ، ويرتديان سـترتين من الجوخ، مشـدودتين بأحزمـةٍ، وسـروالين قطنيَّين، انتفخا على شـكل تلال عنـد الركبتين. كانـا توأمين. أحدهما كان يمسـكُ بقفـصٍ مليءٍ بطيور الدغناش(*)، والآخرُ يمسكُ بستة طيور أُخرمشدودةٍ بأنشوطة شفافة. لم أسمع مـن قبل أن الدغنـاش يمكن أن يُصطاد، ويكون أسـيراً، ولم أكنْ لأتصور ذلـك. لا يمكن تصوُّرُ الدغناش خارج أجواء الشـتاء، حيـث يجثم الصقيع، من دون كثبـان ثلجية مغطـاة ببذور الـدردار والقيقب المجنحة. لقـد أنهك دفء الغرفة الدغناش، واختفى لون ريشها الوردي.

أبي! أنت لم تفهم.

فهمت.

السعر- روبل. لنشترها كلَّها، ونطلقها.

فاوضنـا البائعين لنشـتريها مقابل خمسـة روبـلات، وكان في القفص

(*) طائر صغير، خجول، مغرد، رمادي اللون، أحمر الصدر.

دزِّينـــةٌ من الدغناش. عزم الصــبي على دلقها من القفـص، إلا أن أنطون أوقفه، وراح يلقـي الدغناشــات مثل الحمام، بقوة مــن عنده، على طول الأرض. وما أن رأى الولــد الآخر الطيور تقف قريباً على شــجرة الغبــيراء، حتى هرع إليها. ألقـى أنشوطته على عنق أقرب دغناش. ظلت بقية الطيور واقفة، لا تتحرك. عندما قرّب الولد الطيور الستة من الغصن، لم تكترث للمعان أجنحة الدغناش المعلق بالصنارة.

انزعــج أنطون من قلة حيطة الدغناش، أســـرع إلى شــجرة الغبيراء، موقعاً قبعته. اصطدمت القبعة بقمة الغبيراء؛ فتململت طيور الدغناش، ثم تراجعت قليلاً.. قليلاً عبر صفوف السوق نحو كنيسة القديس جورج.

تراكض التوأمــان إلى هناك. وخلفهم هرول أنطون الطويل، أيضاً. كان أنطون يميل إلى الســمنة، لكن لم يكن ذلك هو ما أبطأ خطواته، إنما الحذاءُ المطاطيُ المبطن بالجوخ، - لقد نســيه جدُّه لأمه بيتر بافلوفيتش بودانوف، الذي كان بضـيافتنا. إنني أكاد لا أتذكر أنطون إلا وهو يمر بمحن تحرير الطيور والحيوانات. كانت البداية، عندما سمع مرة صافرتين، فتح الجار شباك بيته؛ فتسلل إلى هناك زرزور هندي. علّمَ الجار الزرزور الغناءَ وأمجادَ البلابل بواسطة الشوفان. أصبح الزرزور منشداً عنيداً؛ لكن أنطون فتح له فجأة النافذة من دون قصــد. أصيب الجار بالكمد على الزرزور، وعندما حانت له الفرصة، وبعد أن ثــمــل، عذّب أنطون بســبب جريمتــه التي اقترفهــا عامداً، وكان قــد تنبأله أن يكون مخرباً. لقد عرف أنطون، حتى وهو تلميذ، أثناء غيابه لأيام بطولها مع ســيرك الحيوانات الجوّال، أن الفرسَ، التي كان يطعمها خبزاً، وجزراً، وتفاحاً، قــد تُذبــح وتُقدّمُ طعامــاً للوحوش. كان يعترفُ أن الأســد ليــس مَلك الوحوش وحســب، بل ومَلك البشــر أيضاً. وقد ســحره النمر، وحاول تنويمَ السبعِ، كما أقســم لأخته إيرينا، الــتي كانت ميّالة لتصديق كلامــه. ولم يكنْ رأيه في القط القصبي على أنه أحد ســلالات الفراعنــة، رأياً في فراغ. على أي حال، لقد

أخذ الفرسَ إلى الغابة وأطلقها هناك كي تعيشَ حرّة إلى الأبد.

ذهبتُ بأثر ولدي. راجياً أن لا يكون الصبيّان التوأمان قد أشبعاه ضرباً.

كان هناك رجل يقف مستنداً إلى حافة البسطة، متنحياً قليلاً عن الصفوف، حيث كانوا يبيعون جذوراً، وأعشاباً، وبقولاً علاجية، وعقاقيرَ جاهزةً. كان وجهه متجهماً، ذا جسم كبير مشدودٍ، ويرتدي ملابس مبتذلة شديدةَ التأنق، وحشداً من أشياء من قبيل: قبعةً عسكرية عليها أثر نجمة منزوعة من على الحاشية، وشالاً صوفياً عليه مربعات، أُلقي طرفاها على الظهر، ومعطفاً مغطى بالساتان، وحذاءً جلدياً رمادياً مشققاً. كان من الصعب تحديدُ ما إذا كان مدنياً، أم فلاحاً، متعلماً، أم من عامة الشعب البسيط، من خلال النظر إلى ملابسه. لقد مررتُ من أمام الرجل، تفحصتُه جيداً دون أن ألتفتَ إلى الوراء. حتى عندما صدر صوتٌ، قريبٌ من الصوتِ الإذاعي، لم أستدر: سيبدو ذلك محرجاً جداً. قال بصوتٍ محكمٍ، كما لو كان مسكوباً من زجاج:

إنني بحاجة إلى إنسانٍ، يمكنه أن يُحبَّ روسيا و يحرّرَها.

ثم توقَّفَ قليلاً، استقرت كلمة «إنسان» في عقلي.

لسببٍ ماغيبيٍّ استقرتْ الروح، واكتملتْ العبارةُ فجأة. لم يكن إطلاق طيور الدغناش على غير انتظار، ومن غير المعروفِ، إلى ماذا سينتهي الأمر. إن العثور على محرّرِ روسيا، كما لو كان رجلاً عابساً، يقود مثلَ نبيٍّ أو زعيم، مثل هذه النية تستدعيها ملحمة، لا تخلو من مخاطرة مؤسفة. ويا للحسرة! لقد توفّرت ظروفٌ من أجل ظهور استياءات شعبية ومبشرين (متى لم يوجد هؤلاء؟): عاشت البلاد في حالةٍ من الجوعِ، كانت تحدثُ معاركُ من أجلِ الخبز عند البقالات في المدن، الوقوف في الطوابيرِ حتى منتصف الليل، وفي

الصبـاح، يخطر في بالِ أحدِهـم أن يُعيدَ ترتيب الطابور. وهنا تبدأ المشـاجراتُ، والتدافعـاتُ، ومحـاولاتُ الرجلِ الوقـح النفـاذَ إلى داخل البقـالة. تشـتري الخبزَ ورديَّ اللون بسبب الإضافات الكيميائية، خبزاً مصنوعاً من القمح الكنديِّ، ومطحونـاً في ألمانيـا الغربية. منذ فجر الزمان لم نشـهد في عالمنـا أرغفةً ورديةَ اللون، وسامّة. كان النقص في المواد التموينية يقود إلى التذمر، والامتعاض، وفقـدان الثقة. وكانت يافطات الاحتجاج كيفما كُتبتْ تبدو غير مقنعة، فـلا يخرجُ أحدٌ إلى الشـارع ليحتـجَ، أو ليعتصمَ في السـاحات. تـدور الأفكار حول حكمةِ الشـعب غير الواعية. نُحّيتْ التمـردات، والانتفاضات، والثورات، ومحاولات التغيير المتحققة بالعنف لقرون، بل لألوف السـنين في الجينات، من قبل الحكام المسـتبدين. يكمنُ معيـارُ صوابيّةِ الوجـود في الصبر الكبير، والتـدرجِ، وعـدمِ التأثر بالانكسـارات الاجتماعيـة: ذلك الوجـود لا يقـود إلى الكوارث، والحروب، وإعادة التربية، التي تضع الناس بين انكسـارات الحياة، حيث لا يمكن أن تختبئ أو تهرب.

كان ذلـك الشـخص، الذي يعاني بسـبب غيـاب العدالة، يؤكـد دوماً على عبارة جريئة، فكرتها تحتوي على حتمية مقدسـة، إلا أنه توعّد بعودة الجنـون، وقهر الجلادين. نعم، نعم، يا لنـا من متعطلين! يا لنا من مضطِهدين! يا لنا من سـخفاءَ لا أملَ فينا! لا يمكن أن نكون قد خُلقنا لليأس؟ إننا شعبٌ شـهمٌ، متفانٍ، وغير مسـؤول في نفس الوقت. هل سمحنا نحن لأنفسنا بلين أن نتحول إلى أفراد مستنسَـخين، مؤمنين أن العنفَ بنّـاءٌ، وأن الرحمةَ عيبٌ؟ نحن ننقـذ شـعوباً أخـرى، لكنّنا نتلقـى جزاء ذلـك انتقاماً شـرسـاً جـداً، انتقاماً شـيطانياً لا هوادة فيه. يبدو أننا طيبون كثيراً، محبُّون للخير، متسـامحون، لدرجة أن القسوة اللامحدودةَ، بدرجة لا تقاس، تصبح امتناناً.

يتشـاجر أنطون مع التوأمـين. يوجّه لهما ضـربة. يتزحلقـان على الجليد علـى النعـال الجلدية، ثم يسـقطان؛ لكنهمـا يتمكنان من الإمسـاك به؛

إلا أنــه يَثبــتُ؛ فجزمتُه لا تنزلق، يبقـى ثابتا كما أجداده: كـان أسـلاف بيتر بافلوفيتش يلتحقون بالمحاربين العنيدين ذوي القبضات القوية.

أفـرّق بين المتشـاجرين بعصـى طويلةٍ، ولم أُشـفق حتى علـى ابني. عدت أنـا وأنطون إلى البيت. مررنـا بمحاذاة رجل. قال الرجل بصـوت مكتوم موجها الكلام إلينا، ويبدو أنه قد تعب من اللامسؤولية:

إنني بحاجة إلى رجل يستطيع أن يُحبَّ روسـيا و يحرّرَها.

وممن يحررها، يا جدي؟

من الغيلان الخفافيش.

ومن يـكون هؤلاء؟

سـيوضح لك أبوك.

أبـي؟

الغيلان الخفافيش حثالة، إنّهم ليسوا بشـراً.

إذا، هم مصاصو الدماء.

أبـي، لماذا لا يـكون هو نفسه المحرِّر؟

لا ثقة لديه بقدرته على ذلك. يبدو أنه، ملسوع.

أما أنا، فلم أكن لأخاف.

أنت حاولت أن تحرّر طيوراً، وصل بك الأمر إلى شجار. أما هو فيريد مساعدة المحرومين، إلا أنه غيرُ واثقٍ من أن قلةَ صبره ستتناسب مع أماني الشعب. يا بني! إن قلة الصبر لا تُغتفر: لقد خلّفت وارءَها محيطاتٍ من الدماء.

قل له.

لن يسمع.

إنــني أعرف ما يمكن أن يقال للشــخص الذي يشــعر بنفســه أنــه المنافح عن الشــعب. حتى إنني أشــعر أنَّ هذه الطبيعةَ جزءٌ مني. لكن بالنسبة لي، فإن نموذج التطور الطبيعي هو قبة السماء. إنها دائما لا تتقبل قلة الصبر.

ومع ذلك، عندما تحيق ببلدي المصائبُ، ويوحي إليّ بشكل ثابتٍ باليأسِ مــن التنوير، فإنني أفكّر بآمــالِ الأجدادِ: «إننا بحاجةٍ إلى منقــذٍ. ويا ليتَه يأتي سـريعاً، ويحرّر روسـيا»

أولغا غرينوود (*)

- شوق.
- الغريبة.

(*) ولدت سنة ١٩٧٤ في مدينة لينينغراد. درست الأدب في جامعة سانت بطرسبورغ «لينينغراد سابقا». تجيد عدداً من اللغات، عضو اتحاد المترجمين الروس. تعيش منذ عام ٢٠٠٢ في مدينة بروكسيل ببلجيكيا.

شــوق

هــا أنا قد أحضـرت لكِ أميراً، أليس هذا ما كنت تريدينه؟ تأمّلي وجهَه، يا أمي، هل تريـن؟ لَكَم هو جميل!

إنــني أذوبُ، عندما أرى دفءَ نظراته، أغرقُ في عيون زهرِ الماء الأخضـر، زهرِ المستنقع، وفوق رأســي تزهر الزنابق.

لقد أخذني إليه، إلى مملكته تحتَ الماء، يا أمي؛ ولهذا السبب، أنا لم أتصل بك منذ مدة طويلة، سـامحيني. الزمن يهربُ، هناك، دون أن تلحظيه. لم أستطعْ اعتيادَ الأشــياء، أنت تعرفين، إنني كما لو كنت قد فقدت تماسكي. على ما يبدو، قواي قد انهارت، أنت محقَّةٌ... ماذا؟ نعم، اغلي لي بعض الأعشاب: زهر الأقحوان الشمســي، برائحة الغبار القابضة، أضـيفي إليه الليلك، الذي يفوح بالرائحـة المخدرة، قربَ سـطحِ المنزل الريفي، وأضـيفــي أوراق «عنب البقر» من الغابة، وأوراقَ، وأكواز الصنوبر، ونكهةَ الفطرِ، ودخانَ الموقدِ، و«الســجادةَ» مــن حديقــة منزلنا. أضـيفي كلَّ أكاليل الورد، إذا اتسـع لها إبريقُ الشــاي، حينئذ، من الممكن أن أشفى من الشوقِ، وأتصالحَ مع العالمِ المتغيّر.

ما بك تصمتين؟ لماذا أرى الدموعَ على وجهكِ؟ لا يمكن أن يكونَ احتياطيُك من الأعشاب السحرية قد انتهى، وأنني لن أشفى، يا أمي؟

أعطيــني مســتخلصاً من حلـزونِ البحـرِ واليخنــةِ البحريةِ، أعطيـني نبيذاً أبيضَ بطعم اليود، سأســتلقي على الموجِ متأرجحةً، فاردةً ذراعيَّ، متأملةً زرقةَ السماء الرائعة.

أمـيري معي، إنه مطبوع هنا، في روحي، ولتكنْ عيناه مغلقتين، ماذا في ذلـك؟ إنني لا أنظرُ إلى كـتفيه العريضتـين، فهو لن يحملَني على ذراعيه، ولن يسمحَ أن أغفو في أحضانه، لكن، هل هذا مهمٌ؟

لقـد هربت مـن هناك، يا أمـي، وها أنا معـك أعطيني كوباً من الحسـاءِ، سأشـربه حتى الثُمالة، كما علمتِني. والآنَ سـوف أذهبُ، لقد آن الأوانُ، عليّ أن أجد طريقـي إلى أين؟ اعذريني، لا أستطيع أن أبقـى، لوِّحي أنت لي بيدكِ من النافذةِ مودعةً وحسـب سـوف أسـتديرُ فيالفناء، بعد صهريجِ الماء، وسوف أرفع نظراتي لأرى كيف تنظرينَ أنتِ في أثري.

الغريبـــة

لم أعدْ أتذكَّرُ عددَ لقاءاتي بها وسَط بروكسل. حدث ذلك لأوَّلِ مرة في الشارع التجاري الذي يعجُ بالضوضاء: كنت قد عملتُ مناوَرةً وسط الناس، وذهبت إلى محل لتنزيلات الملابس، أما هي، فقد ظلَّت واقفة عند مدخل أحد الأسواق، مع حقائبَ رثة. لقد اعتقدت للوهلة الأولى أنها امرأةٌ بشعر مصبوغ بالأحمر. لكن ذلك غالباً ما يحدث عندما تلمحُ أحدَهم يمر سريعاً عَبرَ حشدٍ من الناس. لقد استدارتْ، فوجدتُ نفسي معها وجها لوجه، رأيتُ شعرها القصيرَ الخشنَ، وملامحَ وجهٍ بشع... لم يكنْ مظهرُها نسائياً أبداً. أما صوتُها: لقد أثبتَ أنه المحاورُ المتخيلُ تماماً، عندما انطلقت كلماتُها بصوتٍ جهوري، كأنه صوتُ رجلٍ مدخن، ممسكةً أشياءَها بقوة.

كانت حقائبُها ضخمةً، بلاستيكية، ذاتَ لونٍ رمادي قاتم، تشبه حقيبةَ «السامسونيت». إنها تحبُّ، بشكلٍ عام، الطّيفَ الحزينَ. الرداءُ، باروكةُ الشعر بقصة «caree»، المعطفُ المطريُّ الطويلُ ذو الزِّنار، «الكلسات»، والحذاءُ ذو الكعبِ القصير. كلُّها كانت بألوان قاتمة. لباسُها لا يتغير، فهي في كل الأوقات، وفي أي يوم من أيام الأسبوع، وفي أي حال من أحوال الطقس، كانت ترتدي ملابسَ الحدادِ تلك التي لا تتسخ. العينان، غالباً، تميلان إلى السوادِ الكثيف، لكنَّ شفتاها لم تكونا مطليَّتين بأحمرِ الشفاه. بدا عمرُها يقاربُ الأربعين، لكن من الصعب تحديدَه بالضبط: لقد تجرأت أكثر من مرة على النظر في وجهها.

إنني أجهل ما إذا كانت لديها ملابس أخرى. ماذا كانت تحمل في حقائبها؟ غطاءً، متاعاً متواضعاً، موادَّ تجميليّةً رخيصةً، صحفاً للدفء، رقىً للحب؟

لم أكن أعرف، أيضاً، على ماذا كانت تعيش. إنها لا تطلبُ الصدقةَ على الإطلاق، مثل عشرات الفقراءِ الآخرين هنا. لديها مساحةٌ خاصةٌ بها، لكنني لم أرَها مرةً تعملُ. في الحقيقة كانت أحيانا تنبش حاوياتِ القمامة، لكنَّها، بشكل أساسي، كانت تقف شاردةَ الذهن، في مكانٍ واحدٍ، أو تذرعُ شوارعَ المدينة بهمة، إنها بعبارةٍ واحدةٍ رحّالةٌ مرهقةٌ، لا تستطيعُ، بأي شكل من الأشكال، أن تجدَ فندقاً رخيصاً بين متاهةِ الشوارعِ والبنايات. تبدو ملابسُها مبلولةً وغير نظيفة بعد سفر الليل، التفّت كلساتُها، ساح مكياجها، وازدادَ صوتُها سوءاً بسبب العطش، حقائبُها صارت تجذب كتفيها إلى الأسفل، لكنْ لا نقودَ من أجل سيارة الأجرة. الفندقُ لم يتوفر، ولا يوجدُ مكانٌ تستطيعُ أن تستحمَّ فيه، وتبلِّل عطشها، وتستلقي للراحة ولو قليلا. الغريبةُ تلفُّ الشوارعَ، تتوقفُ مشدوهة عند التقاطعات، هاتفةً بألم: «ما هذا في نهاية المطاف! لقد كنت هنا من قبل! أين هو هذا الفندق اللعين؟»ومع غياب الشمس، وبعد أن تتعبَ من البحث، تجولُ عائدة إلى محطة القطار، لكي تقصر الزمن ليلة أخرى، وليتعود لمواصلة بحثها في الصباح.

يستولي عليها اليأسُ من شدة التعب، في صباح سبت غائم، تجلسُ متفكرةً، منقطعة عن الدنيا، في شارع خالٍ من الناس، وسطَ مربعٍ تجاري، حيث لا يتواجدُ أحد هناك في مثل هذا الوقت. كنت أغذّ السير إلى المسبح. وكانت هي تجلس ملقيةً ساقا على أخرى، وملقيةً خدها على كفها، ناظرةً إلى البعيد، وإلى داخلها، في نفس الوقت، وحقائبُها الوفيةُ تقف مشدودةً مثل عسكري على الأرض عند قدميها. ترسلُ السماءُ رذاذا؛ لكنَّ شجرةَ البلوط وارفةَ الأغصانِ كانت تحميها من البلل.

عندما عدتُ من المسبحِ متجهةً نحو قطار الأنفاق، كان المطر ينهمر، كما هي عادةُ الطقس هنا. وكانت هي ما تزال تجلسُ تحت مظلة إحدى محطات الحافلات، فوقَ إحدى الحقائبِ، شاردةَ الذهن كالعادة، منتظرةً انتهاء المطر، كي تنطلق مجدداً في ترحالها، الذي لا ينتهي.

داريا سيمونوفا(*)

- تمثال من البرونز.

(*) ولدت سنة ١٩٧٢ في مدينة سفيردلوفسك (يكاتيرينبورغ حاليا). درست الصحافة في جامعة الأورال. لها عدد من المؤلفات في الفنون، وفي تاريخ الأدب. تعيش في موسكو.

تمثالٌ من البرونز

التمثالُ هو أيضاً امرأةٌ تعيسةٌ، تحبُّ الكونت.

رواية «معادلة الحب»

إنهم يشعرون، بالطبع، أننا أحياءٌ جزئياً. لكن؛ لماذا يتصرفون بغرابة؟ تقول كلوديا، إنهم لا يستطيعون مواجهة الجاذبية الجهنمية، لذلك هم يَقَعون في الوهم. عندما سُمح لنا بالسير، أوضحت لنا المرأةُ الطيبة، أن التماثيلَ كانت دوماً موضوعَ رغبة سرية وعلنية، لكنَّ الناس لم يكونوا يعرفون ماذا يفعلون مع هذا الأمر، لذلك كانوا يُخفون تطلعاتِهم بالرعونة. قلتُ، لا ضيرَ في ذلك. لم تتمكن كلوديا من الإجابة، لأنه كان علينا العودةَ إلى أماكننا.

سُمِح لنا مرةً بالتمشي ليلاً. قليلاً ما يكون قطار الأنفاق خالياً من الناس، و يحدثُ ذلك ليس لأوقات طويلة. على أي حال، وما أن نُحِسّ باقتراب شخص ما، حتى نقفز ناكصين إلى قاعدة التمثال. قالت كلوديا، إنه يهيأ لها، كما لو أنها قد عاشت في هذه الدنيا أكثر بكثير مما عشت أنا. انهارت الإمبراطورية، وراحت رموزُها تتأرجح وتجول في كل الأفكار. يستجيب عالمُ ما تحت الأرض للمتغيرات فوق الأرضية بطريقته. وقد جلسنا من دون حراك لفترة طويلة قبل ذلك. ومع ذلك، فأنا لا أحصي السنين. إن ذلك غير ممكن. الوقت بالنسبة لي عبارةٌ عن تقلُّبٍ في «الموديلات». ومع ذلك فإن الوجوه تتسابق إليه. قال لي النّحات الذي «صنعني» إنَّ الجمال الإنساني، كما هو أيُّ جمال، يعتبر جمالاً وظيفيا. ومن غير ذلك هو ضار. أمّا أنا فأعتقد عكس ذلك: إنها وظيفيّة كاملة. وكم هو رائع أن تجد الأشياءُ الجميلةُ، التي ولدتْها

الطبيعة، تفسيراتِها. وأكثرُ الأنماط قرباً، هو النموذج المقدم في قصة «ذات القبعة الحمراء» (*): لماذا لديكِ هذه الأسنانُ الكبيرة، يا جدتي؟.... ومع ذلك، وإذا لم نتعمقْ في أحداث القصة، فإنه لا يمكنُنا إلا أن نعترف أن الذئبَ حيوانٌ جميل.

إنني لا أجادل، بل أتأمل في الموضوع. إنني أخاف أن أفقد أهلي. إنهم قليلا ما يأتون، إذ أنني أعيش في مدينة أخرى. وقد جئت إلى محطة مترو «ساحة الثورة»، بالضبط، أسفلَ واجهةِ المحطة مباشرة، حيث يلتقي الكثيرون من أمثالي، ممن لم يرحلوا إلى السماء. لكنْ يتوجَّبُ الحديث عن كل شيء بالترتيب.

يستطيع أولئك الذين تُنحتُ لهم التماثيلُ، أن يحلّوا في أجسادهم البرونزية بعد الموت. وإلا فإنه لن يكون هناك أيُّ دور للمادة الجصية. وإلا فالأجدر أن تدفن المنحوتة تحت التراب (يبدو، أن هذا الرأي هو لأجل جعلِ التجسيد مقبولاً)، لكنني تُهتُ في الموضوع. إنني لا أقّدم فكرةً معيَّنَة، إنني أتذكّر حياتي الدنيا على شكل مقاطع. قرّرتُ التالي: لقد قصقصتُ ذاكرتي مثلَ شريط سينمائي، حتى لا أندم على شيء.

عشنا، أنا وأمي وأختي ماريا، في الثلاثينات في لينينغراد. كان أبي كثير السفر في المهمات، ولم نكن نراه إلا نادراً. لقد احتفظتْ الذاكرةُ بصور عن قاعة الجمباز الفني، والتمارين مع الشريط... لم أكنْ أطيقُ اللعبَ بالكرة والأشرطة. كانت الأشرطةُ تتلوى في الهواء لامعة، مشكلة زخرفة ساحرة. كنت أرغب بالتخلص من كثير من أغصان اللبلاب الملونة. لكن هذا لم يكن ليتم إلا بمساعدة الإلهة ذات الأيدي الستة... إلا أنني لم أكن أؤمنُ بمثل تلك الآلهة.

لقد عشت مع شقيقتي في وئام، كما يجدر بتوأم أن يعيش، لكن دوماً لم يفارقني شعورٌ أن ذلك الوفاقُ هشٌ، وغير موثوق به. وقد تصدّع مرة، بالصدفة،

(*) هي القصة العالمية المعروفة ليلى والذئب.

وبشـكل سخيف. لكن؛ عندما يكون هناك شـيء يجب أن يحدث؛ فإنه لا يحتاج إلى سـبب وجيه خارجي. كلُّ شـيء بدأ من اللحظة التي ظهر فيها شاب في حياة أختي. ولم يكن لدي صديق. إن ما أثار دهشتي هو أنني لم أكن الأولى، رغـم أننا لم نكـن نتنافس. لكـن ذلك، كما يبدو، بقي حتـى حين. فقد استيقظ لدي شيطان. قرّرت بكل بساطة أن أكون أكثر إشـراقاً، وملفتة بالنسبة لأختي. اقترحت عليها من باب المزاح أن ألتقي بصديقها الشـاب بدلاً منها، لنختبر إن كان سـيميّز بيننا، أم لا؟ اضطربتْ شقيقتي بشكل جدّي، ومن تلك اللحظة أصاب علاقتنا تصدع. لقد عانيـت. لم تتوقف أمي عن إبداء دهشـتها من حظي السـيئ: لماذا كلُّ الأمور تبدو ميسـرة، وسلسة مع إحدانا، أما الأخرى فقد أصبحت صعلوكة ميئوساً منها، مرتبطة بثلة مخبولة.

دراسـتي أصبحت سـيئة. تمكنـت وبسـرعة من تجـاوز ماشـا (*) بعدد الأصدقاء، ولم يكن ذلك صعباً: أما هي فما زالت مرتبطة بذات الشاب الأول... من جهتي كانت المشاوير عبارة عن استعراض ضمن صخب حياة العائلة.

ومع ذلك، لم تكن لديهم أدنى فكرة عن شـعور الحسـد الذي يسحقني. أو شـعور الغيرة. لم أتمكن في أي وقت من الأوقات من انتقاء معنىً مناسبٍ لهذا الشعور الحارق.

بعد ذلك جاءت الحرب. ذهبتُ لأدرس التمريض، وجدت نفسـي في الجبهة. ومـت. لا أريد حتـى تذكّر ما فعلتـه بغبائي. اعتدت الاعتقـاد أن ذلك كان قدري. أو أن السبب يكمن في أن الملاك الحارس عند التوأم واحد للاثنتين. وقد يكونـا اثنين، سـياميين ملتحمين، وهذا غير مهم. المهـم أن الملاك ابتعد عني وبقي قرب أختي.

لقد عاشت هي في حصار. تزوجتُ... لا أعرف شيئاً عن والديّ، لكني صادفت ماريا مرة. لا يمكنني نسيان ذلك اليوم. جاءت مع أطفالها... تبحث عني. كان

(*) اسم التصغير من ماريا.

قطار الأنفاق مزدحماً بالناس. أنت تنظر من خلال الجسد البرونزي، تماماً كما لو كنت تنظر من خلال عدسة موحلة. السمع للأسف، كان كذلك أيضاً؛ لكنه كان بالإمكان تمييز كلمات الأشخاص المقتربين. يعاني أكثر الناس حساسية من ضجيج القطارات، لكني لست في عِدادهم، فقد اعتدت منذ أمد بعيد على الضجيج. وما أن ألحظَ وجهاً مألوفاً، حتى يراودني اعتقاد، أنني أعرفه. لكن؛ هل أستطيع أن أعتقد، أنني أستحق... لا، إلا أنني أظن، أن الناس يشتاقون إلى الموتى. لكن؛ وبما أنني فظيعة مشاكسة، فإنني لم أكن آمل أن يأتي أحد ليراني. كانت ماريا تتمشى مثابرة في ساحة الثورة، شارحة للأطفال شيئاً ما باضطراب، ناظرة إلى أبطال الملحمة السوفيتية المجهولين. رغم أن ما كان يسر الأطفال هم الفدائيون من مشاة البحرية، وهناك مختار، الأكثر معاناة، الذي كان أنفه ملطخاً بآثار الأصابع حتى صلعته اللامعة. ماشا لم تجدني. هنا يوجد ٧٦ تمثالاً. متاهة كبيرة. الأفضل عدم الارتباط بها. والأسهل، كما أعتقد، هو البحث عن نسختي الخاصة، ترانا أنا وأختي قطرتا ماء.... غير أن السهولة خادعة. فالبرونز ليس قماشاً، والمنحوتة ليست صورة.

علاوة على ذلك، فأنا هنا لا أشبه نفسي في الحياة الدنيا. وقد بدا ذلك إحدى أقوى حالات الإحباط لدي. صرت أجلس متجمدة كما لو أنني أجلس أمام مصوِّر، وذلك من باب الفضول، لكنني سرعان ما صَببت جام غضبي على هذا العمل. كيف عرفتُ أنني سأدخل في قصص إضافية أخرى؟ لم يعجبني النحات. لقد جعل مني فتاة تستظهر الكتبَ وتحمل كتاباً بيدها. أما القوام، فلم يكن يمتّ لي بصلة. كان قوام تلميذة حقيقية. حتى أنه لم تكفني شيطنتي السابقة، لكي أوجِّهَ اللوم للنادل. يبدو أن كلَّ شيءٍ كان مقدَّراً لدي. ألقى النادل عليّ نظرة استهزاء وأعلن أنه منح ملامحي «الكمالَ الأيديولوجي». وبالفعل لم أُخبرَ والديّ أنني خُلِّدتُ بتلك الطريقة المريبة. والغريب أن تعرف ماريا بالأمر. وأنها، بشكل عام، كانت ترغب بمعرفة ذلك...

كان يوجد شيء غريب هنا. كانت ماريا تحب فيّ شقيقتها الطفلة. وفي الحقيقة، فقد كانت تخاف، إلّا أنها كانت تقوم بمحاولات هشة لإعادتي إلى سيرتي الأولى في نفس الوقت. هي بقيت كسابق عهدها- الهادئة، ذات العينين الواسعتين الجذّابتين. من المؤسف، أن المنحوتةَ لا توصل اللون. كنت أنا وأختي... رغم أن الموضوع لم يعد له أهمية الآن.

أصبحتُ «موديلاً» بسبب الحب. تعرفت إلى طالب من أكاديمية الفنون. نموذجٌ أصيل، أشقرُ كثيراً، لكن كان به شيء من الهشاشة والحيرة. علّمني الرسم. هوايةٌ غير موثوقة. أما أنا، فقد علمته لعب الورق. لم يكن بيننا أي شيء. قال إن لديّ هيئةً رياضية رائعة، وأراد أن يرسم صورة. لكن؛ لم يخرج لديه شيء في المحاولة الأولى، فتراجع عن الفكرة. بعد ذلك، أخذني إلى ماتفي، مستنداً إلى أنه، يجب إعطاء الخبز إلى الخبّاز. ماتفي كان معروفاً لأوساط ضيقة. بدا بالنسبة لي حَمَلاً. نبّهني صديقي الطالبُ، قائلاً، إنه يجب أن يكون لدى النحات شخصية ثقيلة، وبخلاف ذلك لن يُنتج أعمالاً فنية. حاولت عزل الموقف، وثرثرتُ شيئاً ما... لكن ما كان يُعجبُ الفنان هو الفتيات الميساوات. إنه يعتقد، أنهن لا يتكلمن.

لم يخرج لدى صديقي الطالب شيء. لقد اختفى. جعلني اختفاؤُه أعاني. لم أدرك أنني كنت أعشقه إلا بعد أن فقدته. في أحد الأيام، لم يأت إلى الموعد المحدد بيننا، ومن ذلك الحين لم نـر بعضَنا. كنت أعرف أنه يذهب إلى محترف ماتفي. لكن لم تتقاطع زياراتُنا، ولم تكن بي رغبةٌ أن أُطلعَ النحاتَ العابسَ على فشلي الغرامي. حتى إنني كنت أخجل من التفكير بالأمر!

قادنا القدر إلى هنا. لم يكن يخطر ببالي أنه هو أيضا كان هنا بوصفه «موديلاً»! عندما تمكنّا من التجول في ردهة الاستقبال، كنت أول من يتعرف إلى كلوديا. إنها تجلس مع الدجاجات، راسمةً امرأة فلاحة طليعيّة. وهو ما يسرها بشكل لا يصدق. بالاختلاف عني، عاشت كلوديا عمراً مديداً، ورأت كلّ شيء. إنها متفائلة، إنها الوحيدة بيننا التي تجيد الضحك.

لكنَّ الناسَ لا يستوعبون مثل تلك الطهارة. أخبرتني كلافا (*) أنهم ألّفوا حولنا رزمةً من القصص. لم يعد هناك حديث حول «الضيف الحجري». آخر الأخبار التي حصلتْ عليها كلافا في حياتها كانت حكايةٌ حول ماري بوبينس، حيث يوجد تمثال الفتى الصغير... «لا يعقل أنك لم تقرئي؟!»نعم، لم أقرأ. أوضحتُ أنا أنَّ هذا غيرُ جذّاب بالنسبة لي. وإنني لا أحب المطالعة. رغم أنني، ومن سخريات القدر، أجلس الآن بشكل أبدي مع الكتاب. أحد خفيفي الظل جسّدني في تمثال برونزي. رفيقتُه راحتْ تضحك بكسل. هل يعني ذلك، أن نضحك؟ قدّمتْ لي معلمتي الموسوعيّة، أثناء مشوارنا، شرحاً عن رواية ريباكوف. لكن لم يسرني مثلُ ذلك التلاعبُ بالكلمات.

وبفضل كلوديا كنت قد التقيتُ الطالب الجامعي. هي من لفت انتباهي إلى ذلك«الوسيم». إنه لم يكن يتحرك من مكانه إطلاقا. فنحن نخاف جداً أن نكون مرتبطين بشكل مفاجئ، بأي جائحة. نختفي عن الناس، حتى لا يَفسُدَ نظام الكون. لكني لا أفهم بهذا الموضوع شيئاً، لأنني لا أتذاكى. أرى كلوديا تتمشى، أعرف أنه باستطاعتي التمشي كذلك. إنها أكثر الناس خوفاً. لدى صديقي الطالب نظام روحي رقيق. الأمر صعب بالنسبة له. لم أعرفه فوراً. إنه أيضاً لم يكن يشبه نفسه. لكن لا بد من تمييز، لا الأشكال الخارجية، بل الأحاسيس المنبثقة من الجسد. فكلُّ سكونٍ يضم في أحشائه جنين الحركة، التي في أي لحظة...

بكلمة، لا؛ ليس بالضرورة النظر، يكفي الإحساس. عندما عرفته، وقفت متسمرةً في الأرض. ليس من أجل دعوته لإقامة تواصل، إنما ببساطة كنت قد ذهلت. العمر الذي لم نعشْه يجتاحنا. إلهي! أفكّر، إنَّ أفضلَ شيء عندي، هو ذلك الشيء الذي لم يحدث معي بعد...

في المرَّة الأولى، هُيّئ لي أن الطالب لم يعرفني. كان من الممكن أن يحدث ذلك في الحياة الأرضية. من أكون أنا بالنسبة له؟ إنني لست حتى منظراً

(*) اسم تصغير من كلوديا.

طبيعياً للرسم. لكن؛ عندما اقتربت منه في اليوم التالي، هبّ لاستقبالي. وقد خفنا كلانا. موجة الجاذبية، إن سُمح لها، يمكن أن تكنُسَ كل شيء في طريقها. لدرجة أنه يصعبُ تصورَ ما سيحدث، بعد كل تلك السنوات من البطالة.... لكن كيف يمكن لتمثالين أن يُحبّا بعضهما؟!

ليس عبثا رسمَ «المهندسُ الصغير» إشارةَ الصليب، كما أسمت كلوديا أحد أفراد ثلتنا، مستشعرا شيئاً غير حسن. وهكذا بقيت الفرشاة في قبضة يده. لكن أكثر الناس لا يلاحظون أن التغيراتِ في الوضعية صغيرةٌ.

وهكذا، نحن، أنا وصديقي الطالبُ، ننزلُ أحياناً وننظر إلى بعضنا. لا نتكلم. حتى كلافا لا تعرضُ خدمات الفراش، إنها تدركُ، أن ذلك محفوفٌ بالمخاطر. ما أن تلاحظني قد شردت بتفكيري، وقت المشوار، حتى تسعى إلى إبعاد تفكيري من خلال سرد الحكايات. تحكي أنه يعجبها عندما يمسونها! فهي امرأةٌ لا تهدأ... يسرها، أن التماثيل لا تعاني من عقدة نقص في التواصل عبر اللمس، وتتكلم عن ثدي جولييت الأيمن في فيرونا، وعن القديس على جسر كارلوف، وعن الخيول والكلاب... كلافا تعرف كثيراً من أنواع بائعات الهوى، كأنها ليست تمثالا، إنما ضفدعاً جوالاً!

أنا شخصياً لا أبالية اتجاه التحرشات. لكن الناس لا يضايقونني. إنهم أحيانا يكونون مسلّين، وأحياناً غاضبين كالنمرات. لكنني مرّة خفت حقيقة. تناهى إلى سمعنا صوتُ كلافا استنكرت بالطبع أن أحد الرجال السمان يريد أن يشتري تماثيلَ معينةً. وأنه يريد إنجازاً وطنياً، الآن كل شيء ممكن مقابل المال... وكما لو أنني نظرت إليه وسطَ عددٍ من «الأشخاص المحظوظين». أوه، لا، أرجو أن لا يحدث هذا! أن تصاب بالخمول في قصر أحدهم يُعتبرُ قدراً لا يحسد عليه. إن الملكية الخاصة حالة أخرى تماماً.

هذه أنا، غبية، كمهرج، أفلتُّ تماماً من اعتباري أهم شيء، وهو أن لا أعود أنا ذاتي. أجد نفسي فوق الغيم، هناك تقابلني أرواحٌ لا تُعدُّ ولا تحصى...

بينهـم أمي وأبي وأختي، التي ماتت، بالطبـع. إنني قليلاً ما أرى أبناءها وأحفادها. أحدهم، شـاب، صاحب ذوق رفيع، ويـعرفني. لكن المسـألة ليست هنا... العروج إلى السـماء صحيـح بالمفهوم الإلهي. لكني اعتدت الأشـياء هنا. كل شـيء هنـاك كثير، أما هنا فنحن مئات قليلة. ليكن ذلك فخراً لكن الأمر سـيان بالنسـبة لي! أنا هنـا أنتظر الحثالات. لدي رسـالة صغيرة. بعضهـم، من الذين يتأخـرون حتـى منتصف الليل، كانـوا ينظرون إليّ شـخصان محترمان، قد يـكونـان زوجين، أو عاشـقين. المرأة أشـرقت فجأة. صاحـت: «بوريا، لقد بدأ التمثـال يتحـرك، للمـرة الأولى!». أما بوريا فقـد أجاب: «لماذا تقولين هو؟ قد يـكون هي... ».

وكمـا لو كنـت أنا هنا غـير معنية. الطفـل تحرك في البطـن. وعندما يحدِّدُ أحدٌ ما موعداً عند قاعدتي، ويتصالح مع أحد ما، أو يتعرف على أحد ما، فإنني هنا لسـت أكثر من ديكور. أم أنـني، علي أي حال، ميئوسٌ مني، وأعمل طلاسـمَ؟ لا أحد يجيبني، لكن عليّ أن أجلـس في مكـاني و... نقطة في آخر السـطر. ولو وجِدَ جزءٌ من ألف من احتمال أن أكون فألاً حسـناً، لما تركت هذا المكـان.

على أي حال، لم نُبَعْ لعالم الجمال. وقد تذكّرت ماتفي: ربما يـكون سير الأحـداث لديه قد أنعشـه. قَبيل الحـرب انتقل من بيتر إلى موسـكو، وكما سمعت، أن الوظيفـة صقلته. صحةٌ وعافية! لقد اسـتولى على حصة كبيرة، أمـا الآن فقليلاً ما يتذكره أحـد. إذ أن هنا أضـيق حلقة. لقد كان هو محقاً، على ما يبدو، إذ قال، إن لدى كل تمثالٍ رسـالةً... أم أن تلك كانت كلماتُ صديقـي الطالب؟.

ليونيد تاتارين(*)

- كيف ترفِّعَ الملازمُ إلى رتبةِ رائد .

(*) ولد سنة ١٩٤٢ في قرية كوشمورون شمال كازاخستان لعائلة رجل كان منفيا من قبل السلطات في العهد السوفيتي. درس في الكلية البحرية في لينينغراد. منذ سنة ١٩٧١ يعمل قبطانا على سفن الصيد وسفن البحث العلمي التي تجوب البحار والمحيطات. كتب الشعر والقصص والمقالات منذ باكورة شبابه. مؤلف كتاب «بنك جرجيس» الذي يتحدث فيه عن رحلاته البحرية.

كيف ترفَّعَ الملازمُ إلى رتبةِ رائد

«روى لي هذه الحكاية، شخص كان مسافراً لزيارةِ أخيه الأكبر، الذي كان يعمل صياداً محترفاً لأكثر من أربعين عاما في بيلوفيجسكايا بوشا، وحدث ذلك بطريق الصدفة، في القطار المسافر من كالينغراد إلى بريست».

كانت هناك أكثر إقطاعيات البولونديين غنى بطرائد الصيد- إقطاعيات عائلات سابيغي وراد زيفيلا. لم يكن المسؤولون البولنديون والروس، هم فقط من يحتشد من المدعوين إلى الصيد، بل وكان يحضر جميع حكام أوروبا تقريبا. هنا، في الاتحاد السوفيتي، كان الصيدُ ممنوعاً بتعليماتٍ حكوميَّة. لكن.. نيكيتا سيرغيفيتش (*) اتفق على لقاء «غيريك» في منزلٍ للصيد على الحدود. وقد صدر أمر، من خلال مجلس المدينة، للصياد الأكبر في بيلوفيجسكايا بوشا للحضور:

أعدّوا العدةَ لتنظيم مطاردةٍ كبيرة!

كان الجواب على الطريقة العسكرية:

عُلِم، سيتم ذلك.

وصل الضيوف الكبار بعد أيام قليلة. كان نيكيتا سيرغيفيتش غير راضٍ أبداً؛ لأنهم ساقوا إليه الحيوان البري كما لو كان منقاداً بحبل- فالصيدُ يجب أن يكونَ حقيقياً! والحيوانُ يجبُ أن يكون من ذلك النوع، الذي إذا نظرت إليه اقشعرّ بدنك رعباً، حتى يشعر المرء بفخر حقيقي بالحصول على هذه الغنيمة منتصراً! هنا، بذل المطاردون المحترفون جهداً ملموساً- لقد وجدوا خنزيراً برياً (حلّوفاً)، لدرجة أنهم أنفسهم دهشوا لحجمه- أين كنت

(*) هو الزعيم السوفيتي نيكيتا خروتشوف.

مختفياً أيها الجميل! أُحضر الضيوف، وزِّعوا على أماكنهم، ورفعَ المطاردونَ عقيرتَهم بالصراخ بأصوات وحشية، مطاردين الحلّوفَ بحيث جعلوه يهرب ماراً في البداية من أمام غيريك كما أمر بذلك نيكيتا سيرغيفيتش.

لكنَّ الضيفَ اللبقَ قرّر أن يمنحَ شرفَ النصر للمُضيف، فلم يطلق النار. اعتقد نيكيتا سيرغيفيتش أنّ الضيفَ، بكل بساطة، جَبُنَ، فقرّرَ أن يُثبتَ الإقدامَ الروسي. لقد كان هدّافاً جيداً، وكانت بندقيته ممتازةً، وعتاده جبّاراً، اخترق العتادُ عظامَ جبهةِ ذلك الحلّوف. لكن؛ ربما أُصيبَ الوحشُ الضخم، أو ربما ارتجفتْ اليد. لم تسقط الطريدةُ فوراً، لكنها انقضت على نيكيتا سيرغيفيتش! ولم توقف الطلقة الثانية الحلّوف الجريحَ أيضاً. وهنا، ظهر ملازم شاب ببندقية «كاربين» قصيرة، مطلقاً رصاصتين متتاليتين، من وراء ظهر المُضيف، أصابتا الحلُّوفَ مباشرة في الغارب.

ترنَّح الصيدُ الضخمُ، ثم همدَ على الثلج قرب قدمي نيكيتا سيرغيفيتش. تراجع الملازمُ بدقةٍ وبطريقة جميلة، كما يحدث في الطابور العسكري، مختفيا خلف ظهر خروتشوف. ألقى غيريك بندقيته خلف ظهره، وأخرج من جيبه كاميرا تصوير «كوداك» والتقط بعض الصور:

أهنئك، يا نيكيتا سيرغيفيتش!

استدار المضيف نحو منقذه، ماسحاً العرقَ الغزيرَ المتصبّبَ على جبينه، مردّدا بشكلٍ عصبي:

أيُّها الملازم! أيها الملازم!

سأل غيريك بلطف:

لماذا الملازم؟

نعم، بالطبع.. إنه ملازم ثان!

سأل غيريك مندهشاً:

وهذا كل شيء؟

بالطبع، لا، إنه نقيب.. لا، بل الأفضل أن يكون رائداً!

تدافع الجميع مهنئين نيكيتا سيرغيفيتش والرائدَ الذي ترفَّع للتوفي رحلةِ الصيدِ الموفَّقة، وبعد ذلك أخذوا بعض الصور بالقرب من الصيد الضخم.

جريجوري زلوتين (*)

- الجسر.

(*) ولد سنة ١٩٧٠ في لينينغراد. درس اللغات في كلية اللغات الأجنبية في معهد غيرتسين للتربية في لينينغراد. أنهى الماجستير والدكتوراه في الفنون في الولايات المتحدة الأميركية. وما زال يقيم هناك. يترجم من اللغة الألمانية.

الجسر

كنت قد رأيت، في أحد الأيام، من أيام الشباب البعيدة، النهرَ، لأولِ مرةٍ في حياتي. لم تكن هناك حدود لدهشتي. ولكي تدركوا ما حدث لاحقاً، عليكم أن تعرفوا، أنني شخصٌ أنتمي إلى اليابسة بشدة. إنني لا أجيد السباحةَ بأي حالٍ من الأحوال، أخشى الماء حتى النخاع، حتى عندما يسيل، ببساطة، خلف ياقة القميص (لم أتحدَّثْ بعد عن المحيطات). لقد عشت كل طفولتي فوق سهل واسع مقتطع من البحر. لم أزر الشاطئَ قط، إذا ما استثنينا الرحلةَ الوحيدةَ للصيدِ، التي حدثت منذُ زمنٍ بعيد، والتي أكرهُها. إضافة إلى أنني، وبعد تأرجحي مرةً على الأرجوحة، كنت قد أدركتُ، أنني لن أحتملَ التأرجح أبداً، كما أن قصص البحر تُسبب لي الغثيان.

لم يكن هناك جسر على النهر. وقفت متردداً عند منحدر ملتوٍ، كانت تحوم فوقَه طيور السنونو؛ ولما لم أجد شيئاً ممتعاً، مضيت في سبيلي. (أنا- رجل عالم، أبحث دوما، وفي كل مكان، عن أشياءَ ممتعة، تماماً مثل النساءِ القرويات، اللواتي لا يتوانين عن البحث عن الفطر، كلَّما صادف وجودهن في الغابة). فجأة هبّت نسمة، حاملةً أوراقَ الخريف، شيء ما جعلني أنظرُ إلى الأسفل، إلى الشاطئ المقابل. وما أن نظرت إلى هناك، حتى كِدْتُ أفقد حواسي. هناك، فوق الحصى ذات الحفيف، كانت تقف السعادة. ما الفائدة من وصفها؟ هل أقول، إنها كانت متألقة كلها مثل الشمس الساطعة، تماماً كأنها رفوف من الحبريات السماوية المجنحة؟

هل أتحدّث للذين لم يكونوا هناك كيف أنها (السعادة) اعتصرت عبير أوراق الشجر الوردية؟ وكيف غنَّت أجمل من مزامير داوود؟ هل أتحدَّث عن أنها عكّرت مزاجي حالا بمسالمتها الرخوة، المترددة؟ كلُّ شيء عبثيٌّ، ومن لم يرَها، لا يستطيع أبدا أن يتوصل إلى ذلك.

تدحرجت قاذفاً نفســـي في الماء. لم يكن هناك مناطق يابسة يمكن أن أخوض النهر عبرها، ولا قوارب قريبة! هرعت إلى القرية من أجل أن يساعدوني علـى العبور.. لكـنَّ الجيرانَ كلَّهم، والمـارةَ، وجميعُ النـاس في الناحية على الإطـلاق، مـا أن سمعـوا طلبي، حتـى راحـوا، وللغرابـة، يبتسـمون، ويغذُّون الخطى في كل الاتجاهات، هازين رؤوسـهم لي باستحسـان. نهضت مستعيناً بسلسـلةٍ معدنيةٍ، باذلاً كلَّ جهدٍ بالنظر حولـي، ألا يوجد في البلدة أو في أي مـكان آخر مـن مقاطعتنا، أو في المقاطعـات الأخـرى، أو في أي مكان خلفَ الحدودِ (لنقل عند رأس هورن) شخص، يمكنه الموافقة على أن يـكون حمالاً ينقلني إلى الطرف الآخر. هل قرَّرت العودة إلى ستيكس(*).

في حقيقـة الأمـر!.. لكنهم جميعا كانـوا يهزون رؤوسـهم تعاطفاً ولم يُقبِل أحد على مساعدتي.

هربـت مجدداً إلى الشـاطئ. لم تذهب السـعادة إلى أي مـكان. لقد بقيَتْ كمـا هـي، واقفةً إلى جانب النهرِ غـير العريض، تسـتدعيني بنظراتها المحبةِ، وتغني لي.

عندهـا رحت أبني جســراً فكّرت: «ما دامـتْ غيرُ متعجلـةٍ، والنهرُ ضـيقٌ، فإنني سـأتمكّن من الانتهاء من بناءِ الجسـر» سـاعدني الجيران بتقديم جذوع الأشـجار. أرسـل صاحبُ المطعم، الذي أتغدَّى فيه، عربةً مليئة بألواح الخشـب، وكيسـاً مـن المسـامير. صـار العمـلُ يغلي. هبـط المسـاء، لكن النـوم فارق عيونهـم، المطـارق ظلَّت تـدق. وفي فترة متأخـرة، بعد منتصف الليـل، عندما تهيئـوا للنوم في الكوخ الذي سـرعان ما امتلأ عن بكـرة أبيه، تهيأتُ كي أُرسلَ في الصباح أحدهم لاستدعاءِ مهندسٍ من المدينة... لقد كان النهرُ أعرضَ مما كنتُ أتصورُ.

(*) ابنة المحيط الكبرى في الأساطير اليونانية القديمة.

مضى أسـبوعٌ، وتلاه آخر. الجـذوعُ أخذتْ تتقوَّسُ، تطلّب الأمـرُ غرزَ أوتادٍ. اتضحَ بعد مرور شـهر، أن بناء جسـر من الخشـب بهذا الطول لن يصمُدَ طويلاً. أرسـلت برقية إلى صديق كان يخـدم مديراً لمقلع حجـارةٍ في القضاءِ المجاور. خلال أقلَّ من شهر، وصلت أولى القوارب محملةً بالحَجارة.

عندما ارتفع سقف الجسـر معلقاً فوق الماء لمسافة نصف فرسخ (*) تقريبا، ذعر مجلس القضاء المحلي— فقد خافوا من منح امتياز سكة الحديد.

تحتّم عليّ توضيـحُ سبب بنائي للجسـر. سألني شـيخ طيب السـريرة:

أليس بإمكانك أن تحيد عن هذا النهر؟

لا، أيهـا الحكيـم الكبير! لا، إن هذا نهـرٌ ضـيقٌ ينبع مـن أعالي الجبال ويصبُّ في البحر الهائج البعيد. لكنني لم أكن مستعداً لرحلة بحرية.

هطلـتْ أمطـار غزيرة في أيلول. ظلّت السـعادةُ ثابتةً علـى الجانب الآخر، متألقة أكثر من السـابق. ومع اقتراب الشـتاء، قدّمـتُ للعمال معاطفَ، وأمرتُ بـدق أوتـادٍ جديدة. ومن أجـل أن لا يضعُفَ الإشـرافُعلى العمـل، عمدت إلى نقل كوخي الخشبي إلى نهاية الجسـر، وكنت أراقب كل يوم كيف يعزّز العمل الحلقات الجديدة، وأسـفل منا، كانت الغابات والمدن والبلدات تسـبح في ضباب كثيف.

لم يذهب الوقت الذي أمضـيته على الجسـر سـدى. كان رأسـي يدور في الهـواء المخلخـل، أصبحت أتنفس بصعوبة. لم أشـبع النوم، غضبت، تشـاتمت، تعاركت مع المتعهدين اللصوص، وكنتُ أضعُ رؤساء فرق العمال السكارى عند حدهم.

(*) وحدة قياس تزيد على الألف متر.

هناك نقص بالاسمنت في خلطة الخرسانة. العمال يتذمرون.

مرّت سنوات، وجاءت إلي، عند الحلقة البعيدة، أول الشاحنات المحملة بالطوب وقطع الخرسانة الجاهزة، مغطّاة بالدخان الأزرق. كان العمل يتقدم سريعاً على غير العادة، لكنْ، خلال عشر سنوات، أو أكثر قليلاً، أصبح يهيأ لي، أن المكان أسفل الجسر أصبح يبدو مألوفا لي. قناطر الجسر أصبحت منخفضة، وبعد مرور بعض الوقت، أصبحتُ قادراً على تمييز مساحات العشب المحصود على الحدود، وبوابات الاحتفالات مقشورة الطلاء عند مدخل مركز المقاطعة، ومداخن المصانع القديمة فوق بلدتنا، و... أخيراً، في الأسبوع الأخير- أصبحت أميّز سياجَ قريتنا، وتربة شاطئ النهر الحمراء، وأوّل دعّامة مكسوةلجسري كانت قد نهضت قريبا مني. قال المهندس الأشيب، دون أن يرفع بصره؛ إذ أنه كان خجلاً جداً:

لقد أخطأنا الهدف، فقط، بخمسة ساجينات (*).

نزلت بصعوبة من على الجسر إلى الأرض بالاعتماد على أيدي العمال. رجلاي لا تطاوعاني على المسير، كانتا كما لو أنهما رجلا رجلٍ ثمِل. مررت على الجرف. كانت السعادة ما تزال واقفة في الجهة المقابلة. نظرت إلى الأسفل، فرأيت القارب المربوط إلى السقالات. صِحت آمراً: «ادفعوني»، وبضربة واحدة للخطاف استطعت أن أدفع القارب إلى منتصف النهر تقريباً. لوَّحتُ بمجاديفي، متجاوزاً قلة الصبر، وخلال لحظات قليلة، كنت أجدِّفُ نحو الشاطئ المنحدر. كنت أدوس العشب الطويل أمامي تحت قدمي، ورأيت كيف أن السعادة، التي كانت تُصدرُ حفيفاً بفعل الشمس، راحت تهرع نحوي، لا تكاد تمس الأرض. وخلفها كان قوس قزح يذوب في السماء، واستيقظت الغابة البعيدة الغافية، المحاطة بسياج من الأوتاد الخشبية... رفعت يدي وانطلقت إلى لقاء النور.

وأغلق الحصّاد ذو الوجه النير لي عيني.

(*) وحدة قياس تساوي ١١٣ سم.

فيكتور نيل(*)

- الكلب.

(*) ولد في مدينة زاغورسك في ضواحي موسكو. أنهى الكلية المتوسطة بتخصص الفنون، ثم درس التكنولوجيا في الجامعة. انتقل للعيش في أميركا منذ سنة ١٩٩٠. سكن في ضواحي بوسطن، وعمل مصمماً وسائقاً، وميكانيكياً، ومبرمجاً. يكتب القصة والرواية. له رواية تتحدث عن الحنين إلى الوطن بعنوان «النجم والكرة».

الكلب

الكلب لايعرف لغة البشر. إلى اليسار سياجُ قطار الأنفاق الشبكي. الدفء والأوزون يجذبان. سقطت قطعة نقد على قطعة السجاد المتهرئة. لا يحتاج الكلب إلى لسان البشر. لماذا؟ مساءً سيكون هناك طعام. طعام مشرف. قليل من رائحة العفن تأتي من البعيد. ألم في الورك الأيمن.

أمي، يا لِعيْنيه! أعطني قطعةَ نقد، يا أمي.

تبتلعُ الطفلة الدموع.

هل يمكنني أن أُمَسّد عليه؟

بالطبع.

قطعة النقد تتدحرج على السجادة الحمراء.

تُمَسّد الطفلة برقّةٍ خلف الأذن. صاحب الكلب إلى اليمين. دفء وراحة في ثنية ركبتيه.

الأقدامُ تدبّ على الخراسانة الجافة. آلاف الأقدام تخفق فوق غبار الخرسانة. آلاف مؤلّفة من الأقدام.

الكلاب لا تعرف الحساب. مئات الأقدام خمسمائة شخص. ألف قدم خمسمائة شخص. لماذا؟ عَدُّ أقدام البشر لا يلزم الكلاب.

في المساء ستكون هناك غضاريف. غضاريف رائعة برائحة الرماد.

الأقدام تدوس الجلد الأسود. يدوسون جلد صندوق عازف الكمان.

هل أنت عازف كمان؟

كنت.

يُمَسِّد صاحب الكلب على كلبه.

لماذا لا تعزف، سيعطونك أكثر!

الرجل يُمَسِّد على كلبه ببقايا أصابعه.

ليس لدي كمان.

هطول النقود. قطع نقدية مختلفة، بيضاء وحمراء. قطعة تسقط قرب صندوق الكمان. الصندوق القديم المتهرئ ذو البطانة المخملية الحمراء الرثة. هنا أثر القوس مستقيم مثل سهم.

يشتمُّ الكلب رائحة قطعة النقد. ورقة نقدية واحدة تعني مائة قطعة معدنية حمراء. ورقة نقدية واحدة تعني عشر قطع معدنية بيضاء. لماذا؟ لا يلزم الكلب حساب البشر.

سيكون هناك حليب في الصباح في مرطبان كان يُستعمل للطماطم. حليب مدهش بنكهة حراشف السمك. لكن الألم في الورك الأيمن. الأقدام تخفق فوق قطع الكرتون الممزقة. تدوس الأقدام على الأحرف المنحنية.

أنت تكتب، ألا يعطوك مكافأة؟

نعم.

ألست أنت مواطن في هذا الوطن، توجّه إلى السلطات.

انحنى السيد ذو المعطف المطري بطريقة غير ودّية. الكلب لا يحب السيد ذا المعطف المطري.

إلى اليمين صاحب الكلب، تفوح منه رائحة الدفء والعرق. عليه الالتصاق به أكثر. السلطات لا تدفع، إذا كان هناك كلب. السلطات لا تريد أن تدفع

من أجل طعام الكلاب.

تخلصوا من الحيوانات.

لم يبق لي من العمر طويلاً.

سـرطان.

تدثر الكلب بغبار الخرسـانة. خلفَه دفءُ «روديتـور» التدفئة المركزية. تفـوح رائحة الطلاء الذي سـخّنته التدفئة، والغبار المحـروق. الورقة المدعوكة سقطت على قطعة السجاد المتهرئة. ورقة مدعوكة هشة.

الكلب لا يعرف تيار الزمن. في البداية تكون العتمة. لا بد من النوم. بعد ذلـك ضياء، لا بد من الاسـتيقاظ. لا بـد من التمدد على غبار الخرسـانة، الذي مسحته آلاف النعال. الوقت لا يلزم الحيوانات.

الرجل ذو المعطف هنا مجدَّداً.

لماذا الانتظار، أنا أستطيع مساعدتك.

لا يلزم.

وماذا بعد؟

الكلب لا يحب وجه السـيد ذي المعطف.

يقوده صاحبه عبر الدرج. تفوح منه رائحة الرماد وقشور الطماطم. يقترب ملتصقاً بصاحبه. صندوق الكمان يحك أذنه.

ضوء ساطع وحاد جداً.

كم عمر الحيوان؟

أربع سنوات. ليس لدي نقود.

غير مهم.

الكلب لا يعرف العودة. كل شـيء لديه ينتهي عند حدود الشم، التي لا تبعد عن حدود السمع. ما يذهب خارج هذه الحدود يضيع إلى الأبد.

لم يعد صاحبه. لا رائحته ولا صوته. غاب صاحبه إلى الأبد. لا يفهم الكلب نوايا البشر. لماذا؟ لا توجد لديه قوة للنهوض. الجدران البيضاء. الناس البيض. ضوء كثير.

انحنى السيد ذو المعطف من غير ود. الوجه مغطى برباط أبيض. يموج الوجه ويتحرك مع انعكاس ضوء المصابيح. لا يوجد من يمكن الالتصاق به. ألم في الخاصرة اليسرى. أيدي حادة. ألم شديد في الخاصرة اليسرى. أيدي واخزة. ألم لا يحتمل في الخاصرة اليسرى.

الكلاب لا تعرف المثيرات. كل خروج في العتمة يعني الغياب إلى الأبد. تفوح من العتمة رائحة الحديد المعقّم. لا يلزم الكلب قواعد البشر. لماذا؟

ساحة شاسعة. ساحة واسعة من المعدن المصقول. لا توجد قوة لديه من أجل الزحف. لا مكان تزحف إليه. المعدن البارد المصقول في كل مكان.

أحدهم يُمَسِّد بلطف خلف أذنه.

صاحبي!

لن يخرج منك متنبئ!

مرة أخرى السيد ذو المعطف. الكلب لا يحب يدي السيد ذي المعطف. إنهما يدان دقيقتان، تحملان الألم. يدان قاسيتان، تخزان الخاصرة.

يدا صاحبه تفوحان برائحة الحليب. يدان طريتان، ناعمتان. لا يوجد في يدي صاحبه أظافر.

شكراً للكلب. فتق عادي. شكراً لكل شيء.

لا يعرف الكلب لغة البشر. صاحبه إلى اليمين.

سقطت قطعة نقد فوق كومة النقود محدثة رنيناً. الكلب يلعق الرباطات القذرة. لا يحتاج الكلب إلى لغة البشر. لماذا يحتاجها؟

فاضل إسكندر(*)

- عكاكيز للوصول إلى الجنة.

(*) ولد سنة ١٩٢٩ في مدينة سوخومي (أبخازيا. القفقاز) لعائلة صاحب مصنع طوب. والده إيراني الأصل، أُبعد والده من الاتحاد السوفييتي سنة ١٩٣٩. درس الآداب في معهد الآداب في موسكو. يعتبر أحد الكتاب البارزين على مستوى الاتحاد السوفييتي سابقا، حائز على العديد من الأوسمة الحكومية. شارك بفعالية في النشاطات الليبرالية في مرحلة انهيار الاتحاد السوفييتي. يعيش في موسكو.

عكاكيز للوصول إلى الجنة

كان يعيش في قرية تشيغيمي عجوز مع زوجته. كان قد جُرح في الحرب، وبُترت ساقه. ومنذ تلك اللحظة وحتى لحظة وفاته، كان يمشي بمساعدة عكّازين، وحتى بمساعدة العكّازين ظلّ يعمل، وظلّ مضيافاً كما كان قبل الحرب. وفي مآدب الأعياد كان يستطيع أن يشرب ليس بأقل من الآخرين، وحتى بعد المشروب كان يعود من زيارته، مشدود القامة، لا يترنح. ولا أحدٌ كان يستطيع الجزمَ ما إذا كان سكران أم صاحياً، لأنه كان دائم المرح في حالة الصحو والسكر معاً.

لكنّه أخيراً مات. شيع بمراسم شرفيّة كبيرة، حضر كل أهل القرية التشييع للبكاء عليه، وكثيرون قدموا من قرى أخرى. لقد كان عجوزاً محبوباً، وقد تحسرت زوجته العجوز كثيراً عليه.

في اليوم الرابع بعد الدفن، رأته زوجته في المنام. كان على الطريق الترابي المؤدية إلى جبل ما، كان يتقافز على قدم واحدة بشكل أخرق.

أرسلي لي عكّازي بحق الرب. لا أستطيع بدونها الوصول إلى الجنة.

أفاقت الزوجة وتحسرت على زوجها. فكّرت: لماذا هذا الحلم؟ وكيف لي أن أرسلها إليه؟ وفي الليلة التالية، رأت نفس الرؤيا، مرة أخرى يرجوها أن ترسل له العكّازين، لأنه لا يستطيع الوصولَ إلى الجنة. لكن كيف يمكن إرسالها له؟

فكّرت العجوز عندما أفاقت من النوم ولم تتوصل إلى نتيجة. قرّرت أن تطلب منه الجواب شخصياً عندما يظهر لها في المنام مرة أخرى طالباً العكّازين. والآن، صار يظهر لها كلَّ ليلة، وفي كلِّ مرَّة كان يطلب العكّازين،

لكن العجوز كانت تتوه في الحلم، ولم تتمكن من تذكُّرِ السؤال بسرعة، وسرعان ما تختفي الرؤيا. لكنها أخيراً حزمت أمرها، وصارت توقظ نفسها في المنام. والآن، ما أن رأت زوجها حتى سألته دون أن تعطيه مجالاً لأن يفتح فمه:

كيف أرسل لك العكّازين؟

أجاب العجوز، بشكل أخرق جالساً على الطريق الترابي، ماسحاً بيده على ساقه المبتورة:

بواسطة أول شخص يتوفى في قريتنا.

كانت منتعشة عندما استيقظت، فقد عرفت الآن، ماذا عليها أن تفعل، كان يعيش على أطراف تشيغيمي عجوز آخر. كان هذا العجوز على صداقة مع زوجها في حياته، وطالما سكرامعاً، كان يقول لزوجها:

إنه من السهل عليك أن تشرب، فمهما شربت، فإنك تعتمد على عكّازين صاحيين. أمّا عندي فالنبيذ يضرب في ركبتي.

لقد كان بمثل هذا المرح. لكنه الآن، مريض جداً، وأهل قريته كانوا ينتظرون وفاته في كل لحظة.

قرّرت العجوز الاتفاق مع هذا الشيخ، وبموافقته، عندما يموت، ستضع معه في القبر عكّازي زوجها، حتى يتمكن لاحقاً من إيصالها له في العالم الآخر.

في الصباح حدّثتْ أهل بيتها عن فكرتها. لقد تبقى معها في البيت ابنها مع زوجته، وحفيد شاب. بقية أولادها وأحفادها كانوا يعيشون في بيوتهم الخاصة. بعد أن أخبرتهم أنها تعتزم الذهاب إلى العجوز الذي ينازع الموت، لتطلب منه السماح لوضع عكّازي زوجها معه في النعش، راح الجميع يضحكون منها كما يضحكون من عجوز متخلفة جداً. أكثر شخص ضحك منها هو

حفيدهـا، كونـه الأكثـر تعليماً في العائلـة، فقد أنهى عشـرة صفوف في المدرسة، كما أنكنَّتها استغلت هذه الحادثة وراحت تقهقه عالياً، رغم أنها، مقارنه بابنها، لم تنه الصف العاشـر. قالت الكنَّة منهيةً الضحك:

حتـى إنـه مـن غـير المناسـب الطلب مـن شـخص أن يموت لكـي تضعي عكَّازي زوجك في نعشه.

إنـني، في الحقيقة، لـن أطلب منه أن يمـوت حالاً، فليتوف متـى جاء أجله، لكن أريد موافقته على حمل العكّازين.

هكـذا أجابت العجوز العاقلة، المنظمة إلى أبعـد الحدود. ورغم محاولتهم لثنيها عن نيّتهـا، فإنها وصلت إلى الرجل العجوز في نفس اليوم. أحضـرت معها هديـةً مناسـبةً. لأنـه كان مريضاً من ناحيـة، ومن ناحية أخـرى لكي تهيئ الرجل المريض وعائلته لطلبها غير المتوقع.

كان العجوز مسـتلقياً في غرفة الجلوس، ورغم أنه كان شـديد المرض، إلا أنـه كان طول الوقت يدخِّن الغليون المصنوعَ من الفخار. تكلَّما قليلاً عن الحيـاة، وكانـت العجـوز محرجةً بالتوجـه بطلبها إلى الرجـل. في حين كان يجلـس في الغرفة زوجة الرجل وبعـض أقربائه. كانت العجـوز مهذبةً أكثرَ مـن المتوقع، لكـن الرجل المريض سـاعدها، فقدراح يذكـُرُ زوجَها بكلمات لطيفة، ثم أضاف متنهداً:

إنني سألقى زوجك قريباً، على ما يبدو.

وهنـا انتعشـت المرأة وراحت تحدثه عـن رؤياها، وعن طلب زوجها بإرسـال العكّازين من خلال أحد أبناء القرية، من يتوفى أولاً، وأضافت:

يمكن القول إنني لا أتعجل موتك، لكن إذا ما حدث، لا سمح الله... اسمح لنا بوضع العكّازين في النعش، حتى يتمكن عجوزي من الوصول إلى الجنة.

كان الرجل، ذو الغليون، طريحُ الفراش، سليطَ اللسان ومضيافاً، لكن لن يصل به الأمر، لأن يأخذ معه في النعش عكاكيز، إنها فكرةٌ مخيفة جداً. هل كان يخجل من ذلك؟ من الممكن أنه كان يخاف من ظنِّ الناس الذين سيأتون ليواروه التراب، ويتهمونه بالإعاقة العقلية، لكن ليس من اللائق رفضَ الطلب، لذلك راح يحاور المرأةَ بسياسة. قال محاولاً الدخول إليها من هذا الجانب:

ألم يغلق البلاشفة الجنة؟

وقد اتضح أن المرأة لم تكن مهذبة وحسب، بل وملَّاحة، فقد كانت لديها رغبة غير متناهية بإرسال العكّازين إلى زوجها.

قالت واثقة:

لا، لم يغلقوها، لأنهم احتفظوا بلينين في الضريح، ولم يكن ذلك متاحاً للآخرين.

عندها قرّر الرجل التخلص منها عن طريق النكتة، اقترح عليها قائلاً:

الأفضل أن تضعي معي في النعش زجاجة تشا تشا كي نشربها عند لقائي بزوجك.

تنهدت العجوز بعمق:

أنت تهزأ، لكنه ينتظر، وكل ليلة هو يطلب مني إرسال العكّازين.

أدرك، أنه لا مجال للتملص من هذه العجوز، إنه لم يكن يرغب بالموت أصلاً، فكيف به يحمل معه عكاكيز في النعش؟

قال العجوز مفكراً:

إني لن أستطيع اللحاق به، فقد توفي قبلي بشهر، حتى لو أرسلوني بنفس الطريق إلى الجنة، وهو ما أشك به، فقد ارتكبت خطيئة في حياتي...

لم توافق العجوز:

أعـرف خطيئتك. فحتى زوجي أُرسـل إلى الجنة بالرغم مـن هذه الخطيئة. أمّـا بخصوص اللحاق به، فأرجوك، لا تخلط بـين الناس، زوجي لن يتمكن من الابتعـاد كثـيراً بقدم واحـدة. فإذا ما افترضنا أنك سـتموت غـداً، رغم أنني لا أستعجلك، ستلحق به بعد غد. لن يتمكن من أن يضـيع عنك..

خطرت للرجل فكرة، لكنَّ زوجه التي كانت تجلس صامتة طول الوقت، فقد قرَّرت أن تتدخل بالحديث قالت زامة شفتيها:

أمّا إذا كان هذا الشـيء ممكنا، فسنرسل معك كيساً من البندق، لأن أخي كان يحبه.

فكَّرت العجـوز أن الزوجـات جميعـاً متشـابهات، إنهـن أبـدا يتدخلـن معترضات.

صاح الرجل العجوز:

أنتم، كما أرى، تريدون أن تجعلوا من نعشـي عربة!

ثم أضاف موجهاً كلامه إلى الزوجة والعجوز.

تعالي خلال أسبوع، سأعطيك الإجابة النهائية.

سألت العجوز:

ألا يـكون ذلك متأخراً؟ رغم إنني لا أستعجلك

وبهذا فرحت العجوز وعادت مساءً إلى البيت. وما أن وصلت إلى المطبخ حتى رأت منظراً غير متوقع. كان حفيدها المرح واقفاً وسـط المطبخ بسـاق ملفوفة، مستندا على عكَّازي الجد. ارتجفت العجوز.

ماذا دهاك؟

اتضـح، أن حفيدها، عندما ذهبت هي إلى الرجل المحتضـر، تسـلق شـجرة الجوز، وداس بلا حذر على غصن جاف، فانكســر تحت قدمه، وسـقط هو عن الشجرة وقد خُلعتْ قدمُه.

العكّازان مشغولان، يتعين على جدي الانتظار شهراً إضافياً.

كانت العجوز تحب زوجها، لكنها كانت تحبّ حفيدها المرحَ جداً. قرّرت، أن العكّازيـن يلزمـان حفيدهـا الآن أكثر. يمكـن لزوجها الانتظار شـهراً، هكذا قرّرت. الطقس لن يسوءَ على الطريق إلى الجنة، كما أن الرجل العجوز الذي زارته، يمكنه البقاء شـهراً، كما رأت بأم عينها، بل أكثر من ذلك. لقد رأت كيف كان يدخن الغليون.

الأغـرب مـن كل ذلك هـو أن رجلها العجـوز لم يعد يظهر في المنـام طالباً العكّازيـن، لقـد اختفى نهائيـا في مكان ما. إنـه ينتظر، كمـا يبدو، أن تصـحّ قـدم الحفيد. وكانـت العجوز تتذلّـل كل صباح، متذكـرة رؤياها. لكن هاهو الحفيد قد اسـتغنى عـن العكّازين، ومع ذلك لم يظهر العجوز في المنام. قرّرت الزوجة مطَمئِنة نفسـها أنه وصل إلى الجنة بنفسه، على ما يبدو، متشبثاً بالشجيرات الصغيرة على الطريق.

أمـا ذاك العجـوز، فإنه بعـد زيارتها أصبـح غير عادي، ولم يـكن مناسـباً لعجـوز مثله أن ينتعش مجدداً، فهو لم يكن يرغـب في أخذ العكّازين معه. كان الأمر مخجلاً بالنسـبة له! إنه لم يعرج أبداً في حياته، فكيف يسـتلقي في النعـش مـع عكّازين؟ وهـو الآن حيٌّ يـرزق، رغم أنه مرَّ علـى ذلك خمس سنوات، يرعى عنزاته في الغابة، ومن حين لآخر، يكسـر لها حبات الجوز، دون أن يُلقي غليونه من فمه أثناء ذلك.

ضـربـة بالفـأس، نَفَسٌ مـن الغليون، ضـربـة بالفأس، نَفَسٌ مـن الغليون، ضـربـة بالفأس! إشـعال الغليون! ينظر عزرائيل من بعيد إليه صارفاً بأسنانه: لـو انفجر هذا العالم لما التفت ذلك العجـوز اللعين بغليونه إلى الانفجار! يتعين

الانتظار حتى تشبع عنزاتُه.

وهـا نحـن مازلنا أحيـاءً، العجوز يضـرب بالفـأس! وغليونـه يتوهج! أما العنزات فإنهن لن يشبعن أبداً....

إيرينا بوليانسكايا(*)

(١٩٥٢ـ٢٠٠٤)

- يتساقط الثلج هادئاً.. هادئاً .
- الأم .

(*) ولدت في منطقة الأورال في قرية تعود لعالم معتزل اضطهد في العهد السوفيتي. درست التمثيل في مدرسة التمثيل في مدينة روستوف على الدون، ثم درست الآداب. عملت ممثلة، ومحررة صحفية، وكاتبة سيناريو سينمائية. لها العديد من المؤلفات، حائزة على العديد من الجوائز الأدبية. توفيت في موسكو.

يتساقط الثلج هادئاً.. هادئاً

لـو لم يفهـم بوريـس دانيلوفيتـش مـا يحـدث لـه، لوجـد كثيرين ممن يمكنهم منحه شعوراً، أنه منذ الآن أصبح غريباً في هذا العالم، وضيفاً واقفاً علـى عتبة منـزل تجثم عليه صاحبـة المنزل بثقل صدرها، ممسـكة لفة من الفطائر بيد، ومغلقة البابَ باليد الأخرى، حاصـرة إياه في عتمة الممر، في حين، يقـدّم صاحب المنزل، معطفـه المطري، طاوياً ذيله، بحركـة تخلو من اللياقة، حركةٍ آثمة، تنبسط على المدى، متحولةً في الروح إلى اندفاع حاسم نحو درب المصابيح، تحتَ ثلجِ الأحلام، الذي سـيغمر الضيف المسـكيِن، العابرَ برأسه، قبل أن يفكِّر بالنوم. كانَ عليه إبداء طاعته للعالم الذي يطرده، ما لم يُظهِرْ آخـر قطرة مـن كبريائه، لا أن يرفـع لهم اليديـن بالدعوات، لأنّهـم لن يضعوا فيهما أكثرَ مـن قبضة ثلج. لقد ابتعد الناس عنه بوقار، كما لو أنهم كانوا ينظِّفـون المكان لأعمـالٍ وأفكارأخيرة. وكان عليـه أن ينزلق عبر طريق أرضـي، وحيداً تماماً، حاملاً، في ذاته سـراً مُشـيناً، كما لـو كان مجذوماً. لقد توقفوا عن النظر في عينيه، حتى جاره الذي بقي يلعب معه الشطرنج دهراً كاملاً، تظاهر بالانشغال.

إن مـا حـدث، تطلَّـب عزلـةً عميقـةً، نقيـةً، واضحـةً، لا نصـف إغفاءة، مضنيـة، ولا شـوقَ مراقب، يشـاهد الحركة السـريعة العابـرة للوجود حول حلبتـه. هـذه الوحدةُ النتنـةُ لم تتمكـن من تصويـب الفكرة وإرسـالها إلى منبعهـا الأصلي – القلب، ومن ثم، نشـر أشـعتها عـبر أدغال المشـاعر والآراء، والأنانيات الإنسـانية الأخرى، كما الفجر ينشـر أشـعتَه على الأرض. لكن بوريـس دانيلوفيتش صنع فتحاً واحداً: لقد فهم، أنه عبثاً كان يعتبرُ نفسَـه وأصدقاءَه أناسـاً مثقفين. هربت منه مظاهر الشـجاعة التي كان يفتعلها أمام

وجه الثلج المتساقط، واختفت ثرثرتُه المعتادة، وشرودُ ذهنِه المحبب. لم يكن الموت مخجلا بالنسبة للطبيب، الذي كانه يوماً ما، والذي لم يعد له أهمية. ما كان له أهمية هو الثقافة - إجادةُ الموت، أما هو فلم يكن يُجيدُ الموتَ، كان يخجل بشكل مسبق من جسده، الذي كان عليه حتما المشاركة في المسرحية الدنيئة طقسُ إخفائه تحت التراب، وهناك كان يترتب عليه المشاركة في عملية التحلُّلِ المقيتة. ولكي تُحتوى هذه الفكرة، تكون الثقافة، والبساطة، ورؤيةُ الحقيقة مطلوبة، لا المرور عنها بضجر على صفحة ما، ولا ظلَّها في عيني إنسان ما.

عندما جاءه ابنه طارحاً عليه سؤالاً: ماذا أهديك، يا أبي، في عيد ميلادك الذي سيصادف في الربيع. لم تكْفِ الأبَ اللياقة، قال لابنه بصوت فارغ:

دعك من هذا.

كان واضحاً بالنسبة لهما، أن الأمر لن يطولَ به حتى الربيع. استدار الابن، فقال الأب بلين أكثر:

أهدني الأزهار.

وقد أدرك هنا، أن ما قاله كان رغبة منه في مواساة ابنه، وفي عينيه ظهرت تعابيرُ مسمومة. راح الابن يستخرج لفائفَ الطعامِ من حقيبته.

ماذا لديك هنا؟

قال الابن، مقلِّباً الدفتر بشرود ذهن:

دفتر ملاحظات، اشتريته لنفسي، شيء صغيرٌ، جميلٌ.

قال الأب:

أهدنيه، أريد أن أكتب بعض الأفكار.

قال الابن:

خذه.

وعلى هذا افترقا.

في الحقيقة، لم يكن الابن يودُّ الذهاب، لكن الأب نفسُه حاصره في الممر، ممسكاً حقيبة ولده بيد، وبالأخرى كان يتحسس قِفلَ الباب، دافعاً ابنه إلى البرد، تحت النجوم المتجمدة. سار الابن وهو يُفكِّر أن أباه شخص سعيد، بمعنىً ما، لأنه يمتلك إمكانية التفكير بشيء ما قبل الموت، والتفكُّرَ بذاته، وملء رئتيه بهواء صقيعي في اللحظات الأخيرة من العمر، ويمتلك إمكانية تذكر الطفولة. عندها، فإن الابن، كما هو الأب، يعيش طول الوقت كما لو كان يغرق، مختنقاً، متشبثاً بيد ضعيفة تارة بهذه الشجيرة، وتارة بتلك، تارة بهذا العمل، وأخرى بذاك، حتى يتمكن من توفير نفقة هذه المرأة، أو تأمين متطلبات الحياة لتلك، وهكذا، إلى أن يصل، في نهاية المطاف، إلى القاع، وعندما تنفجر آخر فقاعة هواء على سطح ماء النهر، فإنه، كما أبوه، الذي عاش إنساناً، ويموت إنساناً أيضا، يعتزم أن يُقدِّم موته باحتفالية خاصة، مثل عيد عائلي...

مات الأب في نهاية شهر شباط. وفي المستشفى، إلى حيث وصل الناس من أجل أخذ الجثمان، ومن بعد ذلك، عند الدفن، كانوا يبتعدون عن الابن، مخلين المكان من أجل عزائه، الذي كان مكتظاً، طول الوقت، بالوجوه التي كانت تحيط به من كل ناحية، وبالعيون الجادة، والأفواه، التي كانت تخرج منها سحب البخار. تخلت الحياة عنه بكل تفاصيلها المعيشية لمدة ثلاثة أيّام، جمُدتْ، مثل حيوان البو بفمه المشرع أمام الزُّمار، وسحب البخار الحار الخارجة منه. كان يعرف، أي أفكار كانت تحفر الآن في رأس والده الراحل: إنها أفكار عن ملاءة المطعم الدافئ، عن مائدة الطعام الطويلة، المعدّة، التي عُلِّقت، عند رأسها المستند إلى العمود، صورة الأب بوجهه الباسم، وسحب الدخان المنبعثة من سيجارته. بماذا يمكنهم التفكير، وقد أدّوا واجبهم، الذي،

لم يكن من السهل تأديته، لأن حافلة مكتب الدفن تاهت في الثلوج، ووصلت متأخرة مدة ساعتين، عانى فيهما الناس بما فيه الكفاية في الصقيع. ألقى الابن قبضةً من التراب المتجمِّد، بالأحرى قبضةً من الثلج في القبر، تلاه المشيعون وقاموا بالشيء نفسه، أطلق حفّار القبور صيحة، ثم أهال التراب في الحفرة. الناس، الذين أحاطوا بالابن ابتعدوا، محاولين أن لا يستفيضوا حتى النهاية بوليمة العزاء، وبقي الابن وحيدا، وجها لوجه مع كثبان التراب الطري، الذي غطى الثلج بلطف وحنان يتميز بهما في الحقيقة كل كائن حي. فوق الثلج المتساقط، وقفتْ نجومٌ غير مرئية، ولم تتمكن أي واحدة منها من الوصول، في تلك اللحظة، إلى قلبه بنورها، وأن تملأَه ولو للحظة، في حين كانت عيون الناس تشتعل تارة هنا وتارة هناك بأنوار باهتة، أما الابنُ فقد استدار إلى الخلف شاعراً أنه مسمومٌ بهم. لقد بدت الأصوات مكتومة، مثل السعال في صالة المسرح. وتساقط الثلج هادئاً.. هادئاً. تساقط، لكنْ بهدوءٍ، إلى الأمام بلا هدف، وإلى الوراء بلا ذاكرة. ما داعي الضجيج، وإلى ما العجلة؟...

بعد عدة أيام، وأثناء فرزِه متعلقاتِ الوالد بمشاركة زوجته، وقعت عيناه على دفتر المذكرات، الذي كان قد أهداه له قبل شهر، بالأحرى، كانت الزوجة قد سحبته من طاولة المكتب، أمسكتْ به باحترام وفتحته بحذر، لكن الابن اختطفه من يديها وأخفاه في جيب جاكيته. تخاطفا بعض الأشياءِ والكتب. وعند قدميه كانت هناك آنية، أمسكها بيديه، شاعراً في الوقت ذاته بجلدِ الدفتر على جسده، لقد كان يُشعُ دفئاً بمعنى الكلمة. وفكر: «ماذا فهمت.. ماذا؟». كان يُشعّ دفئاً مثل شيء قديم، مشبع بمحتوى طيب، سمع حفيفَ الصفحات الهادئ، متخيلاً خطَّ الوالدِ الصغيرَ المفعَمَ بالحياة.

في البيتِ، أغلقَ الابن باب الحمّام على نفسه، أخرج الدفترَ من جيب «جاكيته»، فتحه عند المنتصف. كان الدفتر فارغاً. فتحه قريباً من المقدمة، شيء ما أدهشه: حتى تلك الصفحات بانت بيضاء، تصفَّحَ عدداً من الصفحات:

فـراغ. أُصـيبَ بالرعب، فقـد تعلَّق تماماً في الفراغ، عدمٌ تـام، يـفوق ذاك العدمَ الـذي كـان يعيش فيـه الوالد. أزاح جانبـاً عدداً آخر من الصفحـات التي حملها الثلـج، إلى أن وجد نفسـه في بدايـة الدفتر، حيث لم يكن هناك سـوى عبارةٍ وحيدةٍ مكتوبةٍ على رأس الصفحة الأولى: «الثلج يتساقط هادئاً.. هادئاً».

الأم

كنت أمسـك يومـاً ما بيد أمـي الليـنـة، القـويّـة أيضـاً، إنّهـا يدُها فقط، بالتأكيـد، الـتي تمكنت من انتشـالي من لُجَّـة اليأس، أما يـدي الأخرى، فقد كانت حرة، ومنها سـقطت للتو يدُ ابنتي التي أخذوها. كنتُ أمسـك بيد أمي، مـن خلالها كانت تتوثق الوحدة مـع كلِّ الأقارب، والجدود البعيدين، وكلِّ جنسِـها، ومع كل أولئك، الذين شبكوا أيديهم، للحيلولة دون ضياع ابنتي. كانت يدُ أمي القاتمة هي يدهم هم، كانت قواها غير عظيمة، لكن خلفها كان يقف كلُّ أقاربنا، الذين صاروا الآن تحت التراب، لذلك، كنت أُحكِم أصابع يدي علـى كفها مثل المخالب، ولم أُعط نفسـي فرصةَ النسـيان من خلال الحُلُـم، لكـي لا تنزلق ابنـتي في حفرة هـذا الحُلُم. كان عليّ وباسم جميع الأجيالَ، أن أُنعش حياتَها وأُمسكها بيدي. اهتزتَ العتمة تحت جفوني، وتطايـرت خلالها شـرارات ليلكيّة، ففتحت عيني مجدداً، ممسـكةً بشـدةٍ حياة ابنتي برباط.

حتى الأمس مسـاءً، أحسَّت ببعض التَّوعك، أنَّت، صـرفَت أسنانها، ومطّقت شـفتيها، طالبة الثدي، وفي الليل جاءت «سـيارة الإسعاف» وأخذتنا، لكن لم يكن هناك من يحتاج للمسـاعدة: مرَّت ليلةُ السـبت علـى الأحد، وقد ناوب طبيب واحد متعب على سـتة أقسـام، وما أن حلّ مسـاء هذا اليوم حتى سـاءت حالتهـا، ووضعوا لها نقّاطـة (drip)، وبصعوبةٍ كبيرةٍ اسـتطاعوا أن يعثروا علـى وريـد ليضعوا فيه الإبرة. لقـد توقفتْ فجأة عن الصـراخ، كما كانت تصـرخ من قبـل، صـراخاً شـجياً عاجـزاً، يُقطِّع نيـاطَ القلب، وصـارت تنظر وتنظـر إلـيّ بعينيها الرماديّتين. عندمـا وُلدتْ وأحضـروها كـي أرضعها أولَّ مـرة، تناولتهـا بيديَّ بفرح كبير، وفجـأة التقت عينـاي بنظراتها. كان ذلك

مدهشـاً، فقد استمعت إلى معزوفة موسـيقية مجّانية. وهكذا، عندما وصلوا أخـيراً إلى وريدهـا، أصبحتْ صامتةً، هادئـةً، تتطلع بلا انقطـاع إليّ بنظرة لا يمكـن احتمالهـا، وروحي لم تسـتطع، ولا بأي حـال من الأحـوال، الانفجارَ من العـذاب، لأن مـا حدثَ ما زال يبدو غير حقيقـي. راودتني نفســي بِسْـملِ عينيّ كـي لا تريا شـيئاً. خلال نصفِ سـاعةٍ نقلوها إلى غرفةِ العناية الحثيثة، أما أنا فقد خرجت إلى شـرفة المستشفى، وما أن رأيت أمي بوجهها المرفوع الخائف، حتـى هبطتُ إليها، ورحتُ أنحبُ. كانت أمي شـخصاً غير مؤمـن في أعماقها، مكرّسـةً كلَّ حياتها للعِلم، غير مؤمنة بـالله، ولا بالعالم الآخر، ولا بانتقال الروح، لوَّحت بيدها بإيماءةِ توسـل، مطلقةً صـرخة مدوية: «لا، لا! لن يسـمح الله! لا تجرئي حتى على التفكير بذلك!». وهنا تشـبثت بيدها. جلسنا على مقعـد طويل أمام غرفة الإنعـاش. ثم نمنا عليه مثل صـور ورق اللعب، لكني بقيت ممسكةً بيدها بشدَّة، خوفَ الانزلاق إلى النـوم.

وفجـأةً صدم شــروقُ الصبـح بصـري، قبـل أن أُدركَ أن أمـي لم تكـن إلى جانـبي، وكنتُ أضغـطُ يدي التيَ قد تصلَّبت. سـقطتُ في رعب قريب، كانوا يدفنونـني حية، ونافذتان من نوافذ غرفة العنايـة كانتا تنظران إلي من خلال غشـائين فارغين: رسـالتان مطبوعتـان علـى ورق أبيـض. وكل ذلك حدث في ثـوانٍ معـدودة. في تلك اللحظة رأيت أمـي: قفزتْ من أبـوابِ غرفةِ العناية، ضاغطةً على قلبها بيديها كلتيهما، متعجلةً نقلَ الأخبارِ السـارة إليّ. راحت تحدثـني بالتفصـيل، شـارقةً عدة مـرات، كيـف إن الدكتـورة نيلي بتروفنا فتحـت لهـا البـاب باكراً، وأجابتها بدهشـة، نعم بدهشـة علـى كلماتها التي خرجت من خلال الدموع:

«هل البنت حيَّة؟».

قالت غاضبة:

ولمـاذا لا؟ وأضافـت: وأنـت، مـاذا تفعلين هنا؟ اذهـبي إلى البيـت مطمئنةً، وعودي في الساعة الحادية عشـرة، وأحضـري معك حلمات لزجاجات الرَّضَاعة.

إذاً، هكذا قالت؟

نعم، هكذا، قالت ضجرة:

ولماذا لا؟ ماذا تفعلين هنا؟

دكتورة، كلمة واحدة، أرجوك: هل هي بحال أفضل؟

حتى لو كانتا كلمتين، أجابت نيلي بتروفنا غاضبة، ما دمت أجبرتني على فتح الباب: أمرها طبيعي، حياة البنت ليست في خطر.

أما هي نفسها فلم تتمكن من النوم، فقد كانت منزعجة، شاحبة، وبالتأكيد فهي لم تتمكن من وضع نفسها في الفراش، فهذا هو عملها.

ذهبنا من أجل الحلمات، مترنحتين مثل السكارى، وقد حدّثتُ أمي عن الرعب الذي مررتُ به في اللحظات التي مرّت، أو كما هو الآن، وكيف كانت تنظر ابنتي. توقفنا، ثم رُحنا ندور في باحة المستشفى، مستذكرتين كلمات نيلي بترفنا، ولاحقاً، بعد ذلك، وقد شفيت البنت، وكنت قد نزلتُ معها في المستشفى، كنت أخرج كل يوم، عند الساعة الحادية عشرة، إلى غرفة العناية الحثيثة، وكنت أرى حشود النساء هناك، عيونهن كانت مختلفة: زرقاء سماوية، سوداً، بنّية، لكن النظرةَ واحدةٌ، كانت مثل سلك نحاسي جُرِّد من غطائه البلاستيكي، وكنتُ كلَّ يوم أحدثُهن عن تجربتي وقصتي، وأعرض عليهن ابنتي التي شُفيتْ. كُنَّ يتجمعن حولي، وقد وجدتُ نفسي مع ابنتي على ذراعي، وسطَ دائرةٍ ضيقة من نفس الوجوه المخيفة، التي كانت تشتعل بإيمانٍ مجنون، ما دمتُ أتحدثُ، كوجه أمي عندما هتفت: «لن يسمح اللّه!» في كل مرّة عندما أنتهي من قص حكايتي، كنت أنخرطُ في البكاءِ مع شعور بيأسٍ غيرَ عابر، ثاقبٍ، مثل شعاع الشمس، وبسعادة كاسحة، خالصة، قوية أيضا.

بعد مرور عدة أيام، اكتشفت، أننا، في كل مرة، كنا نودّع بشكل غريب، منسي... هؤلاء النسوة، ونفترق، كنا ننحني لبعضنا بعضاً، ولم نلوّح

بأيدينا وحسب، كان يحدث ذلك في الطابور، أو في باحة السَّكن، بل كنا نؤدي الانحناءات الهادئة لبعضنا. إنني الآن لا أستطيع، ولا بأي حال من الأحوال، إعادة تلك الحركات.

في الساعة الحادية عشرة، أكَّدتْ طبيبة أخرى: «تجاوزنا الخطر، وخلال يومين ستخرج الطفلة إلى القسم، سوفَ ترافقينها لمدة أسبوعين»

وليكن طول الدهر.

يوه، من أين حصلتن على كل هذه الحلمات؟ اذهبن، اذهبن، كل شيء سيكون على ما يرام.

ذهبنا نترنح إلى المطعم، وقفتُ أنا في الدور، أمّا أمي فقد جلست على الكرسي. عندما عدت ومعي عِجّة البيض، رأيت أمي وقد نامت واضعة رأسها الأشيب على قبضة يدها المشدودة.

الكسندر بوندار (*)

- رسالة سعادة.

(*) ولد في مدينة كراسنودار سنة ١٩٧٢، درس الصحافة في جامعة كوبان الحكومية في كراسنودار. عمل محرراً صحفياً. انتقل للعمل في كندا (١٩٩٥-٢٠٠٧). له عدد من الروايات البوليسية، يعيش حالياً في ضواحي العاصمة موسكو.

رسالة سعادة

«هذه رسالة سعادة. انسخها عشرين مرةً ووزِّعها على كل من ترجو لهم السعادة».

تسلَّم فلاديمر إيليتش لينين (*) هذه الرسالة، عندما كان يقبع في زنزانته في السجن. وبسبب الملل، ولكي يمرّن أصابعه، نسخ فلاديمر إيليتش الرسالة عشرين مرة ووزّعها على رفاق الحزب. بعد عشرين يوماً، تطلّب الأمر منه الهرب من بين أيدي أعدائه مرتدياً فستاناً وشعراً مستعاراً وكلساتٍ نسائية. تحقّقت الخطة، وشكّل ذلك له سعادة عظيمة، لأنه بهذه الهيئة كان يمكن أن يُنظرَ إليه كممثليّ، ولكُم أن تتخيلوا ماذا كان سيحصل معه لو تم الإمساك به...

وبعد مرور عددٍ من السنوات، وقد أصبح لينين سيد الكرملين، استلم هذه الرسالة. ضحك إيليتش المغفل بصوتٍ عالٍ، وأحرق الرسالة. بعد عشرين يوماً جعلوا منه مومياءَ، ونقلوه إلى الضريح.

تسلَّم بطلُ الحرب الأهلية سيرجي لازو الرسالة وهو جالسٌ في خندقه. قرأها ولم يفهم شيئاً منها، قرأها من البداية حتى النهاية، ومن ثم من النهاية حتى البداية. قرّر في نهاية المطاف أنها نشرةٌ معاديةٌ من نشرات الحرس الأبيض، لذلك أودعها الموقد. بعد عشرين يوماً كان سيرجي لازو نفسه يُحشر في ذلك الموقد.

(*) مؤسس الحزب الشيوعي الروسي،وزعيم الثورة الاشتراكية وأول رئيس لروسيا بعد الثورة.

بطل الحرب الأهلية الشهير الآخر – فاسيلي إيفانوفيتش تشابايف، الذي لم يعرفْ القراءة أو الكتابة، فرحَ كثيراً عندما تسلّم الرسالةَ، فرحَ لأنها وفّرتْ لـه ورقـةً إضافية ليصنع منها لفافةَ تبغ أخرى. لكن بعد عشرين يوماً قرَّر فاسيلي إيفانوفيتش قطع نهر الأورال سِباحة. لكن... أنتم تعرفون النهاية.

عندما تسلَّم ليف دافيدوفيتش تروتسكي (*) هذه الرسالة في المكسيك، قرَّر نسخها دون إضاعة دقيقة واحدة. لكن الرسالة كانت قد اختفت بطريقة غامضة، مباشرة من فوق المكتب. وبعد مرور سنوات عديدة تمكن المؤرخ، المتحري الدقيق – دميتري فولكوغونوف من توضيح سبب اختفاء الرسالة، إذ تمكن رجال المخابرات الروسية من سرقتها وإحراقها بأمر مباشر من ستالين، الذي لم يكن يتمنى السعادةَ لتروتسكي. لكن بعد مرور عشرينَ يوماً جاء إلى تروتسكي رامان ميركادير ومعه «رسالةُ السعادة». فرح ليف دافيدوفيتش كثيراً، لدرجةٍ أنه نسي أبسطَ عناصر الحذر، وضع نظّارته على عينيه، وجلس يقرأ الرسالة. لكنه لم يتمكن من إنهائها، إذ أهوى رامان ميركادير على مؤخرة رأسه.

تسلَّمت زويا كوزماديميانسكايا (**) الرسالة وهي في الغابة – لقد جاءتها بواسطة البريد العسكري. لكنَّ فتاةَ الكمسومول الفخورةَ لم تُصدِّق ما جاء فيها. قهقهت بصوت غاضب، واستخدمت الرسالة لقضاء الحاجة. بعد عشرين يوماً أسرها الألمان واستخدموها للأغراض الذكورية.

عندما تسلَّم الزعيم السوفيتي ليونيد إيليتش بريجينيف (***) الرسالة، ضحك ورمى بها في سلة المهملات. بعد عشرين يوماً وقع في انحطاط تام. ليونيد لم يكن يميِّز يده اليمنى من يده اليسرى، ولم يكن يصلح لأي عمل، غير وظيفة الأمين العام.

(*) رفيق لينين في الحزب، ومعارض بعد الثورة. صاحب نظرية استمرار الثورة. لجأ إلى الولايات المتحدة، وقتل فيها في عهد الزعيم السوفيتي ستالين.

(**) طلة من أبطال الحرب الوطنية العظمى ضد النازية الألمانية.

(***) زعيم سوفييتي (١٩٠٦-١٩٨٢)، حكم الاتحاد السوفيتي (١٩٦٤-١٩٨٢).

وكذلك بابا روما يوحنا باول الثاني، عندما تسلَّم الرسالة ضحك وأحرقها. بعد عشرين يوماً تقوَّس ظهره. وبعد مدة تلقى الرسالة مرة أخرى، وقد كان مقوّس الظهر، لكنه لم يدرك الأمر، وراح يضحك مجدداً، وأحرق الرسالة للمرة الثانية. بعد عشرين يوما طُردَ من محفل «الصليب والشيطان» الماسوني.

ولما تسلَّم رجل المال غوسينسكي الرسالة وضعها في صندوق بعيد. وبعد عشرين يوما أُوثِقَ غوسينسكي ونقل إلى الزنزانة. النزلاء في السجن، الذين كانوا يشاهدون محطة «N T V» يومياً، سروا كثيراً بوجود غوسينسكي بينهم، وأخلوا له مكاناً مناسباً فوراً. تذكر غوسينسكي الرسالة فوراً، نتّف شعر رأسه، وفي موعد الزيارة طلب من محاميه أن يجدها له، وأن ينسخها عشرين مرةً ويوزعها. هكذا جاءته السعادة بعد عشرين يوماً. قال بعد ذلك مراراً: «لقد وجدت سعادتي في الزنزانة». وحسب مصادر غير مؤكدة، فإن غوسينسكي يعكف الآن على تأليف كتاب «حكم كاما سوترا للذكور. (٣٢٦ وضعية)».

تسلَّم رئيس وزراء إسرائيل إسحق رابين هذه الرسالة بواسطة البريد. كان حينها مشغولاً جداً، ولم يقرأ الرسالة. بعد عشرين يوماً جاءه الحاخامات الأرثوذوكس وقالوا له: «لقد حان وقتُ محاربة العرب حرباً لا تبقي منهم ولا تذر». أجابهم إسحق رابين: «سيكون ذلك فقط عبر جسدي». وعلى هذا تم الاتفاق.

ويقال إن تانيا سوسكينا تلقت هذه الرسالة يوما ما. ويقال إنها لم تنسخها. بعد عشرين يوماً سمع حارس الحي الذي تسكنه، أن تانيا رسمت لنفسها خنزيراً ما وقرّر أنها رسمته هو ذاتَه، احتقن وجهه بالدم، وراح يزعقُ بصوتٍ عالٍ، ضارباً الأرض في حظيرة الخنازير بقدميه: «خذوا الحقيرة إلى السجن».

مـا أن تسـلَّم الزعيـم الشـيشـاني جوهـر دودايف الرسـالة حتى بـادر إلى إحراقها. وبعد عشــرين يومــاً، وقد كـان يجلس في خندقه يقــرأ كـتيباً عن حرب العصابات، رأى نقطة مضيئة، كـانت تقترب نحوه بسـرعة. سـر جوهر بذلك جداً. تسـلل خارجاً من خندقه، وانطلق لاستقبال النقطة المضيئة مطلقاً صـرخـةً عالية, وقد أدرك، ولكن بشـكـل متأخر، أنَّ ذلك لم يكن مركبة غرباء فضائية قادمة من كـوكـب آخر، بل صاروخَ حربٍ روسـي.

تسـلّمت مادلين أولبريت[*] هذه الرسالة عبر الـE. mail. مسحتها من توها، حتى إنها لم تقرأها! بعد عشــرين يوماً، وأثناء جولةٍ لها بإفريقيا، لدغتها ذبابةٌ إفريقيـةٌ، ومرضـت بالسـعار الخنزيـري، وهو مرض مقــزّز، يظهر لدى النســاء المريضــات على شــكل بارانويــا، وعدوانيــة فائقة، ونزعــةً لارتـداء التنانير القصـيرة.

أما بيل كـلينتون[**]، فقد وصلته الرسـالة بالبريـد العادي. ألقى بها في سـلة المهمـلات. بعد عشــرين يوماً، أمسـكـوا بكـلينتون مع الســكـرتيرة التاليــة، وبدأت فضـيحةٌ مجلجلـة، طُرِد على أثرها كـلينتــون من الجمعيات التاليــة: جمعية رعاة البقــر، ومحبي الموت، ومحبي فروج النســاء، والخلاعة التي كـان عضواً فخرياً فيها بشـكـل مخزٍ. غضب بيل كـثيراً، لدرجة أنَّ أنفه احمرَّ مــن جراء جلوسـه المتواصل في المطبخ. عند ذلك تذكّـر أمر الرسـالة! وأعاد نثر سلة المهملات (recycle). وجدها. نسخها عشـرين مرة، ووزَّعها. وبعد عشـرين يومـاً توقف الأميركـان عن قصف كـلينتون، وراحوا يـقصفون العراق.

فيلســوف إفريـقيــا مومبا مويومبا، تلقى الرسـالة، وبوصفه رجـلاً متنوّراً، ومتحضــراً، لم يصدق ما جاء فيها، فأحرقها. بعد عشــرين يـومـاً، كـانت هناك مناظرةٌ علمية بينه وبين علماءٍ آخرين، وقد انتهت المناظرة في غير صالحه، إذ دحض نظراؤه جميع الحججِ الفلسـفية التي قدَّمها، وفي نهاية المناظرة أكـلوه.

(*) وزيرة خارجية أميركا (١٩٩٦-٢٠٠٠).

(**) رئيس أميركا (١٩٩٣-٢٠٠١).

الفيلسوف الإفريقي الآخر مامبا مويامبا، تلقى الرسالة أيضاً، نسخها عشرين مرة ووزَّعها. وقد كانت مناظرةٌ أيضاً بعد عشرين يوماً. وبالرغم من أنه لم يتمكن من الرّد على مناظريه بشكل ملفت، إلا أنه تمكن من التهامهم جميعاً بعد انتهاء المناظرة.

الكاتب المعروف أرائيل خروست، تلقى الرسالة، ورغم أنه كان مشغولاً، إلا أنه لم يبخل بالوقت – وراح ينسخ الرسالة. نسخها ووزعها. بعد عشرين يوماً مُنِحَ جائزة نوبل عن روايته الفلسفية العميقة «في البحث عن يوم الغد». لقد تجاوز خروست منافسه القريب الكاتب سولومون نوجدي، الذي كان مرشحا لنفس الجائزة عن روايته «الموت بعد الحياة».

المرشحان للرئاسة الأميركية جورج بوش وألبرت غور تسلَّما الرسالة في وقت واحد، وانهمكا للتو في نسخها. جورج بوش أنهاها أولاً، لأنه لم يأخذ استراحات أثناء الكتابة لتناول الطعام أو القهوة. ولكي لا يفقد قوته، راح يعزّزها بتناول البوشار والكوكا كولا. وأنتم تعرفون من الذي أصبح رئيساً.

تلقت تاتيانا سابونوفا هذه الرسالة عبر الـ E. mail. راحت تقرأها. تبسَّمت متغطرسة ومسحتها. بعد عشرين يوماً، وأثناء عودتها إلى البيت في موسكو، شاهدت ملصقاً مفخخاً معادياً للسامية. وقد أعجبَ الملصقُ تاتيانا المعادية للسامية حتى النخاع، لدرجة أنها أرادت نزعه وتعليقه لديها في الشقة....

تلقى رجل الأعمال غير المعروف إطلاقاً لأحد في ذلك الحين بوريا بيريزوفسكي، الملقب بـ «الجيب» الرسالة وقد كان ينعم بالحرية. هذا اليهودي الذكي التعس لم يضحك. ورغم أنه لم يكن يعرف جميع الحروف الهجائية، إلا أنه راح ينسخ الرسالة بكل صبرٍ وتروٍ عشرين مرة، ووزعها بعد ذلك على شركائه الحقيقيين – جميع من أحب لهم السعادة. بعد عشرين يوماً جاءت السعادة لبوريا ذاته: لقد واتته فرصة سرقة مبالغ طائلة.

تلقى جيمي ساليه وديفيد بيلينيه الرسالة، ألقيا بها فوراً. بعد عشرين يوماً كان عليهما أن يدخلا الأولمبياد. لقد قدَّما عرضهما بشكل جعلَ الجمهورَ ينتحب من الأسى. وبعد انتهاءِ المسابقة، جاء دورُهما للنحيب.

وقبل فترة وجيزة تماماً، تلقى ثلاثة من أصحابي المقرَّبين هذه الرسالة منّي. أحرق ثلاثتهم الرسالة. وبعد عشرين يوماً تسمَّم أحدُهم أثناءَ تناوله العشاء في مقهى القطط، وتوفي في نفس اليوم. وبتر القطار الخفيف (الترام) ساقيَّ الثاني، أما الثالث فقد أصيب بالشَّلل.

انسخوا هذه الرسالة عشرين مرة ووزعوها على كل من ترجون لهم السعادة...

وُجدت قصاصات مقرمشة من هذه الرسالة في سلة أوراق المهملات محترقةً وسطَ حُطامِ مركز التجارة العالمي.

آنا توروسوفا(*)

- قطرة عسل.

(*) ولدت سنة ١٩٣٩ في مدينة ماغنيتوغورسك. درست الآداب في جامعة ماغنيتوغورسك. عملت مراسلةً إذاعيّة. عاشت في إيران في الفترة (١٩٧٠-١٩٧٢). وفي الباكستان في الفترة (١٩٨٠-١٩٨٣). مرافقة لزوجها المهندس الذي عمل على بناء مصانع التعدين. لها مجموعتان قصصيتان. تعيش حالياً في ماغنيتوغورسك.

قطرةُ عسل

كانـت جدتي ورعةً جداً. أما أنا فقد ترعرعت مشاكسـةً، ولي في كل عرسٍ قرصٌ، كما يقول المثل. كانت تقول:

انتظري، سيعاقبُك الرب. تذكري كلماتي هذه!

لم أكـن أتصور الـربَّ، ولا كيف يكـونُ عقابُه. هل سيحشـرني في زاويةٍ؟ هل سيجلدني بالحزام؟ أم سيجوِّعُني؟

كان الحرمان من الطعام أسوأِ الاحتمالات بالنسبة لي. كان قد مرّ آخر فصلُ شـتاءٍ في الحرب. صَنعَ الناس أرغفةً من دقيق الأعشـاب، وأكلوها، مثل كعك تـولا (*). وعند ذكـر كلمة «حلـو»، فإننا كنا كمـن يمص حبة الحلوى، نلوك ريقَنا في فمنا، ونبلعه.

عـاش معنـا في تلك الفـترة ابن عمـي فانيـا. كان أبوانـا يحاربان على الجبهة. أما والدتانا فقد ذهبتا مع الأطفال إلى القرية للاحتماء في بيت جدتي هنـاك. فقرٌ على فقر. وشوشـني فانيـا في أحدِ الأيام حول أمر جرَّة العسـل، التي كانـت جدتـي تحتفظ بها في قاطع الخزين. كان ابـن عمي أكبر مني، وقد دخل المدرسة. وكان يعرف كيف يوقعني في مؤامراته.

لم أكـن مكترثـةً لمعرفـة السـعادةِ المتأتية من تـذوّق العسـل. كلُّ ما كان يُعنيني هو النظرُ إليه والتأكدُ من وجوده فعلا. بدا الوصولُ إلى القاطع، والبحثُ وسطَ سقط المتاع عن جرة العسل المخفيَّة بشكل آمن، ورؤيةُ العسل دون أن لا تلعـق منه ولو لعقـةً واحدة، أصعبَ بكثير من التضـوُّرِ جوعاً طول

(*) كعك أسطواني الشكل يُصنع في مدينة تولا.

اليوم. غمست شاهدي في العسل، ثم أغلقت الجرَّة، وتسللت من القاطع مثل عصفور. لم يلاحظني أحد، لا أمي، ولا جدتي، ولا من دلني- فانيا. كما أن اللّه لم يعاقبني. رحتُ ألحسُ أصبعي السعيدَ قبيل الغداء، وبعد الغداء صرتُ أبلع ريقي. أخرجتُ مرةً لساني أمام المرآة فبدا لي عسليّاً، فأعاد لي ذكرى جميلةً وحلوة.

ظللتُ أتسلل إلى الجرة مثل الثعلب، لمدة يومين. وفي اليوم الثالث، تسللت إلى هناكمن جديد. وبعد أن غمستُ أصبعي في العسل البارد الكثيف، قفزتُ إلى كومة القش، ومن هناك إلى باحة البيت. لكني لطَّختُ مقبض الباب الحديدي بالعسل عندما أغلقته. كنتُ حزينة لضياع تلك القطرةالتي استقرت على الحديد. وأثناء لعقي لبقايا العسل على أصبعي، كنت أفكر بالخطر الذي يحيق بي. كان من الممكن أن تظهرَ جدتي في أي لحظة، ممسكة مقبض الباب، ملطخة يدها بالعسل الدبق، فتتعرف على فعلتي الشنيعة. كدت أن أعضَّ أصبعي من خوفي. حتى أمي كانت تخاف جدتي.

تحركت يدي إلى مستوى أنفي. لقد شددت نفسي كي ألعقَ قطرة العسل عن مقبض الباب. كاد الحديد البارد جداً أن يحرق لساني. لقد التصق لساني بمقبض الباب. لم يكن بإمكاني أن أرفع صوتي طالبة النجدة- الصوتُ لم يخرج من دون لسان، خرجتْ من فمي (آي- آي- آي) ضعيفة. وهكذا وقفتُ فاغرةً فمي ورحت أثغو مستنجدة مثل نعجةٍ ضالة. كنتُ مستعدةً لأي عقاب: الوقوف في الزاوية، الحرمانُ من الغداء، خلعُ أيِّ قطعة من ملابسي لتلَقّي الجلد... أريدُ فقط أن ينقذني أحدٌ ما من مقبض الباب اللئيم. لم يسمعني أحد. رفست الباب بقدمي، خبطت عليه بقبضة يدي. لا شيء غير الصمت. رحت ألهث، فراح البخار الخارج من فمي يدفئ المقبض المعدني.

لقد انتزعت لساني بنفسي. لا أذكر كم مكثَ في فمي وكم مكث ملتصقاً بالمقبض. أتذكَّرُ أنني قضيتُ نهاري بأكمله مختفيةً في الباحة تارة، وتارة أخرى في المستودع، وأماكن أخرى، وكنت أبكي من الألم. لم

أكن أبكي بل أنشج بحرقة. وعند المساء دخلت الكوخ مستسلمة، مسالمة بعد أن تجمَّدت من البرد...

يقال إن المصيبة مثل نبتة، تزرعها فتلدُ لك سبعَ مصائب. هذا ما بدا لي، وهذا ما كانت تقود إليه الأمور. كان لساني قد تورّم، وكان يغلي من الحرارة، ويتحرك في فمي كحبة لِفتٍ كبيرة مسلوقة. وحتى يتمكن لساني من التحرُكِ بيسر، كنت أجلس تاركة فمي نصف مفتوح. وعندما كان يحتك باللثة أو الأسنان، كنت أقفز من مكاني من الألم، فاتحة فمي على اتساعه. لم أكن أستطيعُ الكلام. أو الأكل. كنت فقط أشرب قليلاً من الماء الدافئ بحذر. وأي أكل هذا الماءُ الفاتر؟

كانت جدتي تسمل الحبوب من «كوارة» القمح، وتخبز عشرات فطائر الزلابية البيضاء الأصلية. أحضرت جدتي العسل المقدسَ بقصعة خشبية. لم يكن بإمكاني أن أتذوقَه. بدت تلك الفطائر أطيب فطائر رأيتها في حياتي حتى أنني لم أتذوقها. لقد التهمتها كلَّها بعيني، إلا أنها كلَّها ذابت في فم ابن عمي. كان يلتهمها بسرعة، وقد احمرّ وجهه حتى الأذنين من فرط السعادة والتوفيق: لم تكن السعادة هي ما جلب له الحظ، بل المصيبة. كانت السعادة من نصيبه، أما أنا فكانت المصيبة هي نصيبي. لم أستطع أن أنسى ذلك. قلت مهددة بيني وبين نفسي: «انتظر! سوف يعاقبُك الله لسبب ما». لم تكن لديّ القدرة على البوح بمصيبتي، مما زاد شعوري بها.

جسّوا لي جبيني وبطني، أخذوا شهيقا، ثم أصدروا زفيرا، فالحرب لم تضع أوزارها بعد، ولا يوجد طبيب، وأخيراً أرسلوا آنيا لإحضار «الحكيمة».

لو كان بمقدوري أن أقول شيئاً ما بصراحة، لكنت كشفت، بالطبع، عن الحقيقة. لكنني كنت أهزّ رأسي، وألوّح بيدي. فهل يمكن فهم شيء من هذا؟

جـاءت العجوز الحكيمة فورا. كانت نحيلة، قليلة الكلام، ترتدي لوناً واحـدا صـيفاً وشـتاء، من رأسـها حتى أخمص قدمها، لقـد كان ذلك هو اللون الأسـود. صلّبتْ بـرؤوس أصابعها، ثم انحنـت بالتحية، وتقدمتْ إليّ مباشـرة. وضعتني المرأة العجوز بين ركبتيها، بين ثنيات تنورتها السوداء، واضعة يديها علـى كتفـي. كانت كفاها جافتـين، عظميّتين، كأنهما كماشـتين. قالت:

إيـه؟

أدرت رقبـتي، وحرّكت رأسـي تارة إلى اليمين، وتارة إلى اليسـار. لاحظتْ الحكيمة أن عينيَّ تهربان بإصـرار من النظر في عينيها. طلبتْ مني قائلة:

إي، أرنـي لسانك!

عندئذ أغلقت فمي، انضغط لساني فأصبح يـؤلمني. كان وجهي يتغضن كمـا لو كنت قـد ابتلعت ملعقة من الملـح. عندها بدأت العجوز تشـتبه، أن شـقاوتي هي سـبب عِلّتي. لقـد ركّـزتْ عينيها البنّيتـين مثل حبـات القهوة المحمصة في عينيّ. قالت لأمي:

أعطني شـيئاً لاذعاً.

أخرجـتُ لسـاني، ربما يكون ذلك بسـبب الألم، أو بسـبب الخـوف مما قد تعمله ويكون مؤلما أكثر. لمعت حدقتـا عينيها البنّيتين، وراحتا تتراقصان، مختفيتين تحت رموشها البيضاء. هزّت الحكيمة رأسها، وقالت:

لقد سبّبتِ له أذىً شديداً.

بالطبـع، كـانت لـدى الجميع، في تلـك اللحظة، الرغبـةُ بمعرفة كيف تسـببتُ بالأذى للساني. لقد سـارعتُ إلى إخفائه خلف أسناني. عاد وجهي إلى تغضّنه من جديد بسبب الألم. أخرجت «الحكيمة» صـرراً من قماش من أعماق

تنورتها السـوداء ذات الثنيات العديدة، وسـكبت من كل واحدة مساحيق عشبية تشبه السُّعوط، خلطتها مع بعضها وقدمتها لجدتي. لم تتكلم مع الأمهات- فقد كانت تدير شؤونَها مع ربة البيت، أي مع جدتي. تهامستا بشيء ما، وتوادعتا بعد أن عملتا إشارة الصليب بأيديهن.

غلت أمي تلك الأعشاب، ثم غطتها جيداً بمنشفة. عندما تخمّر الشاي واستقر، لعقت بلساني الذي عانى كثيراً ذلك الماء الأصفر غير اللذيذ. الشكر للمرأة العجوز الملفَّعة بالسواد من رأسها حتى أخمص قدميها- لقد ساعدتني. أوي، هذي أنا أبوح لابن عمي بكل ما احتشد لدي خلال فترة صمتي! أما هو، فقد راح يحاول معرفة كيف عاقبني اللّه. هذا ما لم أخبره به، فقد كنت خجلة منه.

لا أعرف اليوم كيف هو اللّه. إنني لم أره في حياتي، لم أسمعه، لكني الآن، ولأول مرة، أعرف أنه يوجد إله، وتوجد عدالة. في إحدى كفيها- خطاياي، وفي الأخرى- الثمن الذي دفعته. وطول حياتي كانت تزداد قناعتي أن الكفة الثانية هي الأثقل.

أناتولي تومينيف (*)

- نسيان.
- الغنيمة.
- المحتالون.

(*) كاتب و صحفي ساخر، ولد سنة ١٩٥٩، بدأ حياته عامل بناء، ثم حصل على شهادة الهندسة، ثم أصبح نائباً للشعب في مقاطعة تشيليابنسك. كتب العديد من القصص والروايات، والمقالات الأدبية، منذ عام ١٩٩٨، أصدر سبع روايات وعدد من المجموعات القصصية. من مؤلفاته: أسرار كبيرة لمدينة صغيرة، واجباتنا، السير في الركاب، الطائرة، حياة الكلاب، الخروج والعودة، النسر الأسود.

نِسيـــان

قــرَّر المهندس من الدرجة الثالثة فاليري زولـين أن يذهب في إجازة إلى المصح الخاص بالمصنع.

قــرَّر وفعل. اشــترى تذكرة الإجـازة، ســيذهب ليعالج نفســه. وليتغذّى بالطبع. إفطار، وغداء، وعشــاء ـ كما يفترض. أعطوه غرفة مزدوجة بالطبع. كان حظّه مع جارٍ غير ســيء، إنه سبّاك من عنبر المنتجات النموذجية.

لم يكــن فاليريا، في الحقيقة، يبيت في المصح. فقد كان يفضِّل المبيت في البيت. بالمقابل، فقد كان يســمح لنفســه بالاســترخاء على السرير لمدة ثلاثــين دقيقة بعــد أن يشــبع على الغــداء. بعد ذلــك يذهب لمواصلــة العمل بكامل نشاطه، كما يقال.

مرّ كل شــيء بشكل رائع، حتى أصيب بمرض النســيان.

حدث الأمر على النحو التالي. ذهب زولين ذات يوم للغداء. ذهب مبكراً بعض الشـــيء، حتى يبقى لديه وقت أطول للراحة. أكل. استراح قليلا. بعد ذلك نظر إلى الساعة: «أها! حان الوقت للذهاب إلى القسم»

يقترب من المصنع بخطوات ســريعة، متعاقبة، وهو لا يتوقف عن النظر في الساعة. عليه أن لا يتأخر.

وفجأة خطر بباله أنه حمل معه مفتاح غرفة المصح. فكّر: «اللعنة! ســوف يأتي جاري الآن للغداء، ولا يوجد مفتاح. أوي، كم ذلك ســيء»

لا شــيء يسـتطيع عمله. اتصل فاليرا مـن مدخل المصنع بالقسـم وأعلم الرئيس أنه سـيتأخر قليلا بسـبب الغـداء. الأمر ملحّ. عاد مسـرعاً إلى المصح، لاعناً النسـيان.

فكّر فاليرا وهو يلتقط أنفاسـه بسـبب المشـي السـريع: «الرأسُ الغبيةُ تتعبُ القدمين. إنه مثلٌ صحيحٌ على أي حال».

اسـتطاع أن يلحـق في الطريق رئيس قسـم التوضيب الـذي كان ذاهباً إلى الغـداء. لا بـد مـن التنويـه أن المصح، لم يكـن يقـع قريباً جداً مـن المصنع. كيلومتر ونصف ذهابا وإيابا.

هـرع فاليرا إلى المـكان المحدّد وقد أزبـد العرق على جسـده مثل حصان. فكّـر: «أوف، لقـد تعبـت، لا بد من الاسـتراحة». صعد إلى غرفتـه، فتح الباب وارتمى على السـرير. لم يكن جاره موجوداً في الغرفة.

اسـتعاد أنفاسـه. اتجهت أفكاره إلى العمل. لم يتركه التقرير الشـهري يستمتع براحته.

أصدر أمراً لنفسـه: «كفى تكاسـلاً!» وعاد مجـدداً إلى المصنع. وما أن وصل إلى مدخل المصنع، حتى تذكر مرَّةً أخرى أنه نسـي تعليق مفتاح الغرفة على لوحة المفاتيح.

«يا لي من غبي!»، هكذا أصدر زولين حُكماً على نفسـه، وهو يتصبّبُ عرقا.

لا شــيء يسـتطيع فعله، عاد مرة أخرى إلى المصح، يكاد لا يسـتطيع نقل قدميه. ومرة أخـرى يصادفه رئيس عنبر التوضيـب، الذي كان عائدا من الغـداء، والذي راح ينظر إلى فاليرا بريبة، لكن الأخير لم يلاحظ شـيئا حوله. لقـد كان يغذّ السـير مثـل أبطال جـاك لندن من أجـل إعادة المفتاح سـيء الذكر.

لم يكن فاليرا يعي شـيئاً، علَّق المفتاح على المسـمار، استدار وراح يدّب عائداً.

لقـد تلقـى زولين، علـى أي حال، «وخزةً» مـن الرئيس، لكنَّـه عزم على تمديد النوبة بشـكل ما، منشـغلاً بإعداد الحسـابات. لم يذهـب فاليرا، بعد ذلـك، إلى العشـاء في المصـح، وقـد أصبح في حالـة عصبية، لكنـه ذهب إلى البيت. أراد أن يُجري مجدداً مسـيراً علـى الأقدام إلى العيادة الصحية.

ولما وصل فاليري إيفانوفيتـش زولين إلى بيته، اكتشـف المصـيبة: لقد كان قـد علَّقَ مفتاح شـقته في المصح، أمـا مفتاح الغرفة الملعـون فقد حمله معه...

جلس يائساً على البسطة وراح يبكي بهدوء.

الغنيمة

يقال إن الفقر يعتبر سبباً للصراعات الدولية. قد يكون ذلك صحيحا...

لم يكن فاليرا زلوتين غنيا في يوم من الأيام. وربما كان عكس ذلك. كان يعيش على قدر الحال، من الراتب إلى الراتب.

إن وضع المهندسين واحد في روسيا، سواء في ظل الاشتراكية أو في ظل الرأسمالية. من لا يحب أن يصبح ثريا؟ نظر فاليرا بتمعن إلى ظروف الواقع القاسية، وأدرك سبب وجود غنى فاحش في البلاد، وخرج بنتيجة فيها حكمة عالية: «لا بد إنهم يسرقون!».

وخطرت في باله فكرة مخبولة: «لماذا، يا ترى، لا يسرق؟» لماذا متاح ذلك للجميع وممنوع عليه؟ تعاظم الضيم في قلبه، فاتخذ قرارا: «غدا سأبدأ السرقة»

سمع صوتا من أعماقه، كان ذاك صوت غليب جيغلوف الأجش: «ينبغي أن يسجن اللصوص، على أي حال!»

أجفل فاليرا قليلا. لكن حكمة شعبية أخرى هدّأته: «المبتدئون يحالفهم الحظ دائما»، وحكمة أخرى مناسبة: «شعرة من جلد الخنزير بركة»، وحدّد لنفسه: «نبدأ من السلع المسالة».

في اليوم التالي عرج إلى العنبر، وسكب في جيبه حفنة من البراغي، من الصندوق. لم ينتبه أحد إلى حركته النذلة. سر فاليرا: «نجحت!» قدماه لم تعد تحملانه، طار مثل رصاصة إلى قسمه، دخل الحمام، تنفس الصعداء، ثم لف منتج المصنع بشكل أنيق في كيس من النايلون.

ترتب عليه القيام بعملية خطرة لإخراج حفنة البراغي، خارج حدود المصنع. أخفى فاليرا الكيس في جيبه الداخلي، ومشى عبر الممر بقلب شديد الخفقان، على قدمين تكادان لا تحملانه، وقد غطى جبينه عرق بارد دبق. عندما ألقت المرأة الحارسة نظرة شديدة مشتبهة بهيئة فاليرا المتداعية، كاد ينهار فاقدا وعيه. لكن سرقة أملاك المصنع نجحت.

صعد فاليرا من فرط اضطرابه إلى حافلة غير حافلته، تجول طويلا في الحافلة عبر شوارع المدينة، غير قادر على استعادة وعيه.

يا له من بطل! إنه لا يقارن حتى بآل كوبوني أو أي مجموعة نم الفتية! لقد حاز فوزا عظيما»

برزت هناك مشكلة مع صرف المسروقات. يمكن تأجيل ذلك إلى وقت لاحق. الأهم هو السابقة ذاتها. دخل فاليرا طول المساء في حالة من النشوة اللذيذة. الفنتازيا المفرحة أيقظت لديه المزاج النفسي غير المستقر.

تغيرت التعابير الإيجابية بحدة إلى سلبية مجرد أن اقترب فاليرا من المدخل. تذكر أنه نسي كيس البراغي في جيبه؛ لذلك عاد معه إلى المصنع. ترتب عليه أن يدخل معه المسروقات إلى ساحة المؤسسة. لقد أقلقته عملية الإدخال أكثر من عملية الإخراج..

بقيت، البراغي التعيسة لديه في درج المكتب ما لا يقل عن أسبوع، حتى تمكن من أن يستعيد وعيه من الصدمة التي أصابته. حسم أمره أخيرا، ومرَّ كل شيء بسلاسة. لكن، ونتيجة للضغط النفسي الهائل فقدْ فقدَ السارق المسكين مناعته الصحية وأصيب بمرض التهاب القصبات الحاد.

عاده جاره في السكن. تبين، من خلال الحديث، أن جاره إيفان إيفانوفيتش يعمل في صيانة الشقق، وأنه بحاجة شديدة إلى بعض البراغي. قدّم فاليرا بلا شك، أو تردد ما سرق من مصنعه:

خذ هذه العلبة، كلها!

خـرج الجار مســـرورا جدا، أما صديقنـا البطل المجرم، فقد شـعر في داخله بارتيـاح كبير. تذكر مثلا يقال في مثل هـذه المواقف: «ويل للمهزوم الذئب الوحيـد هـو الذئب»، وعاش كمـا كان يعيـش، بشـــرف، وكان ينام ملء جفنية وبسلام.

المحتالون

حدث ذلك في الحافلة. في حافلة مدنية عادية تحمل الرقم أربعا وعشرين. كان الناس عائدين إلى منازلهم، بعد أن سلموا العمل للنوبة التالية. الناس هم الناس. شعب كادح. بعضهم كان يغالبه النعاس، وبعضهم راح ينظر من نوافذ الحافلة، وآخرون راحوا يتحدثون وادعين. فجأة على صراخ امرأة غاضبة:

سافل! نذل! لص! لقد حاول سرقة محفظتي من الحقيبة! يا له من حيوان!

راحت المرأة تمطر، غاضبة، الشاب الواقف إلى جانبها بأقذع الشتائم. اعترض الشاب بأدب جم:

ماذا تقولين، أيتها المرأة؟! لك الله. إن ما تدّعين غير صحيح. أنا لم ألمس حقيبتك، أبدا!

واصلت المرأة المنكوبة الصراخ:

يا لك من نذل! لقد كدتُ أمسكك من يدك، يا لك من لص! وها أنت تنظر إليّ بعينين بريئتين. حقير! بودي لو أهشم سحنتك!

واصل الشاب إنكاره. كان تفاعل ركاب الحافلة رخواً. كان كل واحد منهم، في داخله متعاطفا مع المرأة المنكوبة، وبالطبع، يعتبر أن الشاب الصعلوك يستحق العقاب. لكن أحدا لم يشرع بالتدخل في الخلاف. ساد المشهد لحظة صمت. قالت المرأة بصوت أكثر هدوءا هذه المرة:

حرامي! بودي لو أستطيع أن أقذف بك من الحافلة.

نظرت حولها مستجدية موقف دعم من الموجودين. اخفى الجميع نظراتهم. فقط، شاب وحيد كان يقف إلى يسارها راح ينظر بغضب من تحت حاجبيه.

لماذا أنت تتحرش؟ انظروا كيف ينظر إلي. يا إلهي! إنه شريكه.

لم ينبس الشاب ببنت شفة. ربما يكون فعلا شريكا. نادراً ما يعمل النشالون منفردين.

في تلك اللحظة صرخ عجوز في مؤخرة الحافلة:

اقذفوا الحقير. أوقفوا الحافلة! لقد زادها هؤلاء اللصوص! إنهم لم يكتفوا بسرقة الدولة، بل هم يدسون أيديهم في جيوب الناس لينشلوا آخر روبل لديهم.

شد الرجل العجوز من قامته بشكل لائق، وراح لفترة طويلة يدعو الركاب للثأر. عندما لم يلق أي تأييد من أحد، صمت فجأة.

واصل الركاب سفرهم صامتين، جاذبين رؤوسهم بين أكتافهم. أما المرأة، فقد وقفت بعينين دامعتين، ملتصقة بذات الشخص الذي أساء لها، والذي كان يقف مبتسما. الحافلة كانت مكتظة، وكانت مضطرة أن تدفئ خاصرة ذلك الحثالة القذر، فاقدة القوة من أن تبتعد عنه.

غادرت المرأة المهانة والمحتالان الحافلة عند المحطة قرب مبنى السيرك، نزلوا إلى الشارع، ثم افترقوا في اتجاهات مختلفة.

تنفس الناس في الحافة الصعداء. قد يكون ذلك من أجل أن ينسوا ما حدث.

نينا بيتغر(*)

- حقارة.

(*) كاتبة روسية معاصرة من أصل ألماني، هاجرت إلى ألمانيا. نشرت كتاباتها في مجلة «الأدب الأروبي»، نصف السنوية التي تصدر في ألمانيا للكتاب الروس هناك. لها عدد من الروايات والقصص والمسرحيات،منها: اختر لنفسك تحقيقا، يوم الفياغرا، إبقاء الأثر في الجسد، القذرون، وقصص.

حقــارة

كـان الصـيـف في شمـال ألمانيا مثـيراً للاشمئزاز. لم يـقتصـر قرفُه على وجـود الأمطـار والرطوبة المفرطة وحسـب، بـل، وقبل كـل شـيء، في الهجوم الغادر والمفاجئ للقـواقع البحرية على الحدائق الشاسعة.

فتحت ريتا البوابة، مشـت على الطريق المرصوف بالبلاط المتسـاوي، الذي كان يـؤدي إلى المنزل الريفي، وفجأة، رأت على الرصـيف كـائناً حقيراً، على بعد سنتمتر من قدمها اليمنى ومن حذائها الكـتاني الأبيض الخفيف. حلزونة كـبـيرة، سمينة، لزجة، سمراء داكنة، ذلك اللون القـمـيء، عارية تماماً، ومن دون قوقعة، ولها قرنان صغيران يشبهان «هوائيات» فوق رأس صغير غبي. نظرت ريتـا حولها، فوجـدت الكـثير من تلـك الكـائنات المقزّزة الكـسـولة الخاملة، كـانـت متمـدّدة في كـل مكـان، حيث تجد ما تأكـلـه، أو يمكـنها الزحف فوقـه. وعندها شـعـرت، أنها أخذت تتخلـى بهدوء عن منحـى حياتها الإيجابي، الذي يـكـون التخلي عنه غير مناسب، ويـعتبر دناءة.

أخذت ريتا زوجها وانطلقت فورا إلى متجر ضخم، يسـتقطب محبي الزراعة المنزليـة بفائض الأشـيـاء التي لا تنفد، وتسـر العين، لكـن اتضـح فيما بعد، أنه لا يـوجد فيه وسـائل ضد الحقارة السـمراء. كـلها نفدت. أدركـت ريتـا أن شـيـئاً ما مرعباً حدث، خلـلاً في التوازن الطبيعـي لا يمكـن وصفه، وأن تلك العاريـات القمـيئات لم يُخفِنَها وحدها وحسـب، بـل وكـلّ أولئك الذين لديهم حيازات صغيرة مستأجرة.

اتضـح أن مصـدر الحلزون هـو بلدان الجنـوب المجهولة، وأنهـا لم تتمـكـن من تـكـويـن أعداءٍ طبيعيـين على الأراضــي الألمانية بـعـد، يمكـنها كـبح

الكارثة بهدوء، ملتهمة الكائنات الوقحة بشكل حثيث. القنافذ خافت من عددها الكبير، والضفادع البرية، لحسن الحظ، كانت نادرة، والقطط المدللة رفضت الأطعمة اللذيذة من أجمل ما يمكن أن يتخيَّله الشخص. تكاثرت الدناءات السمراء بسرعة. الرطوبة غذَّتها بالطاقة، ومنحتها الخصوبةَ اللازمة.

قُدِّمت مقترحات لمكافحة تلك الكائنات الدنيئة بالإضافة إلى الكيميائيات النادرة، والوسائل الطبيعية التي لا تلوث البيئة المحيطة.

قُدِّمت نصيحة، على سبيل المثال: المواظبة على تجميع المحتلين، كل مساء، وقذفها في دلو ماء يغلي، فتنسلق فورا. وكانوا يقنعون أولئك الذين ضغطت عليهم الحالة بشكل استثنائي، بتفاؤل كبير، وطاقة حيوية، أن يُعشّوا أهل بيتهم والأصدقاء، بعد ذلك الفعل، بطعام مسلوق ولذيذ، على أن يقدموه مع صلصة خاصة في هذه الحالة.

اعتبرت ريتا أن أسلوب التخلص من تلك الحقارات من خلال السلق لا إنساني، و يحتاج إلى جهد كبير مستند إلى إيمان لا عقلاني عند أشخاص جبريِّين، ميّالين إلى السّادية. وبالطبع، كان بالإمكان صيد المعتدين على أرضك. لكن؛ سوف يأخذ الجيش العرمرم من تلك الحقارات السمراء يزحف، لاحقاً، من كل الأماكن المحيطة إلى الأراضي المحرّرة، غير مرتابة من المصير التعس الذي واجهه أسلافهم، وتعمرها بشكل أكثر نشاطاً ومرحاً.

بدا الأسلوبُ الآخرُ لمحاربة تلك الكائنات أكثر طرافة، ولا يحتاج إلى اتصال قريب وغير صحي معها. يتلخَّصُ الأسلوب بزراعة زجاجات البيرة المفتوحة في كل مكان تعيش فيه الحقارات في أحواض الزهور، وأحواض المحاصيل، وتحت الشجيرات، عليك بدفنها في الأرض تاركاً رقبتها، فقط، بارزة إلى الخارج.

أعجبت البيرة الحلزونات القادمة من وراء البحار، وطبقاً للنظرية، فإنها سوف تتحرك، مستندة إلى بعضها، متجهة بشكل حثيث إلى الشراب الجذّاب، الذي يعدها بحياة جميلة كلُّها أعياد، لها ولأبنائها الصغار اللزجين،

السمر القميئين، متخيلين أنفسهم أمراءَ وأميراتٍ في ألبسة الرقص في حفل رقص الجعة، لكن فيما بعد سعداء، ثملين، لأول، وآخر مرّة.

لم تتمكن ريتا من تجاوز صراعها الداخلي بأي شكل من الأشكال لأي أسلوب تعطي الأفضلية: هل تعطيها للأسلوب الأول من خلال الأسلوب المؤلم على إطلاقه، لكنْ الشريف والنزيه، وذلك من خلال سلق الحلزون في الدلو، أو الآخر الفرح، لكنه المتضمن تماسكاً خيانيا. كانت تنتظر رد فعل حزب الخضر، لكنهم، ولسبب ما، صمتوا، ربما، لأنهم لم يقرّروا الوقوف بشكل علني إلى جانب الحلزون، الذي ربما كان يتهدده الموت، والسقوط في الكتاب الأحمر، ولا إلى جانب مُلّاك الحيازات الصغيرة، وعلى الأغلب، قرروا التريث بالوصول إلى استنتاجات حتى موعد الانتخابات.

لم تتمكن ريتا من الاستقرار معذَّبةً بمختلف أنواع التهديدات، وقد ترتب على الزوج في هذه الحالة أخذ المسؤولية على عاتقه. فقد أعلن، أنه يعتبر سلق تلك الكائنات العارية أمراً لا إنسانياً، أما تقاسم البيرة معها فإنه يرفضه. ترى، كم زجاجة عليه أن يوزعها في الحديقة؟ إضافةً إلى أن الكحولَ يتطاير بسرعة وهذا يعني أن تعود لتشتري من جديد. كما أن الحلزون قد يهجم عليك من الحدائق الأخرى، عندما يشعر بوجود حفل مشروب. لا! ولا بأي حال من الأحوال! وهكذا بقي كل شيء على ما هو عليه: ريتا وزوجها على ما هم عليه، والحلزون على ما هو عليه.

لقد التهمت الحقارات السمر الزهور، التي وافقت ذوقها، بشكل كامل: البيضاء المعمّرة، العزيزة جداً، والحَوْلية، ذات اللون الأصفر البرتقالي، الباهرة والفواحة، وذات الطلة الجميلة. لقد أعطت ريتا لكل ذلك عشرين علامة، وكانت تتألم بسبب ذلك. بعد ذلك، انتقلت الحقارات إلى نباتات أخرى، لم تلتهمها بالكامل. كما الأولى، أي بعلامة تسعة وعشرين، مستمتعة، على ما يبدو، بالأغصان والبتلات الأكثر نضارة، التي كانت تحتوي على الطاقة الشمسية النادرة وذات القيمة العالية لذلك السبب، ومستمتعةً كذلك بالثمار.

وفي يـوم مـن الأيام، رصـدت ريتـا في داخلهـا حناناً لا تفسـير لـه حنانا تشـكّل من خلال نظرة التقـزز إلى تلك الحلزونات المحلية اللزجة السـمينة، المحاصـرةِ من قبل القواقع البحرية. كانت تلك تأتي نادراً، تجلس على بعض الشـجيرات، وتحتها، دون أذى، بل برومانسـية، مخفيةً أجسادها غير الجميلة في بيـوت دائرية جميلة. كانـت الحلزونات غير المؤذية، المهانـة، تبدو قريبة، ولطيفة، تثير الرغبة بملاطفتها، وإطعامها وحمايتها من الدخلاء الوقحين.

وما أن تعتم السـماء، حتى تنتعش الكائنات السمر العارية، وتزحف من تحت الأوراق والأعواد اليابسة، في تجمعات متأخرة. عندئذ يتطلب الأمرُ منهما المرورَ بحذر فوق السلسـلة، محتفظين بالتوازن، ومتحاشـين الرعب جراء الدوس علـى واحدة كبيرة لزجـة. لم يتمكن الزوج، كما ريتا، مـن التنقل بحذاء «الباليـه» بحذر، وكانت كلَّ مرة تقع في اضطراب، مجبرة إيّاه على السـير خلفهـا، وعلى آثـار قدميها، ولم تتوقف عـن الصـراخ في كل الأحوال. كانا مضطرين إلى التوقف عن الذهاب إلى البيت الريفي في النصف الثاني من النهار.

نتج عن ذلك، أن وجدت ريتا نفسـها وحيدة في المسـاء على الطريق المؤدي إلى الحدائـق، وعندهـا تمكنت من أن ترى شـيئاً، جعلها تـدرك ما لا يمكن نسـيانه: كمِّية ضخمة من النقانق، من مخلفات كلب هارب، ومن الواضح، أنه ليس من أصغر السـلالات. التهمت الحلزونات النهمـة النقانق. أحصت ريتا ثمانية منهـا ضخمة، وصغيراً واحداً، وبالأصح، يافعـاً واحداً، كثيرَ الحركة لا يشـبع. راحت تلتهـم طعام الكلب من جهات تسـع، متعمقة أكثر فأكثر في الكتلـة، الـتي بدت جذابة بالنسـبة لها من أجـل إعادة تدويرهـا. وبالطبع مسـتفيدة ممـا أضيـف إلى طعام الـكلاب من نكهـات وفيتامينات وأملاح معدنية.

ارتعبت ريتا فجأة. كان المشهد حقيرا، إلا أنها وقفت تراقبه، منحنية بسبب الشعور بالغثيان، وشاعرة، في نفس الوقت، بحاجة غير واضحة، لكنها قوية، لتأمـل ذلك الشـيء المقزّز. كم مـرة دخلت ريتا في صـراع داخلي مع نفسـها،

خلال الصيف! لكن؛ وهنا بالتحديد، حاولت إعادة الاعتبار لشعورها الباطن، وقد نجحت في ذلك. لم تكن الوحيدة كذلك، كثيراً ما يواجه الآخرون أيضا شيئاً ما سريّا، يمكن الخوف منه، يكون نائماً، يلمع تارة، ويخبو نوره تارة أخرى. وإذا ما كان ذلك الشيء يقبع في أعمق الأعماق، ولا يهدّد الآخرين، ولا يقود إلى جوائح، ولا ينشغل بشيء، ولا بالتهام نفسه.

جاءت لحظة، وقرّر «الخضر» (*) على أي حال في الحقيقة، بحذر شديد الإعلان: لقد أوضحوا، أن الأمر، بالنسبة للطبيعة، على غير ما يرام، بل إنه سيء، إذا ما لجأ كل أصحاب الحدائق إلى الوسائل الكيميائية في مكافحة الكائنات اللزجة. وحتى تلك اللحظة، كانت المتاجر قد اقتنت الوسائل الضرورية، لكنَّ ريتا، وقد سمعت نداء الخضر، تمسكت بنظريتهم، وقرّرت هي وزوجها أن لا يلجآ إلى ذلك بشكل نهائي، خاصة، أن السموم الكيميائية تنطوي على سلوك لا إنساني. الديدان المتعتعة من السمنة بدأت بفقدان الماء، وراحت تَنفُق تدريجياً، غير مدركة شيء في هذا العالم المعقّد - الذي يقدّم أحيانا ما لذّ وطاب للأكل.

عند نهاية الصيف قُدّم الحل الأكثر إنسانية للتخلص منها، يتلخص بجمع الكائنات اللزجة ونقلها إلى الغابة، حيث أن إطعامها بشكل كامل كان مستحيلا. واتضح هنا أن ريتا وزوجَها لم يكونا مستعدين للانضمام إلى تحقيق هذا النشاط الإنساني الجديد، الذي كان يتطلب من منفذيه، على ما يبدو، وقتا طويلا، وصبرا، وحبا للطبيعة، حبا حكيما بادئ ذي بدء، وطبيعيا ومنسجما.

الحقارات أخرجت ريتا من المعايير الحياتية الطبيعية. لقد حاربت خيالاتها التي حولت الحقارات السمراء إلى مِسخ مضخمة ألف مرة بواسطة الخيال، قرّرت بمثابة البداية اغتصاب قطعة من الأرض بمساحة شمال ألمانيا، ثم بعد ذلك، تنظر حولها، ثم تتحرك إلى الأمام. وما يحدث بعد ذلك معها، ومع زوجها، ومع

(*) حزب أنصار البيئة.

كلبها الصغير «شبونكا»، الذي يخاف من كل شيء في الدنيا، ومن المسخ بشكل خاص.

كانت ريتا تعذبُ نفسها بالأسئلة الفلسفية، التي لم تكن تجد عليها إجابات. ما هو الأفضل، على سبيل المثال، في الصراع مع الشياطين الأساليبُ المفتوحة المباشرة، أم المخفية، المستورة، المُغوية. موت الشياطين السريع، هو الشيء الوحيد الإنساني، أو أنها، أي الشياطين، تستحق وسيلة أبطأ في التصفية؟ وبشكل عام، هل يمكن الارتباط بالدناءة، أو أن هذه تعتبر شأن العارفين والمحترفين؟ وربما، من الممكن، والأفضل مسامحة الشياطين وتقديم مكان آخر لها للحياة؟

كانت ريتا تبالغ في إهمال نفسها عن طريق عملية ذهنية مشدّدة، وهجوم مستفز للكائنات السمراء اللزجة، التي لا تفضي إلى أي شيء، ولا تَعدُ بالوضوح وقد مرضت، حقيقة، لفترة قصيرة.

لقد مر الصيف في شمال ألمانيا مقززاً في الحقيقة.

غضب

لقد أخرجوني عن طوري هذا اليوم. من؟ هذا ليس مهماً، المهم هو ما حصل فيما بعد. غضبي يكبر، يصل إلى مستوىً حرجٍ... أخيراً، انفجر. في كل مرة، يكون الأمر على هذا النحو. أتساءل، أين يمكن إخفاء هذا الغضب؟ ماذا يمكنكم أن تفعلوا مع غضبكم، على سبيل المثال؟ أرجو أن لا يكون جوابكم أن هذه المشكلة لا تواجهكم. على من نقذف كتلة الشوك؟ هل ستلجؤون للشراب أم لقبضة اليد، أم للشتائم؟

إنكم سعداء.. أمّا أنا فلا أسمح لنفسي بذلك. الجميع يقولون إن لديّ طبعٌ جيدٌ، وإنني مسالمٌ، وإيجابيٌ، وزميل عمل مثالي، وزوجٌ مخلصٌ، وأبٌ ملتزمٌ... لقد رفعت صوتي فقط تسعةً وثلاثين مرةً في حياتي، وكان آخرها العام الماضي.

بالإمكان أن أهديها شيئاً.. لقد دفعت أريكة بقدمي. هربت الغبية، ولم تفهم شيئاً صاحت قدمي، وراحت تكشف لي عيوبي- أحمر الوجه، مخشوشن، منتفخ الجلد. هل علي أن أركل الخزانة أم... آخذ نفساً عميقاً. اقتربت من حوض السمك.... تفرقت السمكات... ليس لديهن أي هم، كل ما يهمهن هات كذا، وافعل كذا، لقد تعودن على أن تكون الأشياء متوفرة وجاهزة.

الأسماك الهزيلة الهادئة كانت تتجاهلني. الغضب المختزن في صدري لم يصمد، انتشر... رحت أصرخ بأعلى صوتي:

إنكنّ غبيات! أنتنّ تعتقدن أن كلّ شيءٍ مباحٌ لمجرد أنني سكتّ مرة.. لا، من سيهتم بالأمور الصحيّة، وبنظافة الماء، حتى أتمكن من الخروج إلى السوق من أجل الطعام، أو من أجل تنظيف الحوض؟

أقف إزاء الحوض، ولا أرى شيئاً من خلال الزجاج، الذي غطّته طبقةٌ لزجةٌ خضراء.. الطفيليات! لا يفعلن شيئاً سوى الحركة، والتنقل هنا وهناك، والتثاؤب فاتحات أفواههن على اتساعها...

صببت الماء في الحوض، أدخلت رأسي هناك. كانت السمكات قد توقفن ذاهلات، مسلِّطات عليّ نظرات بلهاء من عيون جاحظة. قلت مبتسماً حاشراً نفسي في السائل المتعطن.

أها، ها أنتن تتفاعلن!

فجّر الغضب الجدران غير النظيفة، مختلطاً بمخلفات الأسماك.. سبحتُ. السمكة السوداء رفستني بزعنفتها الرثة وكشرت عن أسنانها، السمكة الصغيرة أصيبت بالذّعر، وراحت تتثاءب مفسحةً لي المكان.

فتح ابني، ذو الخمسة أعوام الباب وسأل:

أبي، ماذا تفعل؟ مع من تتحدث؟

أمتّع نظري بالأسماك، الأسماك الجديدة، التي اشتريناها بالأمس. انظر، هذه زرقاء، يا للجمال! لماذا أنت لست نائماً؟ أمك ستغضب. أسرع، أعط والدك قبلة، واذهب إلى النوم.

صار فمي يفتح على اتساعه ويغلق جراء القلق. المريء أفسح الطريق ممرراً السمكة الصغيرة التي لاطفتني، فتنبهت الأمعاء الكسولة من الدغدغة.

الحسناء الزرقاء وقفت فوقي، ذهلت في البداية، ثم غاصت ملتصقة بلطف بعيني الجاحظة قصيرة النظر.

أنت مرة أخرى عند الحوض؟ ألم تقرأ حكاية للصغير؟ إنه لن يستطيع النوم الآن... إلى متى هذا الأمر؟ يكفيك ما أمضيته قرب الحوض.. لو كان مثل هذا الأمر مهماً، لكنت...

لم تنتظر الزوجة، التي فاض لديها اللّوم، والقسوة لتبريراتي، وخرجت من الغرفة. انطلقت بأثرها، وخلفي شقت السمكات طريقهن: الصغيرة، والسوداء، والحسناء المزرقّة، والغضب اللزج، الذي فقد كتلة حرجة...

ميخائيل يليزاروف(*)

- الحياة حلوة.

(*) ولد سنة ١٩٧٣ في مدينة إيفانو- فرانكوفسك (أوكرانيا). درس الآداب في جامعة خاركوف، ودرس السينما. عاش في الفترة (٢٠٠١-٢٠٠٧) في ألمانيا. ألّف العديد من الروايات والقصص، حائز على عدد من الجوائز الأدبية ذات التوجه الليبرالي. يؤدي أغاني من تأليفه، ويعيش في موسكو.

الحياة حلوة

رافقـتْ ولادةَ نيكـولاي صعوبات من نـوع خاص. كان يجب أن يموتَ شـخصٌ ما، حتـى يظهر هو إلى الوجود. لقد حدثته أمه بذلـك. عام ١٩٤١، رُحِّلتْ مبرّةُ الأطفال، التي كان هو فيها، من المدينة، وقد تعرضت الشاحنة التي كانت تُقلُّهـم إلى إطلاق نـار من الـ «يونكـر» المظليين. انقلبت الشـاحنة وسـقطت داخـل ترعـة، وقبـل أن يسـتدير «اليونكـر» من أجـل صـيد جديـد، كان السائقُ الكهلُ قد تمكن من إخراج الأم من الترعة، دافعا إيّاها نحو الشجيرات المنتشـرة علـى جانبي الطريق، مضحياً بنفسه، وقال لها: «اهربي، بنيتي»- ووقع هو تحت الرصاص.

لـو أن والدة نيكـولاي في ذلك الوقت كانت تحمله تحـت قلبها، لكان الأمـر رمزيـاً، لكنها لم تُكملْ وقتها الثامنة من عمرهـا، ولا يمكـن أن يدورَ الحديث عن حملٍ، وبطن.

مـن الممكـن أن تكون قـد حملت، إثـر ذلـك، مسـؤوليةً إزاء الحياة التي وُهِبتْها، وذلك من خلال محاولتها أن لا تجعل حياةَ السـائقِ المجهولِ عبثيةً. وقد تجلـى تقديرها الخاص، ذاك، مـن خلال ولادةِ نيكـولاي، وإخراجه إلى النور، وجعلِـه مواطنـاً صالحـاً في خدمة الدولة والمجتمـع. إلى هنا اعتـبرتْ أنها أوفت بواجبهـا نحـو الفقيد، وتحولـت إلى حياة بهيميِّـةٍ خالصة، إلى أنثـى حيوانيَّة شهوانية تحمل العديد من الأمراض.

لقد صدَّعت رأس زوجها كثيراً بهذه القصة، فأصبح يغار في نهاية المطاف على نصفه الرخو والقبيح من ذلك الفقيد، خاصة عندما راح نيكولاي يبدي غباءه السعيد مبكراً، معلنا:

سوف أُصبح سائقاً!

لقد ترسَّختْ لدى نيكولاي قناعةٌ، تحت تأثير قصص والدته، أن الحياة أذنبت بحقِّه يوماً ما، وهي تسوِّي حسابها معه الآن، الشيء الوحيد المطلوب منه هو- مساعدتها لتذليل الحرج غير اللائق وأن تجودَ بالخيرات، دون أن تنفد. لذلك، لم يكن يخاف شيئاً، وأخذ زمام الحياة بيديه، مثل فاكهةٍ غير مغسولة، مدركاً مسبقاً، أنه إذا لم ينقلها، فإنها ستجد من تطلب منه.

لم يسمح له المجتمع، في مرحلة معينة، أن يقرّر بنفسه المهنة التي يختارها. لم يُصبح سائقاً بسبب عدم صلاحيته لمثل هذا العمل المسؤول.

بالمناسبة، هو لم يعانِ، ولم يستأْ، بل راح ينتظرُ بديلاً أكثر قيمة.

بعد عمر الثامنة، أُلحِق نيكولاي بأعمال متنوعة في ورشات البناء، حيث الضررُ منه يكون في حدوده الدنيا. توصل نيكولاي في ورش البناء إلى فكرة، أنَّ العامل إنسانٌ له الحق في عدم إتقان العمل. كان يتحرك طول الصيف، ملطَّخاً من قمة رأسه حتى أخمص قدمه بالطلاء، والقطران، مرتدياً سروالاً تصلّب من كَثرة الأوساخ، وشبّاحاً قديما، تقلَّص حتى السرة.

تزوج نيكولاي بعد ذلك من كاتيرينا إيفانوفنا. كانت لدى كاتيا إعاقةٌ من الدرجة الثانية. لم تكن أعضاؤها الجنسية الداخلية مكتملة تماماً، ومنعها الأطباء من الحمل. لكن؛ وحتى بوجود الأعضاء الداخلية، لم يكن بإمكان كاتيا أن تحمل؛ فهي، إضافة إلى ذلك، كانت تعاني من بعض التخلف العقلي.

لقد كانت المجازفة المستترة، إضافة إلى المدخل نحو الموت، هما بالطبع، أكثر ما جذب نيكولاي نحو كاتيا. فما أن أُتيح له المجال، حتى جعل كاتيا إيفانوفنا تحمل، وعندما آن أوان الولادة، أسرع بسرواله وشبّاحه إلى المستشفى.

صارع الأطباءُ طويلا مع يكاتيرينا إيفانوفنا الساذجة. حدث لديها نزيفٌ لا ينقطع. سرعان ما استدعوا البروفيسور العجوز الأشيب، الذي كان يُمضي إجازتَه في البيت، مستجمعا قواه لمواجهة السكتة القلبيّة التالية. حضر البروفيسور حالا، ولم يتوان نيكولاي، الذي كان يذرع المكان، من أن يهزّ الطبيب العجوز من كتفيّه النحيلتين معبرا عن سروره. وراح يرغي وهو يقول، كما لو كان غائبا عن الوعي:

زوجتي، أنت تعرف، إنها تموت! أنقذها، أيها الأب! أنقذها، لا تخيّب أملنا.

لقد خلّصوا البروفيسور منه بصعوبة. راح الأخير يؤكد له بلطف، أنه سيفعل كلَّ ما بوسعه. أُجريت لها عمليةٌ معقدة. عاشت يكاترينا إيفانوفنا، وعاش الوليد، لكن البروفيسور توفي. قلبه لم يحتمل.

هنأ الأطباء نيكولاي المستوحش من شدة الفرح، قالوا، إن المولود ذكر. أخرجوا بداية يكاتيرينا إيفانوفنا من غرفة العمليات على الحمالة، ثم من بعد ذلك أخرجوا البروفيسور.

في الحقيقة، فقد هدَّأت تلك الوفاة نيكولاي. فالحياة، التي يكون في أساسها موت شخص آخر، موثوقةٌ أكثر. ودَّ لو يعانق الجميع، ويصرخ:

لا بأس، سيكبر الولد، وسيصبح طبيبا بالتأكيد!

أما الأطباء المتعبون، المحزونون جدا لفقدهم، فقد راحوا يبتسمون برثاءٍ لذلك الحُشريِّ بالشبّاح الدبق.

أصبح واضحا لدى الجميع، أن نيكولاي ويكاتيرينا إيفانوفنا دخلا على خط إنتاج الأولاد.

لم يسمح الولد الثاني لنفسه بالانتظار طويلا. مرة أخرى أسرع نيكولاي إلى المستشفى، وراح يصيح:

الزوجة، أتعرف، الزوجة!

وراح الناس يبتعدون عنه جانباً.

استُهلِكتْ كلُّ احتياطيات الدم في المستشفى من أجل إنقاذ يكاتيرينا النازفة. أحضروا كيساً جديداً من الدم الطازج في اليوم التالي، وللأسف فقد توفيت امرأةٌ أخرى، كانت تحتاج إلى نفس الفصيلةِ من الدم، ولم تتمكن من الحصول على المساعدة اللازمة.

أما نيكولاي السعيد، المحتفي، فقد راح يسأل الزوجَ المترمِّلَ التعس، متكئاً بكرشه البشع على الحائط:

ماذا كانت؟ مهندسة؟ لا تحزن، ابنتي ستكبر وتُصبحُ مهندسة!

وللموضوعية، يمكن القول، إن دُورَ المتاحف كانت تبكي على أبناء نيكولاي. كانوا يأتون كل عام، وقد ملأ باحة المنزل بهم خلال عشر سنوات. كان أحدهم أصم وأبكم، كان نيكولاي قد خطط له بعد ولادته في المستشفى أن يصبح اقتصادياً، إلا أنه فُقِدَ في بالوعة الصرف الصحي، لكنَّ البقيةَ عاشوا. كانوا يشبهون الجراذين، يتكلمون بشكل سيئ، مريعين، كانوا يتجولون بين البالوعات العديدة، مزعجين الناس بضحكهم العالي غير البشري.

لم يعد قدوم الأولاد يثير اهتمام نيكولاي. في نهاية المطاف، كان أكثرَ ما يحبه هو مرحلة ما قبل الولادة، عندما يركض هنا وهناك، صارخاً. كان يعجبه أن يقف داخل سيارة الإسعاف، ضاربا ظهر السائق غير الشاب بقبضة يده، صائحاً، دالاً على الطريق:

أسرع، أيها الأب، أسرع! الزوجة، أنت تعرف، الزوجة!

في المرة الأخيرة، دَهسَ السائقُ الذي كان مدفوعًا بإلحاح من نيكولاي إلى السرعة طفلةً كانت تحمل كماناً بيدها، وتجاوزتها سيارة الإسعاف دون أن تحملها، مسرعة إلى المستشفى لإنقاذ يكاتيرينا إيفانوفنا، من أجل ولادة مسخٍ جديد.

غينريخ بالويان(*)

- قصة مستقبلية .
- الجميع إلى الانتخابات .

(*) ولد سنة ١٩٧٣. أنهى معهد موسكو للطيران، يعمل مهندساً. كتب روايته الساخرة «تجّارٌ في هنغاريا» عن مغامرات مجموعة من التجار. يعيش في موسكو.

قصةٌ مستقبلية

استيقظ جيريمي، تمطَّى في الفراش، تحسَّس بيديه لوحةَ المفاتيح (الريموت كنترول) القريبة منه، فتح عينيه، اختار الزِّرَ اللازم، وشّغل التلفاز لمشاهدة أخبار الصباح. استيقظت الشاشة العظيمة على الجدار، وبدأ المذيع الحاسوبي الجذّاب نشرته بصوته الجميل.

اختار جيريمي من لوحة المفاتيح زِرّاً آخر، فراح السرير أسفله يتحرك في مكانه متحولا إلى أريكة، بعد ذلك قرّبتْ المنافخُ الجاهزةُ المخدات الضرورية، مكونة الوضعية المناسبة للجسم على الأريكة، تلك الوضعية المخزنة في ذاكرة الكمبيوتر.

تمطى جيريمي مرة أخرى مستمتعاً، مهيئاً نفسه لتآلف نشطٍ مع الصباح. قال بارتياح «إن هذا السرير مريح جداً، ومهما قلت، فإن القديمَ كان أسوأ منه بكثير، إنني لم أُنفق النقود عبثاً».

كان ذلك السرير آخرَ الصرعات في السوق، وأفضلَها. لا يرغب الشخص بمغادرته على الإطلاق. وكانت له وظيفةٌ أخرى، إنها غير التدليك، أو غسل الأغطية الآلي.

وبعد أن سوّى جلستَه على الأريكة بشكل مريح أكثر، قرّر الإفطار. فتح الشاشة لمشاهدة قائمة الطعام. ظهر شريطٌ مكتوب فوق النشرة الإخبارية فيه قائمةٌ متنوعة من الطعام، مصنفة في مجموعات. وبعد أن تشاور مع شهيته، وبعد تفكير غير طويل، اختار جريمي المجموعة المناسبة مع قائمة الطعام التي تحتويها. وعمل ذات الشيء لاختيار الشراب المناسب والحلويات. أكثر ما تطلب تفكيراً لديه هو فكرة: هل يطلبُ كمية مضاعفة من

الوجبة، أم عليه أن يطلب وجبة أخرى إضافية؟ على أي حال الطعام أحد أهم متع الحياة، هنا يوجد ما يستحق التفكير... السعر لا يحمل أهمية. هل عبثاً هو يكسب المال؟

كان عليه انتظار الإفطار سبعة دقائق، قرّر جريمي خلالها أن يطالع بريده الإلكتروني. أجرى أمراً، وراح يشاهد رسائله على الشاشة. لم يكن هناك شيء غيرُ الدعايات. لم تكن هناك تقارير حسابية أو مقترحات في العمل. وهذا يعني، أنه لا يحتاج إلى تحضيرات إضافية لاجتماع اليوم. أنهى جيريمي تصفح البريد، ثم فتح على فيلم حول الطبيعة الحيّة. مريح جداً مشاهدة فيلم ممتع بعد الإفطار.

صدرت إشارة صوتية، وظهرت على الشاشة ومضات إعلانية تشير إلى أن الإفطار جاهز. أصدر جريمي أمره أن يقدَّمَ الإفطار. انفتحت بوابة في الجدار المجاور للسرير وخرج منها رفٌّ يحتوي على طاولةٍ لخدمة الإفطار. كان جريمي مسروراً من الإفطار: كلُّ شيء كان لذيذا وقد سُخِّنَ بقدر مناسب. لقد أنهى وجبته المزدوجة بكل سرور. بالمناسبة، إنه لم يشكُ يوما من انعدام الشهية... مسح فمه ويديه بمناديل ورقيَّةٍ معقمة، وأمر بإبعاد الطاولة مع الإفطار. وسرعان ما اختفت الآنية الفارغة، وكلُّ ما تبقى، في الجدار.

حان وقت العمل بعد الإفطار. أدار جيريمي لوحة التوجيه إلى النظام اللازم. هنا ارتفع مسند الأريكة إلى أعلى حد، واشتغلت كاميرا الفيديو. ظهرت في زاوية الشاشة صورتُه. عندها كبّرها وراح ينظر إلى نفسه بعينٍ ناقدةٍ. رغم أنه كان عاريا (كان يرتاح في تلك الوضعية)، إلا أنه كان على الشاشة بكامل أناقته مرتديا البدلة وربطة العنق. الوجه فقط ظهر من دون تغيير. عليه اليوم أن يظهر بشكل لائق: لقد كلّفه الرئيس بإدارة الاجتماع.

بعد أن تأمَّل مظهره، لم يجد شيئاً استثنائياً فيه، كما هي العادة دائماً - مع خدّيه الواسعين اللذين نبتت عليهما لحية لم تحلق منذ زمن طويل. لقد ظهر

بشـكل عام كالمعتاد، ليس بأسوأ من الآخرين. صغّر جيريمي صورته مجدَّداً، فذهبت تلقائياً إلى الزاوية. أجرى اتصالين مع مرؤوسـيه، اسـتمع إلى تقاريرهم وكان جاهزاً لعقد الاجتماع.

عندما حان الوقتُ المحدد للاجتماع، شـغّل جيريمي نظام رابط المؤتمرات محيِّيا جميع الحضور على شاشته. كان الجميع منتقيين، ببدلات حاسوبية متشابهة، وفق آخر موضة... كانوا ذاتهم مرؤوسو جيريمي وبعض ممثلي الشركات المتعاونة.

نوقش موضوع بيع المنتجات الجاهزة. أبدى الجميع استعدادهم الكامل للإنتاج. رئيس قسم الاختبارات أعلن عن الانتهاء من التجربة وأنَّ النتائج كانت إيجابية، مستعرضاً جداول ورسومات. طالب المتعاونين، الواحد تلو الآخر، بالبدء بالإنتاج. أعلن أحد المديرين الشركاء:

أنتم تعلمون، أن كل شيء جاهزٌ لدينا، والمسألة عندكم. متى تريدون البدء بالإنتاج الواسع؟ فقط عليكم أن توقفوا الجميع، فلدينا قدرات، النفقات...

دخل جيريمي في الحديث أخيراً.

إنني أفهمك جيداً، مشاكلك مفهومة من قبل الجميع... إلا أننا لا يمكننا البدء بالإنتاج قبل تسوية أمور السعر مع الزبائن الرئيسيين. تجري الآن حملةٌ دعائية، الجميع يفكرون بعرضنا، وبمجرد أن يوافقوا على سعرنا، فإننا سوف نبدأ الإنتاج..

اسمعني، إنني لا أُعلِّمك كيف تعمل منظومتك الآلية، لذلك عليك أن لا تعلمني كيف أبيع. لقد تحدثت مع تشمّيرس ثلاث مرات، إنه ليس غبيا، يعرف جيدا بماذا تتميز بضاعتنا عن أي بضاعة أخرى، ويعرف كل شيء، وهو مقبل على أسعارنا. إنه لا يستطيع أن يهرب منا.

لكننا بحاجة إلى النقود اليوم! لقد حجزنا المواد...

تحدث جيريمي بسرعة منهياً الاجتماع:

اسمعني! إذا كنت بحاجة إلى النقود بصورة ملحة، فهذه مشكلتك. هل وقّعت عقداً؟ ماذا كُتب هناك؟ هل نحن مدينون لك عن المراحل التي مرَّت؟ نحن غير مدينين لك بسنت واحد، نحن ننفِّذ العقد. أما متى نبدأُ الإنتاج فلستم من يقرر هذا كما هو معروف لكم. انتهى، هنا أُنهي. كما وأرجو أن لا نعود إلى هذه المسألة. وكل شيء ناقشناه في هذا الاجتماع يعتبر منتهياً.

لم يستطع جيريمي الهدوء «كم من الوقت يمكن الحديث مع قليلي الفهم هؤلاء! مشكلته مع النقود... وهي مشكلتي أيضاً! إنه يفكر كما لو أنه لا توجد لدي مشاكل!» قرّر مع نفسه «إيه، كفاني، لقد عملتُ كثيراً» ثم فتح الأريكة بشكل مريح أكثر. لقد اشتغل نظام العمل اليومي، وحان وقت الراحة.

نقل جيريمي أصبعه على الأزرار، شاهد آخر تسلياته، ثم أقبل على آخر لعبة لديه باسم «Lover's Paradise ـ VI».

نعم، هذا بالتحديد ما أريده. فتيات الكمبيوتر ـ إنهن غير نسائنا المكتنزات شحماً... فتح جيريمي اللعبة.

* * *

عندما راجع باما قصته، صعّر خده لا إرادياً.

شيء فضولي، طبعاً، أن نعرف ماذا كان يعتقد الناس في بداية القرن الحادي والعشرين بخصوص زمننا هذا. كانت تصوراتهم تبدو مخيفة. ماذا يمكنك أن تفعل ـ في ذلك الزمن، كان الناس يؤمنون فقط بقدرة النقود، وبما نستطيع أن نشتريه بها: حواسيب، وما شابه... إنهم لم يكونوا يؤمنون

بإمكانيات الروح التي يمتلكونها. ليس مستغربا، كيف كانوا يتصورون حياة المستقبل...

شعر باما، في تلك اللحظة، أن أحدهم يريد التواصل معه. كان ذلك صديقه جاك. نقل له جاك رسالة مفادها أنه يريد دعوته إلى ساحة اللعب، للّعب مع الأصدقاء من القسم الآخر.

ردّ عليه باما أنه سيكون هناك فوراً. ثم حلّق في الجو متجهاً إلى ساحة اللعب.

الجميعُ إلى الانتخابات

نسـكن ثلاثتُنا في شـقة مكوَّنة مـن غرفة واحدة: أنا وأمـي وأبي. لدى والدي عمل جاد جداً. إنه يعمل مديراً. عادة ما يسـتيقظ باكراً في الصباح، ويذهـب إلى العمـل، في حين، نواصل أنا وأمي النوم. بعد ذلك تسـتيقظ أمي، تحضـر الإفطار، و نخرج معاً: أنا إلى المدرسة، وهي إلى العمل.

في كل الأحوال، يستيقظ أبي قبلنا في أيام العطل، عندما لا يضطر أحد للذهاب إلى العمل. يتجول في الشـقة، يُحدِث ضجة بأواني المطبخ، يخشخش بالجريـدة، ويشـغِّل التلفاز، فنضطـر أنا وأمـي إلى الاسـتيقاظ والنهوض من الفـراش. عـادة ما يكون مزاج والدي أيام العطل سـيئاً. بمـا أنه لا يذهب إلى العمل ليلقي أوامره هناك؛ فإنه يبدأ بإلقاء أوامره علينا في البيت، وبشـكل خاص على أمي.

وبما أن أمي تنفذ أوامر أبي بشـكل سـيئ؛ فإن مزاجه يزداد سوءاً، وعادة مـا تبـدأ أيام الأحـد عندنا بمشـكلة. يتضح، تمامـاً، أن أمي لا تسـتطيع أن تفعل شـيئاً كما يجب، و يخبرها ذلك بكلمات لا تحتمل التأويل. في حين تتفاعـل والدتي مع ملاحظات أبي بـتراخ، ومن دون الاحترام الـلازم، حتى إنها يمكن أن تقول أشـياء صادمة في إجاباتها...

أنهض، عادة، وخلال ذلك السـجال الصباحي، من فراشـي. لا مجال لمزيد من النوم والأحلام. ويمكن القول إنني أستبدل رياضتي الصباحية، في أيام العطل، بتلك الشـجارات، التي تُكسِـب نهاري انتعاشـاً. لم يعـد بإمكاني تصور يوم عطلتي من دونها.

كان كل شيء، في هذا اليوم، استثنائياً. كان يوم أحد؛ لكن صوت والدي لم يسمع. كدت لا أصحو صباح الأحد. حتى الإفطار مرّ بصمت. كما أنه لم ينبسّ ببنت شفة، عندما تركتْ أمي السكينَ تغوصُ كلُّها بالزبدة، بعد أن دهنتْ قطع الخبز. كان ذلك غير طبيعيٍّ على الإطلاق. لو حدث ذلك، في أي وقت آخر، لعرّضها لكلماتٍ قاسية بحقها.

ماذا يا عزيزتي، ألا تنوين المشاركة هذا اليوم بالانتخابات؟

كان سؤاله يفترض احتمالين للإجابة: نعم أو لا. بمعنى: «نعم، لا أنوي» أو«لا، لا أنوي»، لكن أمي قرّرت الإجابة بطريقتها:

نعم، أتدري، يبدو أنني سأذهب. انتظر، سوف أُجهّز نفسي.

بعد ذلك راحت تغير ملابسها بسرعة وتتزين. خرجت خلال نصف ساعة تقريباً، وأغلقت باب شقتنا خلفها. لم أنزعج لغيابهما إطلاقاً، فقد عدت وتمدَّدت على الأريكة ورحت أشاهد التلفاز.

كانت هناك أنباء عن الانتخابات الجارية، وأخبار عن نشاطٍ وإقبالٍ شديدين من قبل الناخبين، وتنظيم منقطع النظير لمختلف فعاليات الانتخابات. قلبتُ سريعاً عن تلك القناةِ التي تَبثُّ الأخبار إلى قناةٍ تبثُّ الموسيقي، ورحت أشاهد مستمتعاً.

غاب والداي ساعتين تقريباً، ثم عادا مسرورين، منتشيين بعد المشوار الذي قاما به. استبدلا ملابسهما، وأخرج والدي زجاجةً فيها شراب، يبدو أنه كان شراباً مثيراً، من ذلك الممنوع عليّ بحكم التقاليد. سأل والدي وهو يفتح غطاء الزجاجة:

هل لنا أن نحتفل بهذا العيد الرائع؟ على أي حال فالانتخابات حدثٌ عظيم في حياتنا السياسية؟

اعترضت والدتي قائلة:

إنني لم ألحظ أي عيدٍ هناك، لولا وجود الموسيقى. لقد كنت كما لو أنني داخلة إلى مركز شرطة. كان الناس في كل مكان كئيبين، وكانت الحراسة في كل مكان.

راح والدي يتحدّث بنبرة شاعرية، وهو ينزع الغطاء الفِلّيني.

أتذكرين كيف كان ذلك من قبل، أيامَ الاشتراكية؟ كلُّ شيء كان موجوداً: الموسيقى، المشروب، وسندويتشات الكافيار. أمي وأبي كانا عادة ما يذهبان إلى الانتخابات وكأنهما ذاهبين إلى عيد، وكانا يأخذاني معهما.

يبدو أنك كنت تذهب إلى الانتخابات لهذا السبب!

نعم، ليكن من أجل ذلك. من أين لكِ، أيامَ الاشتراكية، أن تحصلي على الكافيار والأشياء اللذيذة الأخرى، في أي يوم آخر، غير تلك المناسبة؟!

سكب أبي لنفسه ولأمي. وأصدر أمره:

إذاً، لنشربْ نخب الانتخابات!

وشربا.

إيه، لمن أدليت بصوتك، يا عزيزتي؟

أجابت أمي بطريقة لاذعة:

أنت تعرف، إني لا أستطيع أن أبوح بذلك قبل أن تنتهي الانتخابات. الدعاية الآن ممنوعة!

دعينا من ذلك، إلى من تميلين؟ فأنا أدليت بصوتي، أما هو- وأشار إليّ- فلا ينتخب. تفضلي وأخبريني، لمن أدليت بصوتك؟

وبعد ممازحات، اعترفت أمي أخيراً لمن أعطت صوتها. بُهت والدي بشكل واضح:

ما بك، هل جُننتِ؟ لماذا له؟

كيف؟ ألم تسمع دعايته في التلفاز: إنه مرشحنا الأفضل، المرشح الأكثر شعبية!

قطّب أبي حاجبيه.

هذا تأثير الدعاية الرسمية عليك، أليس كذلك؟

نعم، لقد عرضوها من أجلي!

حدث فاصل من الصمت. قطّب والدي أكثر، بعد ذلك فرد حاجبيه، وضمَّ قبضته وسأل:

هذا يعني: إنني كنت أقرأ الجريدة، وأدرس الوضع السياسي، وأُحضر للانتخابات، و نحن هنا نستمع إلى الدعايات التلفزيونية، وذهبتِ معي إلى الانتخابات وأدليتِ بصوتك بعد كل ذلك عكسي. لقد أوصلتْ جهودي إلى لا شيء!

لم ينبّئ مظهره عن أي خير. لمعت عيناه، وكانت يده المقبوضة تتكئ على الطاولة. وبدت أمي كما لو أنها لم تلحظ ذلك. ضحكت:

وماذا كنت تظن: أليست انتخاباتنا حُرَّة؟! كل واحد يستطيع أن يدلي بصوته كما يشاء.

قال والدي بصوت متقطِّع:

لا أرى شيئاً مضحكاً في الموضوع. ألا تعينْ ما صنعت؟ إنها الجولة الثانية

من الانتخابـات، وهناك مرشـحان، و نحن صوّتنا لشـخصـين مختلفين! ما هي نتيجة تصويتنا الآن؟.

كان من الواضح أن دمه بدأ يفور. وبدا الأمر مسلياً بالنسبة لأمي. ابتسمت بخبث. ضـرب الوالد الطاولة بقبضة يده.

مـاذا دهـاكِ، ألا تفهمين: لـماذا إذا ذهبنا معا إلى هناك، ملأنا الاسـتمارات، صوَّتنا؟أنـا صوّتُّ بهـذه الطريقة، أما هي فبالعكـس. والنتيجة صفر! كان بإمكاننا أن نبقى في البيت حينئذ. يا لكِ من رأس فجل، غبيَّة!

وختم حديثه بنبرة عالية. غضبت أمي بعض الشـيء بعد تلك الكلمات. قالت بنبرة المهان:

ولو جلسـنا في البيت، ماذا سـيحدث؟ ألا يمكنني أن أصـوّتَ كما أُريد. حتى هنا توجد رقابة!

راح والدي يُعبّر عن رأيه بصوتٍ كان يعلو شـيئاً فشـيئاً:

وما فائدة تصويتك! أي تصويت؟ إنكِ لم تكوني تهتمين بهذه الانتخابات! حتـى إنك لا تفهمين مـا هي الانتخابات، والحمـلات التحضيرية؟ لقد سمعت دعاية! يا لك من غبية غير طبيعية! إن ذلك ليس غريباً، فأنت تخربين حياتي!

حاولـت أمي أن لا تُهـزم؛ فأجابته بطريقة لا تقلُّ إقناعاً. جلسـت أنا صامتاً خلف الطاولة، ورحت أسـتمع إلى تلك المناظرة السـياسـية التربوية. ولم يكن بإمكانـي قول أي كلمة، حتى لو كانت لدي الرغبة بالمشـاركة. احتدمت النقاشـات باتجاه لا مزاح فيه، بحيث أن أي طرف لم يكن باستطاعته سماعي علـى أي حال. صدرتْ ضـربـات على الطاولة خلال النقـاش، وتبادلٌ للاتهامات والشتائم، التي ليس لها أي علاقة بالسـياسة....

تطور الجدل سـريعاً إلى شجار، فضـيحة، لم يكن ينقُصنا في ذلك الصباح. وهكذا مرَّ ذلك الأحد، الذي بدا للوهلة هادئاً على غير العادة.

بيان شيريانوف (*)

- البياض رواية.

(*) اسمه الحقيقي كيريل فوروبيوف. كاتب وصحفي روسي مشهور، ولد سنة ١٩٦٤، عضو اتحاد الكتاب الروس، بدايته الأدبية كانت بعد انهيار الاتحاد السوفيتي ١٩٩١، اشتهر عبر الانترنت، عبر رواية بهلوانيات، بأجزائها الثلاثة، عن تعاطي المخدرات، والتي تعرضت للسرقة ونشرت عبر الانترنيت، وجلبت له الشهرة، وكذلك رواية البياض، التي لم تحو سوى على كلمة البياض، لكنها حازت على نصف مليون كلمة نقاش، وغيرها.

البياض – رواية

النهاية

ملحق رقم ١

كلمة الختام للناشر: هذه أقصر رواية. تقرأ كلها بنفس واحد. لم يسبق لأي كاتب آخر أن وُفّق بكتابة مثل هذه الرواية. علماً، بأنه لا يجوز نعتها بالرواية الأقصر. كما أنه من الممكن إيراد نقاشات مطولة حولها: هل تعتبر العلامة التي تمثل غياب العلامة، علامةً خاصة؟ لكن هذه هي نظرية الكتابة: هذه الرواية هي الأكثر غرابة، وفي نفس الوقت الأكثر تعدداً في الدلالات والمعاني. فالبياض فراغ، يمكن أن يُقرأ لا على أنه غياب للنص، إنما محاولة كتابية لتجسيد نظرية شونياتا، الفراغ الأولي، الذي يحتوي على التوافه، والغرائز، والمآسي، والمهازل الإنسانية ذات المعنى وغير ذات المعني بشكل غير ظاهر. كل شخص يمكنه فهم هذه الرواية بطريقته، ويمكن للانطباعات أن تختلف بشكل جذري. إن الكاتب يقدم إرادة لمخيلة القارئ، الذي سيصعق من الحرية التي يمنحه إياها الكاتب. وهكذا، اقرؤوا، وتغلغلوا في أغوار فكر الكاتب.

ملحق رقم ٢

مقتطفات من مراسلات كاتب «البياض» وصديقه فراتس.

من بيان شيريانوف bayan @libido. ru

٢٦. شباط ٢٠٠٠

إلى كيريل فراتس ru .mail .e@frats ru

تحيـة. كيف أحوال شـقرائك؟ لم ألحـق [esc]... وها أنـا أفكر بكتابة روايـة أخرى. لا يجدر بك الضحك. نعم، لدي أربعة كتب تحت العمل. أكتب أحدها، أما البقية فلم أبدأ بكتابتها بعد.. لا. لكن لا بد أن هذا وضع خاص. لم يسـبق لي أن مررت بمثل هذه الحالة. أولا، ستتضمن الرواية فلسفة، بالأحرى، ستكون مليئة بالغيبيات. ثانيا- ستكون مليئة بالغرائز التي لم تخطر حتى ببال شكسـبير. تصور أن أسـتكمل على سـبيل المثال هاملت. ليس حرفياً، بـل أن تكـون الرواية بروح هاملت. على كل، أريـد أن أضخّ فيها كثيرا من الهزل حتى الارتواء.

بشـكل عـام توجـد فكـرة. بقـي أن أأطرهـا في جنـس أدبـي.. [esc]. سـيكون ذلك!

من كيريل فراتس frats@e. mail. ru

٤. نيسان ٢٠٠٠

إلى بيان شـيريانوف bayan @libido. ru

[esc] تبـين أن الشـقراء كانت واحدة أخرى، إنها لم تدخل أشـعاري، قالت إن اللازمات لدي ليسـت كما هي عند باراتينسـكي أو عند برودسـكوي، ولا حتى كما هي لدى غاليتش. لذلك أنا الآن وحيد (الدمعة تنحدر على الخد، وتلتهب من احتكاكها بالشعر القصـير...)

[esc] ألم أقل، بأني لا أفهم الأشـكال الكبيرة. من لم يفسـد شكسبير بعد؟ الشـيء الوحيد الذي تحقق كان لدى ستوبّارد. أما استكمال هاملت... ماذا لم يُقل بعد هنا؟ كل شـيء عبارة عن لعبة مضحكة! «صمت تال! »

[esc] من بيان شـيريانوف bayan @libido. ru

٥. نيسان ٢٠٠٠

إلى كيريل فراتس frats@e. mail. ru

تحية،

لا أعتقد، على ضوء وتيرة معرفتك بالجنس الآخر، أنك ستبقى طويلا تبكي بنزينا. أحد معارفي [esc]. بخصوص الرواية الجديدة. لقد قدمت أنت لي فكرة باهرة من حيث لا تدري. صمت: هل يمكن التعبير عنه بعلامات؟ لقد نصحتك بـ«عصا» كوغان. وإذا ما قرأتها، ستعرف، أن الشخصية الرئيسية في كل الرواية لم تنطق بكلمة واحدة. الكتاب كله عبارة عن تشكيل لصمتها، لا، زلابية! إنها تجأر! لكن لا صدى!

[esc]

كن!

من كيريل فراتس frats@e. mail. ru

١٠. نيسان ٢٠٠٠

إلى بيان شيريانوف bayan @libido. ru

هنئني! هذه فتاة- ملاك ناحل! هل دخلت هي و... في لغة جديدة [esc] أما بشأن فكرتك حول وصف الصمت... قد كان. مثلا، لدى بافيتش فتاة ما.. كانت تصمت بثلاث لغات. ولكي يصمت البطل بشكل طبيعي- اقطع لسانه، أو اجعله أصما. توجد لديك مثل هذه الشخصية، وهكذا، يوجد لديك تجربة.

[esc]

....

من بيان شيريانوف bayan @libido. ru

١١. نيسان ٢٠٠٠

إلى كيريل فراتس ru .mail .e@frats

تحية!

هل سترسل إكليلاً إلى ملاكك؟ لا تتهرب بأن ليس لديك ناسخ ملون! [esc]. حتى أنا اتجهت إلى صناعة لغة صمت في الرواية الجديدة. كيف يمكن للبكم أن يتواصلوا؟ إنهم يتواصلون عبر الجسد فقط. كان هذا متقدما في الهند، لكن هل يترتب عليّ أن أتعلم هذه الرقصات؟ إنه لأسهل علي خلق لغتي الخاصة بالجسد. يمكنك أن تتصور أحد هؤلاء يسير في الشارع، يلاقيه الناس، الجميع يتحدث عن نفسه، غافلين، أما هو فيتحدث مع أجسادهم، متجاوزا العقل!

بطل عنيد؟

[esc]

من كيريل فراتس frats@e. mail. ru

١٠. نيسان ٢٠٠٠

إلى بيان شيريانوف bayan @libido. ru

إنها لا تتشكل في الشعر، لكنها تستمع إلي بدهشة! [esc]

لدي ناسخ ملون، لكن الواصلات أبيض- أسود. لذلك، لا أرى سوى شبكة b/w :.))))))

[esc]

كان- حديث أجساد. «السيد الضحك»، أقصوصة من أقاصيص هاريسون، هتس. لكن كيف عرف تبادل الغرائز بواسطة الأجساد؟ ماذا تريد؟ هل تريد كتابة بارنوخا؟ [esc]

لقد ذهب كي يبيض.

من بيان شيريانوف bayan @libido. ru

١١. نيسان ٢٠٠٠

إلى كيريل فراتس frats@e. mail. ru

فرح لحياتك الجنسية!

[esc]

لقد فهمت، لقد ذهبت في طريق غير صحيح. إنها رواية من دون نظرية. إضافة إلى أنها روسية، وعليها أن تصمت باللغة الروسية! تصمت كثيراً، صمتاً جميلاً، بنكهة فلسفية_ غيبية. وعلى خلفيتها سيحشر الجميع أنفسهم في مآزق، وسأقتلهم جميعا.

[esc]

من كيريل فراتس frats@e. mail. ru

١٦. نيسان ٢٠٠٠

إلى بيان شيريانوف bayan @libido. ru

ضاع كل شيء!

لقد أغويت هذه الغبية إلى جدة! أنت تعرف كراهيتي لـ... [esc] بايان، أنت مريض نفسيا! أنت عبثا تكتب رواياتك! انظر أي حشري ذاك الذي نشر «كتاب فارغ» - خمسمائة صفحة فارغة! وكان الجميع مسرورين، مسوق جيد، زلابيا!

[esc]

تعال لنحتسي الفودكا معا، لدي جعة.

من بيان شيريانوف bayan @libido. ru

١٦. نيسان ٢٠٠٠

إلى كيريل فراتس frats@e. mail. ru

أنت عبقري! لقد اخترعت كل هذه الأفكار، سأذهب إلى..! سيكون هذا تسويقا جيداً!

سأقص لك شخصياً.

إيرينا بوريسوفا(*)

- من إذا لم أكن أنا.
- بناء.
- مساء غير عادي.
- عالمان.

(*) كاتبة وشاعرة روسية. ولدت سنة ١٩٥١. تعيش حاليا في سانت بيتربورغ. درست الهندسة في معهد لينغراد للتكنولوجيا والكهرباء سنة ١٩٧٤. أصدرت أولى مجموعاتها القصصية سنة ٢٠٠٥ بعنوان «أمريكا الوحيدة». ثم أتبعتها برواية «للكهول في أوقات الدفء». وكتبت عمودا ثابتا في صحيفة ساعة بيتربيورغ بعنوان «يوميات متفائلة» (٢٠٠٤-٢٠٠٦). ثم جمعتها في كتاب بعنوان «سيدة المنزل». ومن مجموعاتها القصصية: هل يمكن أن يوجد مثل هذا الأجاص؟.

من، إذا لم يكن أنا؟

في أحـد الأيام، وقد نظّفت أسـناني وارتديت بيجامـتي، اقتربت من النافذة لأمتّـع نظري بالعاصفة المطرية قبـل النوم، وفجأة عند التمـاع البرق، لاحظت سـكران غارقاً في بركة ماء في الساحة أمام العمارة. أفكر بأنني قد أكون الشـخص الوحيد الذي شـاهده، وأن السـكران إنسـان أيضاً، وسـؤال حتمي يجبرنـي أن أنتعل جزمـتي، وأرتدي معطفي المطري فـوق البيجاما والخروج إلى الشارع: «من سـينقذه، إذا لم أكن أنا؟»

أُخرجـه، وقـد اتسـخ وابتل حتى جلـده، أُسـنده إلى عمود، أهـمُّ بالخروج، لكن تركـه في تلك الحالة سـيكون عملاً ناقصاً. المكان مليء بالأوساخ، والمطـر ينهمر، ولا أحد يعبر الطريق، وفجأة يُصدر السـكران صوتاً: «من أجل اللّه! خذنـي إلى البيـت! يا لها من مصـيبة! مرة في الحيـاة! يا للعار!» ألين وقد فهمت أن الرجل، على ما يبدو، سـكر للمرة الأولى في حياته بسـبب مصـيبة حلّـت به، وهو يخشـى أن يعيده أحد ما إلى عقله. أقـرر: ما دمت بدأت، عليّ أن أكمل العمل حتى آخره، أوقف سـيارة «جيجولي»، السـائق ينظر بريبة إلى بنطـال البيجاما المخطـط الذي ظهر من تحـت المعطف المطـري، نتنقل طويلاً، لكـن لا وجـود لعنـوان الرجـل السـكران. يقطـب السـائق حاجبيـه، نعود القهقـرى، وهـا نحن مـرة أخرى في حيّنا، أدفع للتكسـي، لأنـه لم يكـن في جيـب الرجل إلا بطاقة جمعية الإنقـاذ مبللة، وقطعة كوبيك واحدة. ها نحن مرة أخرى معاً، أود لو أتركه بعد أن أوسـعه ضـرباً، لكن استقامتي لا تمنحني الراحـة مجدداً، يبدو لي أن تركـه الآن أيضاً غير منطقي، بعد أن تعذّبت معه كلّ ذلـك العـذاب. أفكّر بأن آخذه إلى جانب وحـدة التدفئة في مدخل المنزل، وهنـاك يمكـن أن يجف، ولا يصـاب بالنزلة الصدريـة، أو أن يـكون ضحية

نشالين، لكن عندما سحبته إلى مدخل العمارة، يواجهني، خارجاً منها، جارنا الكسندر إيفانوفيتش. يأخذ السكران بين يديه من الجانب الآخر، ودون أن يستمع إلى توضيحاتي، يتمتم: «آي-آي-آي» ناظراً إلى بيجامتي التي تلوح بين الحين والآخر كلما وقع عليها بصيص من النور، وعندما نصطدم أيضا بالبروفيسورة بلاسكينا التي التصقت بالجدار مذعورة، تغمز مشاركة، وأنا لم أتمكن من الانتباه إلى غرابة أن أحمل سكران إلى شقتي.

نحن مرة أخرى معاً، السكران يتأرجح، ملطخاً فراشي النظيف، أقول بصوت عال ملوحاً بيدي مستسلماً:

إذا ما فعلت خيراً، فافعله حتى نهايته.

أخلع عنه ملابسه مقشعرّا من التقزز، أتركه لينام على السرير، وأنام أنا على الأرض.

تبيّن لي في الصباح أنه شخصٌ هادئ وخجول، ينحني ويشكرني، ألقي عليه خطاباً قصيراً رحبا، ملأته بالإشارة إلى الخمول المعتاد لدى البشر. يقسم بأن ما حصل سيكون درسا جيداً، أما أنا فبقيت طول اليوم في مزاج رائع، لكن في المساء، وأنا أقترب من النافذة، رغبة مني في رؤية المكان ذاته، حيث رأيته، لم أصدق عيني: وجدته يستلقي هناك، حيث كان بالأمس، يحاول عبثاً الخروج من البركة. أفكّر طويلا، وبعد ذلك أذهب بعد أن أبدّل بيجامتي. وما أن يراني حتى يجهش بالعويل: «من، إذا لم تكن أنت؟» وتتكرر سيرة الأمس.

حالياً هو في الحي كل مساء، يلاقيني بهذه الكلمات، وعندما لا أتمالك نفسي وأنزل إليه. عندي في المنزل مجد مجنون، الجيران يعتبرون أن قدمي زلّت عن الطريق القويم، وأنا كلّ يوم أقدم عهداً بأن لا أقترب عند المساء من النافذة، ومع ذلك فإنني كل مرة أقرّر أن ألقي نظرة واحدة، وما أن أراه حتى أسارع إلى نجدته.

بقـــي لدي أمــل واحد. كتبت رســائل إلى كلّ المراجع، مطالباً بالإســـراع لبناء البناية الجديدة المقررة بين الســاحة ونوافذي. عندها ســـيكون من يرى السـكران شـخص آخر ممن يسـكنون في تلك البناية، وليــس أنا، وليطرح عندها ذاك الشـخص الأسـئلة على نفسـه، لأنـه، عندما يتعلق الأمـر بإنقاذ سكارى، ليكن مع ذلك شخص آخر.

بنـــــاء

إن الحريــة، وأن تفعــل ما تريد وهــمٌ، ففي حقيقة الأمر يوجـد هناك بناء صارم، فيه عدد محدود من الخلايا التي يمكنك أن تأخذ مكانك فيها.

يمكنك أن تعمل مندوب مبيعات، أو مدير مبيعات، إذا كنت قد أنهيت الدراسـة الجامعية، أو حارسـا شـخصياً، أو رجل حماية، إذا كنـت رياضيـاً، أو«موديـل»، أو فتاة«كليب»، إذا كنت فتاة، أو بائعا في السـوق، أو سـائق سـيارة أجرة، أو بائع بسطة في نفق مشاة أرضـي، إذا لم تكن هذا، أو ذاك.

في الصباح من الممكن أن تستنشـق عبق شـاي«ليبتون»، أو الاسـتمتاع بالقهـوة الرائعة «تشـيبو»، وإذا مـا أردت أن تتميز، وتغلي، لنقل، شـراباً من الغبـيراء، فسـرعان ما ستُدرك، أن هـذا مشـمول بشـركة«إيفالار- خيرات الصحة»، التي تنصح الجميع بهذه الوصفة من أجل تحسـين كل شـيء.

يمكنـك أن تقـرأ قصصاً بوليسـية كوميدية، أو رواية نسـوية، أو أي قمامات عن العفاريت أو الأدب المخصص لفئة معينة دون غيرها.

يمكن أن تشـرب«بيرة صحيحة» أو«بيرة ذات طابع ذكوري».

يمكن أن تسمع«شانسـون»، إذا كان لديك سلسال معلق على عنقك وشـنب، أو«بيـترو»، إذا كنـت أصلع، وكانـت لديك تجاعيـد على وجهك، أو«ديناميت»، إذا كنت حليق الرأس وبطنك مخروم.

يمكنك السـفر إلى تركيا للاسـتجمام مقابل(١٩٠) يـورو، أو إلى مصـر مقابـل(١٨٠) يـورو، وإذا مـا أردت أن تتميـز وتهـرب إلى مكـان مـا في غاباتك الوطنيـة، فهنـاك، علـى أي حال، سـيصلك الحجـاج، المسـافرون على طريق

موروم ديفييفو بدافع الوصول إلى الأصول.

وإذا ما أردت أن تبدأ عملا استثماريا، وتتاجر بمقاعد المراحيض، أو بالفطائر، أو بالكيماويات المنزلية في كشك، فإنه سيكون على الجانب الآخر من الشارع منافس لك يبيع الأشياء ذاتها.

إذا ما ربحت أموالا كثيرة، سوف تشتري عقارا ثابتا، وتبدأ بالتصليح، وتبدأ بالخوف من اقتحام الأشياء، وسوف تفكر بالسفر إلى جزر الكناري بدل تركيا، وعلى أي حال، فإنك لن تجترح شيئاً جديداً.

وإذا ما قرّرت أن لا تنتسب لأي جهة، وأن تضطجع ببساطة على الصوفة تقرأ كتاباً، وفي نهاية المطاف، فإنك ستشرع بجمع الزجاجات، وتحتل بذلك الخلية المناسبة لك.

ومع تطور البناء، فإن عدد الخلايا سوف يزداد، وفي حال زيادة الكمية بشكل كبير فسوف يبدو، أنك تسير بطريقك الخاص، لكن، في حقيقة الأمر، فإنك إنما تأخذ مكانا في خلية مليئة تماماً.

البناء متسامح تجاه الأعمال غير القياسية، وغير الجدّية، من نمط تأليف الشعر، وصناعة كاشفات المعادن في البيت، أو محاولات فهم الوجود، لأن الخلايا الصغيرة، التي تظهر عفوياً، تكون، كقاعدة، مؤقتة، وتحدث لمرة واحدة، مع اختفاء صانعها فإنها تنتهي من دون أثر، ولا توظّف في الصراعات البارزة.

مساء غير عادي

تبرز حولي في هذا المساء عدة غوايات. أمرُّ من أمام مشغل الأحذية، وقد كان يلزمني منذ مدة طويلة الذهاب إلى هناك، المكان مكتظ دائما بالناس، وما أن أدس رأسي في الباب حتى أصاب بالدهشة: المشغل فارغ تماماً. أسأل من هناك غير مصدقة: «هل تلصقون نعلاً على كعب مطاطي؟»، يجيبون على سؤالي بترحيب: «نعم»، لكني لسبب ما لا أتعجّل الدخول. فجأة أستدرك، وأنا واقفة عند العتبة، إنه لمن الخسارة أن أضيع الوقت على مثل هذه السخافات، وأفكّر، بأنه يمكنني أن أقوم هذا المساء بأشياء كثيرة مثيرة. لكنني لا أعرفها بالتحديد. أؤجل النعل إلى وقت آخر، وأختفي خلف الباب تحت أنظار موظفة الاستقبال المندهشة. أواصل السير، أرى فترينات المسرح المضاءة، أصل إلى محاذاتها، أعرف أن العرض المسرحي الذي لطالما حلمت بمشاهدته يبدأ الآن، وفي محيط المسرح أجد هناك، كالعادة، من يعرض تذاكر زائدة عن الحاجة للبيع، تقف إلى جانبي امرأة مضطربة، وتقول: «هل تحتاجين إلى تذكرة؟» كل شيء يبدو موفقاً هذا المساء، ما جعلني أفكر: «لا، إلى الأمام. من المحتمل أن يكون هناك شيء ما غير عادي وأكثر جاذبية ينتظرني»، خسارة أن أضيع المساء كلّه في المسرح دون أن أعرف ما يمكن أن يحدث لي، أهز رأسي مبتسمة، ثم أنطلق إلى الأمام.

لم يكذبني الحظ هذا المساء، إنه مليء بالمفاجآت فعلاً: ألتقي بالطريق بصديق قديم من أيّام المدرسة، وكثيراً ما خطر ببالي في الآونة الأخيرة. تلمع عيناه بالفرح السابق ذاته، ويدعوني متأملاً منّي الاستجابة: «لنذهب نتمشى!» لكني أنظر إلى خصلات شعره المعهودة المضحكة، وشيء ما يهمس في داخلي: «لا، لا، هل هذا هو الشخص المطلوب؟ انظري، إن كان جاهزاً الآن للزواج، ستبقين معه، ولن يتسنى لك أن تلتقي بآخر غير عادي، وغير معروف، في أي وقت!» ألوّح له بيدي: «في مرة أخرى!» وأجتازه مسرعة.

وهــا أنا أُحلّق فــوق المدينة مثل طائر حر، لا أســتطيع أن أتوقــف، وأريد أن أعرف، ماذا هناك بعد، خلف الزاوية. وأطير من ركن إلى آخر نشوى؛ لأن الحظ يحالفــني، لكن الشــوارع تفرغ، الفيــترينــات تُطفأ، قلقٌ بــدأ يغزوني، وأعود إلى الانتظار الفارغ من الصبر، هل من ســيدعوني اليوم، بعد؟ لا أحد يدعوني. أعود مســرعة إلى نفس المكان، الذي قابلت فيــه الصديق القديم، أفتش فيه عنه، غير مستوعبة، كيف استطعت أن أتجاوزه فأنا تراني كنت أفكّر به عاماً كاملاً تقريباً، أي شخص دمث الأخلاق هو، وأي قدٍّ جميل لديه! هكذا فكّرت، أمرُّ ببطءٍ من أمام المسرح، خلق كثيرون يتزاحمون قربه، يتناقشون بحيوية أثناء اســتراحة العرض حول المســرحية الرائعة، أصطدم بالطابور الذي تشــكّل، وسيســتمر أياماً وليال لمدة شــهر حتى العرض التالــي. أُصعق: «يا إلهــي! متى ســأتمكن في هذه الحال مــن الدخول إلى المســرح؟ كيف رفضت التذاكــر التي عُرضت عليَّ، ويــكاد لا يراها أحدنا حتــى في المنام؟» أتذكّر مشــغل الأحذيــة، أواصــل، ناســية كل شــيءٍ في الدنيــا، عــدا النعل على الكعب المطاطي، أغذّ الســير إلى هناك، كأنما مصير حياتي كله متوقف على هذا الحظ. أتقدم أكثر عندما أرى النور، أطير فوق الدرجات، أطرق الباب، تطلّ موظفة الاستقبال مندهشة، وتقول بحزن: «نفد المطاط، نفد قبل قليل.. »، أطلب دفتر الشكاوى، أثير ضجة غير مجدية، أخرج متر نحة مخزِّيةً.

أســير على كعب الحذاء المهترئ، أحاول اســترداد حيويتي: «غداً سأعوّض كل شــيء! تعلمــت اليوم الكثير، وأســتطيع أن أحســب بدقة، مــا علي أن أتجاهلــه، ومــا علــيّ أن أتوقــف عنــده! الآن. أوه! الآن لــدي تجربــة، الآن أعرف كل شــيء... » لكــن الآن وغــداً، وبعــد غــد، ولأيــام كثــيرة متتالية أجد مشــغل الأحذيــة مكتظاً، وكم مررت من أمام المســرح. لكــن لا أحد يتقدم مــني ليعرض عليّ تذاكر فائضة عن الحاجة، وما زلت أنتظر متى أقابل مجدداً الصديــق القديــم دمث الخلق ذا القدّ الجميل، ومتى يحل مســاء واحد آخر غير عادي بالنسبة لي. لقد انتظرت طويلا، ولم يحصل أي شــيء من ذلك بعد...

عالمان

يحدث أحيانا أن تسافر في دورة تدريبية إلى مدينة غير معروفة، ويكون المبيت في الفندق مكلفاً، تذهب إلى عائلة غير معروفة من أقارب بعيدي القرابة، وفجأة يعجبك كل واحد في تلك العائلة بشكل هائل، وأكثر ما يعجبك بهم، تعاونهم، ولطفهم، ورقتهم تجاه بعضهم بعضا. يكفي أن تنشر الأم غطاء المائدة، حتى تتحرك الابنة من توها، وتروح توزع الشوك، يصيح الأب:

لا ترفعي الأشياء الثقيلة!

و يجرّ مرطبان مخلل الخيار ذي العشرة ليترات من البلكون. الصهر يكون قد ارتدى ملابسه وأسرع إلى الدكان.

يأخذونك لترى الشقة، تجد لدى كل واحد منهم هنا عملاً محبباً، وكلّ واحد يتحدث بحماس، لا عن نفسه بل عن الآخرين: الأب يشير بكل سرور إلى الابنة:

إنها ليست مثلنا، إنها شخصية مبدعة، إنها راقصة باليه!

الابنة تشير إلى زوجها فرحة:

إنه لا يفكّر إلاّ بعمله، لدرجة أنني بت أغار من عمله.

الصهر يحرر يديه المكتّفتين وينطلق لمساعدة حماته في توظيب الأواني، الابنة تتابعه بنظرات الامتنان، بعد ذلك تنقل إليك نظراتها الملتمعة بالفخر الساذج، أما أنت تفكر متأثراً:

يا للأريحية! عندما تجد كل أفراد العائلة يحبون بعضهم بعضا.

و يحـين وقت النوم، يهيئون لك منامة في غرفة الأبناء. أنت غارق بالامتنان. تخطر على بالك فكرة: يا إلهي، ماذا لو كانت كل العائلات تعيش سعيدة هكذا، بأي نعيم ستكون الإنسانية جمعاء!؟ أنت تنشـر الملاءة النظيفة، التي تصدر حفيفاً، بسـعادة، يدخل الأب، في ذات الوقت، إلى الغرفة. تنظر إليه بحب. لكن الأب الذي ينظر جانباً خجلاً، يتمتم:

لدى الأولاد الآن إجازة، أنت تفهم، إنهم، في العادة، قليلاً ما يتواجدون معاً.. تعال لتنام عندي، أفضل لك!

أنـت تهز رأسـك علامـة التّفهم، تكـون جاهـزاً للذهـاب، الأب يعدك بأن يريك كتباً مشـوقة، تتسـلل الأم خلفكما، وأنت ما زلـت تفرش الملاءة، الأم تجذب المريول باضطراب، وتهمس:

لا، الأفضل أن تذهب معي- إنه سيظل يثرثر حتى منتصف الليل، إنه سوف يستعيد نشاطه، سـيكون وضعاً مزعجاً مع حالة فقدان الذاكرة لديه!

تفكـر، يا لهم من نـاس لطيفين ومحبين! تخطو خلفهـا حاملاً الملاءة إلى الغرفة المريحة، لكن يظهر الصهر والابنة فجأة منزعجين، يقولان مبتسـمين ابتسامة اعتذار، بأن نوم الأم خفيف، وأن أي حركة تسبّب إزعاجها، ويدعوانك للعـودة معهما. وها أنـت مجدداً تسـتعد لتناول الملاءة تحـت إبطك، لكن من بين ظهريّ الشـابين يقفز الأب هازاً رأسـه نفياً. يشـدّ الملاءة إليه، وفي اللحظة ذاتهـا تخطفهـا الأم بمهارة، أنت تهرب بالملاءة وتـدور في المكان. تتوقف فجأة، يحمرّ وجهك، وخلال عشـر دقائق تجد نفسـك تتجول في الشوارع، باحثاً عن عناوين أخرى، تفكـر إلى أين سـتقودك قدماك. أنت حزين، لأنه لولا لقاء الغد المهم لما سـافرت إلى أي مكـان، ولتوجهت مباشـرة إلى محطة القطار، ومع ذلك أنت تصعد درجاً، ومن بعيد تسمع صـراخاً خلف الأبواب، أصوات تحطم زجاج، وضجيج شجار. تبطيء الصعود منزعجاً، ومع ذلك تضغط على الجرس.

آثـار المتشـاجرين ما زالت ظاهـرة: جرحـى في كل مـكان، إلا أن هؤلاء المتشـاجرين غـير الراضـين عن بعضهـم بعضاً يفرحـون لظهـورك في بيتهم. كل واحد يحاول أن ينفرد بك، ويبدأ بالشـكوى محبطاً، طارداً الآخرين من المكان، وغامراً الآخرين بأقذع الشتائم. أنت بالنسبة لكل واحد لقيا، سفينة نجـاة، انتظروهـا طويلاً لإفراغ مـا في دواخلهـم، وللحديث عن كل شـيء، ممـا اعتمل في النفـس، وبعد أن يقوم أفـراد العائلة بكل هـذا يتصالحون، ويتحولون إلى الاهتمام بك. أنت الإنسـان الـذي أدخل إلى منزلهم الهدوء حتى لو كان مؤقتاً. يقدمون لك أفضل سـرير لديهم، ويمشون على رؤوس أصابعهم، هامسـين بعضهم لبعض، لحفظ الهدوء من أجلك، وأنت تفكر: «لا، حسناً، إنه يوجد في الدنيا عائلات تعيسة أيضاً»

تغفو، وتنام بهدوء حتى الصباح.

تاتيانا نباتنيكوفا (*)

- قاعدة أرخميدس.

(*) ولدت سنة ١٩٤٨ في مقاطعة أكتي. تكتب القصة والرواية، وتترجم عن اللغة الألمانية. درست هندسة الكهرباء، وعملت في مصانع مدينة نوفوسيبيرسك، ثم أصبحت مديرة لدار نشر غرب سيبيريا. بدأت حياتها الأدبية سنة ١٩٨٠، ودرست في معهد غوركي للآداب. نالت جائزة بوليفوي، وفازت في جائزة أوستروفسكي الأدبية، وجائزة شولوخوف للأدب، وجائزة شوكشين للأدب.

من مؤلفاتها: مجموعات: قصص نوفوسيبيرسك، وتربية منزلية، عيد ميلاد قطة، وروايات: كل صياد، المدينة حيث أن...

قاعدة أرخميدس

يقول صديقي العبقري، أندريه :

لا يمكن، في مثل عمرنا ، ياعزيزتي(قالها موحداً عمرينا بتسام، رغم أنني أعقل منه بعشر سنوات) لا يمكن، تحمل التغيرات.

نحن صديقان قديمان، لدرجة أننا لحقنا أن نتخاصم، لكن في آخر عيد ميلاد له، فكرت، وأرسلت له برقية: «عزيزي أندريه، بعد اثني عشر عاماً من الصداقة والخصام، عليّ أن أعترف بأن رطل الملح، الذي أكلناه سوية، كان حلواً».

نحن نعمل في شركة واحدة، لكن في مدينتين مختلفتين. قليلاً ما نلتقي، لكنه يشعر بي حتى عبر الهاتف. ومن دون الهاتف.

هل حصل لك شيء؟ هل يوجد شيء سيئ؟ أنت متوترة.

وكان قد اتصل لغايات العمل.

أنا حقيقة كنت متعبة: ليس من الغثيان، بل بسبب عدم الرضى عن الواقع.

أندريه، لا وقت لدي، يوجد هنا شخص ينتظرني...

اتصلي عندما يتاح لك.

كان ينتظرني شخص- لقد ودعته في المطار.

أخيراً. تحملت الانتظار بصعوبة إلى آخر لحظة، حتى طار- لأبقى أنا وحيدة. لا يمكن، في مثل عمرنا ، تحمّل...

حتى نظـرة الحب- عندما تكون غير منبتة - تجمعنا بالنقاعيات تحت المجهر.

وهنـا توجد طبائـع! ما كـاد يدخـل الغرفة، حتــى أعلن: « يجب رمي هذه الورود المجففة فوراً! لا يمكنني احتمال الزهور المجففة!»

رميتهـا. تقف المزهرية ذات الزجـاج الأزرق الآن فارغة. يجرحني هذا النقص فيها.

ثـلاث وردات قاتمـات، جففتهـن في المزهريـة الزرقـاء- كـان المكان في الزاويـة قائمـاً بمجمله على وجود تلـك الطبيعة الصامتـة. كنت قد اعتدت عليها.

لماذا رميتها!

إن إلغـاء مـا اعتاد عليه الإنسـان يولد رد فعل، كمـا لـو أننا معلقون في منطقـة انعدام الوزن على مشـد، عنـد ذلك يكون ثباتنا- عبـارة عن توازن بسـيط مع الشـد. وإذا ما حاولت الزحزحـة، ولو قليلاً، لدخـل النظام كلّه في فوضى.

لقد جاء كي يستقر في حياتي، ليملأ بذاته جميع الشـروخ والتصدعات، إذا لم يكن في الوجود ففي الحياة على أقل تقدير.

أنــه الأكثر تهذيبـاً، الأجدر من بين جميــع من بعث بهم القــدر إليّ، كنّا نستحم معاً في المسبح، ونذهب معاً إلى السوق، و نحضـر غداءنا بأربع أيدٍ.

وخـلال تلك الفترة، إلى أن حان موعد سـفره، كان قد تغلغل عميقاً في شـؤوني الحياتية، لدرجة أن انطبقـت عليه قاعدة أرخميـدس، لذلك خرج من حياتي باندفاع، مثل سدادة قنينة.

وما أن أخذت الطائرة بالإقلاع حتى بدأت روحي تسترخي.

بعد ذلك أعدت ترتيب جميع الأشياء، وجلست وسطها مستمتعة بالوحدة.

كتبت له طبعا بأن الفراغ الذي تركته المزهرية الزرقاء ما زال يجرحني.

البريد الإلكتروني يدور بسرعة، في ذات المساء كتب معتذرا، وقال إنه كان يود ملأها بأزهار طبيعية.

لكنه كان مخطئاً، فلم أكن بحاجة إلى أزهاره الطبيعية، بل إلى ورودي المجففة.

أثناء الأعياد تلك، حين كنت أستضيف صديقاً، ذهب هو إلى البحر برفقة سيدة مناسبة بمتخلف المعايير. (إنني أبتعد بحذر شديد عن تعابير مثل: «المحبوبة»، «العشيقة»، «الصديقة»، - لأننا في مثل عمرنا، أنا وأندريه، عندما لا يوجد اعتبار للمرأة، فلن تصمد مثل هذه المفاهيم عند التدقيق بصحتها. فماذا يعني تعبير «شبه صديقة»).

اليوم الأول كل شيء كان رائعاً: مشاوير، عشاء، غرام في الفراش.

اليوم الثاني، كل شيء كان رائعاً أيضاً، باستثناء الغرام.

اليوم الثالث، أخذ التوتر الداخلي طابعا غير صحي- أصبح ذلك واضحاً بسبب رفض أندريه الجنس، بدعوى الحفاظ على طاقته الضرورية للمفاوضات الهامة المقبلة.

اليوم الرابع، ذهبا للعشاء، أكلا سمك النقط النهري، مع الخضار وبوريه(مهروس) البطاطا الناعم. كان الطعام في المطعم طازجاً جداً، لكنّ الشيء الوحيد الذي يمكن أن يكون السبب فيما حدث لاحقاً هو، الصدمة الزلالية، حسب تعبير أندريه.

المهـم- أن لا تخطـيء بالتسـمية. التسـمية تفسـر الكثـير (إذا كانت دقيقة) أو تخفي الكثير (إذا كانت موفقة).

عندما عادا إلى غرفة الفندق، جاءه الغثيان.

وقـد تحاشـى وصف تلـك الحالـة- الغثيـان. حتى إنـه لم يسـتخدم تلك الكلمة المفصلية.

ظلّ يقذف ما في أحشـائه حتى الصباح. أفرغ الطعام، ثم الشـراب، ثم المادة الصفراء، حتى جاء دور الدم.

وقد طرد تلك المرأة المحترمة من السـرير، حتى لا تكون روحها إلى جانبه، هو التعس، المريض، المسـتفرغ، القائم رأسـاً على عقب. نامت على الأرض مثل رغيف خبز، ملفوفة بحرام صوفي، واضعة تحت رأسها سلة ورق المهملات.

في الصباح سـافرت بالقطار، أوصلها إلى المحطـة. وكانت كلما ازدادت المسـافة بينهما تتحسـن حالتها. وما أن حلّ المساء، حتى كان مستعداً للذهاب في مشوار لرؤية ضواحي المدينة على قدميه الضعيفتين، ليعود معافىً.

كلّ شـيء عاد إلى موضعه الأصلي.

عندما كنّا شباباً كنّا أكثر حدة وأكثر حساسـية.

لدينـا، أنا وأندريه، صديق نحبه. لقد استسـلم قبلنـا بكثير. توقف عن الصـراع مع الغثيان. استبعد من حياته كل ما يستدعيه.

أوصلـت ضـيفي إلى المطار وودعته حتـى الطائرة، وما أن خرجت من مبنـى المطـار، حتى بـادرت بالاتصال. شـيء فعلته هو أني اتصلت مـن الهاتف الجوّال برقمي العزيز، الذي ألجأ إليه أقل مما أحتاج فقط في الحالات الضـرورية جداً.

إنني بحاجة جداً إلى رؤيتك.

تراجع من فرط المفاجأة

لا بأس، تعالي.

سأكون عندك خلال أربعين دقيقة.

قدت سيارتي وكلّي خوف من أن يغيّر رأيه ولا يفتح الباب. سبق أن حدث مثل هذا الموقف: يوافق على الموعد، لكن عندما تصلين- لا تجدينه.

لا بأس، فتح الباب. لكنه، على أي حال، كان غاضباً، وعيناه تلمعان غيضاً. جلست عند طرف طاولته العريضة.

كان يجلس أمام النافذة. رأيت جانب وجهه، ذي القسمات غير الجميلة، لكن المحبوبة دوماً. نور الغسق كان يتخلل عدسات عينيه وقد بدت وكأنها دموع شفّافة.

بدأ الحديث ينمو قليلاً.. قليلاً، حديث بيننا. كان يهمني سماع صوته. تكلّم عن أحد الموسيقيين المدهشين. قال أشياء مجنونة تماماً. كان حديثه واحة منعشة حلت على صحراء سمعي القاحلة. كنت أنصت باهتمام، مرتشفة كل قطرة ندى. فأنا ما زلت زوجته - هكذا يمكن البقاء زوجة لشخص ضائعٍ إلى ما لا نهاية. ضائع من دون خبر، من دون صدى، من دون استجابة..

كان يجلس على بعد مترين مني، لم يكن بالإمكان الوصول إليه مثل إختياندر(*)، الذي فقد إمكانية التنفس وظل عائما إلى الأبد في المحيط.

بعد نصف ساعة، نهضت. طلب أن أجلس قائلاً:

اجلسي.

(*) لرجل السمكة: شخصية متخيله ابتكرها الكاتب ألكساندر بليايوف، عن الإنسان الذي يمتلك القدرة على التحرك الحر تحت الماء.

دهشت: إنه يرجوني.

لكني كنت أدرك شيئاً واحداً، هو أنني دهشت لا أكثر.

عليّ أن أذهب.

لم تبدأ لديه نوبة الغثيان بعد. يحدث ذلك عادة معه فجأة. لا يجوز أن أدع ذلك يحدث بسببي، فإنه لن يستقبلني في المستقبل. عندها ستكون نهايتي.

ما أن ابتعدت، مغلقة بابه خلفي، حتى بدأ يشعر بالراحة شيئاً فشيئاً. لقد شعرت بذلك من خلال بقايا العلاقة الحيّة التي تتوثق بين روحين بعيدين عن بعضهما، العلاقة التي لا تحمل تفسيراً واضحاً وتسمى- الحب.

فلاديمر تين(*)

- وسط حلم غريب.

(*) كاتب ومؤلف أغانٍ، ومغنٍ وصحفي روسي، ولد سنة ١٩٥٧ في جنوب كازاخستان. أنهى دراسة الصحافة في جامعة طشقند في أوزبيكستان سنة ١٩٨٠. عمل في عدد من الصحف في أوزبيكستان. انتقل إلى موسكو منذ سنة ٢٠٠٣. من مؤلفاته: قصص: العزل، وصورة شخصية غير مكتملة، وديوان شعر: بالصدفة، وعدد من القصص القصيرة.

وسط حلم غريب

تعتبر سمكة القرش إحدى مخلوقات الطبيعة الأكثر اكتمالاً. أُعِدّ جسمها للسرعة وحدها. وإذا ما نظرنا إليها من وجهة نظر ديناميكا مخلوقات الماء أو الهواء، فإن أوعيتها الدموية مكتملة لدرجة أنه لا يمكن إضافة، أو إزالة شيء. وعندما تراها تمخر الماء، وترى اندفاعها الطموح، فإن النفس يتملكها شعور بالإعجاب والمتعة التي يمر بها كل واحد أمام جمالها وقوتها. جسد القرش كله يتبع تلك السرعة. إنها مضطرة طول الوقت، وطول حياتها أن تكون في حالة حركة، لأنها تفتقد إلى الحوصلة الهوائية التي يمكنها أن تبقيها طافية في الماء، لذا هي مضطرة إلى الحركة حتى في حالة النوم، يستحق الأمر أن ننظر في عينيها.

إذا ما دخلت سمكة القرش في عراك، وإذا ما انفتق بطنها فإنها تتبع غريزتها البدائية الوحشية، فتروح تزدرد أحشاءها التي تخرج من الجرح. تلتقط أحشاءها وتزدردها، وهي تسبح في غيمة من دمها. وما أن تحس بطعم الدم حتى تتحول إلى شيطان، وستأخذ بالإمساك بكل شيء وازدراده. الأشياء المبلوعة تخرج مجددا من فتق البطن، وتعود السمكة لتبتلعه من جديد، ولا يتوقف هذا المشهد المرعب، على ما يبدو، إلا عندما تتمكن بأسنانها من عض قلبها، الذي يتأرجح بحبل الأورطة الواهن، وتنزل إلى القاع ببطء عاضة على بعض فتات القلب. أما عيناها فتصبحان وحشيتين بلا أي تعبير، أما تعابيرها التي كانتها قبل موتها فلا تتغير. ولا ينصح في هذه الحالة بالنظر إلى عينيها.

قالت خوزيايوشكا بعد أن قرأت الكلام المكتوب:

يا إلهي! أي شيء مرعب!

جلست بهدوء في كرسيها قبالتي وسوّت نفسها، ولم ترفع نظراتها عني طول فترة عملي. هذا بشكل عام يستثيرني، عندما أكون أعمل، وتكون نظرات معينة مركزة عليّ، فإن الوضع يصبح غير محتمل بالنسبة إليّ. لكن الأمر الغريب أن نظرات خوزيايوشكا لم تستفزني، ولم تعقني بأي حال من الأحوال. عندما ملّت، أخيراً من عدم اكتراثي المطبق لتواجدها، اقتربت منّي، ووقفت خلف ظهري، واستندت إلى كتفي وراحت تقرأ. وعندما أكملت قراءتها، قالت هذه الكلمات:

يا إلهي، ما هذه الفظاعة!

وأضافت

أي موضوع هذا الذي اخترته؟

ثم أردفت وهي تلمس أذني بأصابعها الطرية:

اكتب عن البشر، ذاك أفضل. ولا تنزل إلى الأعماق الباردة بحركة لولبية.

وماذا في ذلك. ليكن الحديث عن الناس. رغم أنه ليس من السهل التحول من القرش إلى الإنسان.

وهكذا، طائرة تطير. المراوح الضخمة تشق الهواء. الجسم الضخم اللامع، وإله السرعة. ما أجمل الجسم الطائر المنساب في الهواء! الطائرة بلا معنى من غير طيران في الهواء. إنها تتحرك. إنها تطير بهمة نحو صفحة الأرض القريبة. يا لها من أيدٍ بشرية مبدعة! على متنها فتية بأسنان بيضاء، وجوه سمر، وعضلات مفتولة، مرحون، يائسون. على متن الطائرة قنبلة. القنبلة تسقط نحو الأرض، نحو فوضى بعيدة من البنايات السكنية، والطرقات، والجسور. ها هي الفوضى تزال عن وجه الأرض الجميل. يعتلي الأرض فطر نووي هائل من كل الجوانب. التماثل- إنه «الهارموني»- التناسق. لقد حلت «الهارموني» مكان الفوضى. ماذا بعد، الشكر للفتية المقدامين ذوي الأسنان البيضاء.

نفّذوا عملهم، وعـادت الطائرة بهمة إلى قاعدتها. طريق السـلامة أيها الفتية ذوي الأسنان البيضاء.

أمـا نحن فنـروح ننظر إلى الوضـع الهارموني الجديد لهيروشـيما المحترقة القابعة في الأسفل

ألم يتملكك اليأس، وأنت ترى هذه المشاهد في التلفزيون؟ ألم تتمتم: «يا إلهي! أي فظاعة تلك! » غير قادر على إبعاد نظرك عن تلك المشاهد الوحشية الأكيدة.

وهكذا، تظهر الرأس من خلال طبقة التراب والرماد وقطع الطوب المحطمة، كما البيروسكوب في الطوربيد، ومن دون مساعدة الأيدي.

ها هي جمجمة من الجص تتأرجح على الرأس، وها هو الوجه. وجه وحسب، لا جسـد، ولا رأس. كل شـيء آخر كنسـه الانفجار. أما الوجه فسقطت على الأرض دون أن تُمـس. قنـا ع مهـرج. وهذه فقاعة بسـبب الحـرق عمرها خمس سـنوات. ليس ولـداً، ليس بنتاً، بل حرق عمره خمس سـنوات. قليـل من العرق الزاحـف على العظام الدقيقة المجردة من أي شـيء، مليئـاً بالدماء والفقاعات. إنــه مـا زال حياً. لكنه لا يصيح من الألم. لا شـيء يدعو إلى الصراخ. لكنه يزحف باتجاه ما. لم يعد بحاجة إلى مساعدة. مساعدة!

هـذا هو المستشـفى العسـكري الأرضـي. الطبيـب النحيـل ذو النظارة يعالج أجسـاد الأطفال. لا يسـتطيع أن يفعل شـيئا كثيراً. لا أحد يسـتطيع عمل الكثير. الروح تُرتق. أجسـاد الأطفال الناحلة المرتعشـة امتلأت بالجراح الفظيعة التي لا تلتئم. لكن هذا يمكن احتماله من دون تأوه، من دون عويـل، فاقدين العقل، الفظاعة والشـفقة. ـ هل ستسـاعدوهم يا ترى! يسـتحق الأمر أن تنظروا في عيونهم...

هل يمكن أن يكون هناك شيء مخيف أكثر من تلك العيون؟ خوف فيه قنوط واستكانة. كما هو في عيون الأطفال في رافينسبيرغ وسالاسبيلس. لم يعد بالإمكان مساعدة تلك العيون. يمكن علاج الجسد المشطور إلى نصفين بالخطيئة. هاتيك العيون ستبقى هكذا، متوحشة لا معنى لها.

الأجساد الطفلة المرتعشة، عيون الأطفال المتجمدة. أرواح الأطفال الميتة.

أول جمعية بدائية في اليابان- ساموراي وخاراكيري. يا إلهي! مرة أخرى بطن مسطوح وأمعاء مندلقة.

خوزيايوشكا حزينة، تنهدت، قالت بعد أن قرأت السطر الأخير:

عزيزي، أنت مرة أخرى خلف أشيائك. لا تفكّر بهذا، أرجوك.

... بلد صغير، هش ذو عيون واسعة. خضرة الأدغال القاتمة. عبير الأوركيديا الدافئ الذي يجعل الرأس تدور. ومن طرف إلى آخر هناك أكواخ سعف النخيل النظيفة. الناس السمر الصغار، بعيونهم السود الصغيرة الرطبة. فقط سبعة ملايين. كانوا. بقي نصفهم. وضمن ذلك النصف كان يعيش من قتل النصف الآخر. وكانوا يقتلون الرجال، والفتيان وحتى الشيوخ هكذا: يجلسونهم على ركبهم، ويضربونهم من الخلف على مؤخرة رؤوسهم بواسطة مطرقة ثقيلة من خشب البلوط، وهكذا من دون نهاية. وعندما يسري التعب الممتع في العضلات، كانوا ينظمون من لم يقتل في صفوف، ويضغطون بالأصابع المجهدة على الزناد. الرشاشات الحديثة جيدة. يمكنها شطر الإنسان إلى نصفين بواسطة شرشور رصاص واحد.

أما الأطفال فكانوا يقتلونهم هكذا: كانوا يبقرون بطون النساء والحوامل، ويستخرجون الطفل من الدم. الجنين الذي لم يولد بعد، يقطعون رأسه. بعد ذلك تلظم الجماجم الطفلة بواسطة خيط وتنشر لتجف. أغلى

قلائد في العالم.

ماذا بشأن النساء؟ نعم، كن يزحفن خلف أطفالهن، وأحشاءهن تزحف خلفهن ماسحات الغبار عن الأرض.

قالت خوزيايوشكا بهدوء:

اجلس أيها المريض النفسي. نعم أنت مجنون. لماذا تكتب كل هذه الأشياء؟

كانت ترتعش وتنظر إليّ مرعوبة. طلبت منها:

خوزيايوشكا، أعطني فودكا.

لماذا كتبت ذلك؟

لأنني.. أكره سمك القرش لأنه قادر على أن يزدرد أحشاءه، وقلبه.

وهنا دخلت في هستيريا

لأن الإنسان أيضا يشبه سمك القرش، يبقر بطنه، ويزدرد، يزدرد أحشاءه! إنه مرة تلو الأخرى ينشب أنيابه بقلبه الخاص ويمزقه إلى مزق. إلى متى يمكن أن يستمر هذا؟ إلى متى سنظل نتغذى على أمعائنا وأرواحنا.

هنا بكى طفلنا، طفلي. ارتعش جسده النحيل، وطوّف نظراته في المكان بلا هدف، ونشج بمرارة وصمت خائفاً من صراخي. اندفعت خوزيايوشكا نحوه، أخذته من سريره بحنان باكية، ثم نقلته إلى غرفة أخرى. لكنها ثابت إلى رشدها سريعاً، تأسفت لي ثم عادت وقدمت لي ابني. أما هو فلم يبك، لكنه بقي يرتعش ناظراً إليّ من طرف عينيه السوداوين المستديرتين. نظرات متوحشة لا هدف منها، غمرت وجهي به، ورحت أقبّله باكياً متمتماً بعبارات اعتذار لا تمت للعقل بصلة.

لقد أخفتك أيها الصغير. سامحني! أنت قلبي. الأنياب الوحشية ستتجاوزك.

ضحك وراح يناغي بمرح، ومن توّه انتقل إلى حالة أخرى. إلا أنه تدغدغ من أنفاسي الحارة وأنا أهمس له، فزعق قليلاً، شاداً شعري. بعد ذلك غفا سريعاً بعد أن شبع ضحكاً ولعباً. نام بهدوء، مبتسما بسعادة لشيء ما في الحلم.

أما خوزيايوشكا فظلت تهمس لي سخافات مضحكة لطيفة حتى الصباح، وأحيانا كانت تمرّر أصبعها الدافئة على وجهي بحذر.

قد تكون أنقذتني من الجنون. قد تكون.

لكن سمك القرش سيظل يزدرد أحشاءه، يلتقطها ويزدردها.

إنها الغريزة كما ترون.

سيرجي كالوجين(*)

- السر الحربي.
- القصة الحقيقية للطفل كوني.

(*) شاعر وكاتب وموسيقي روسي، ولد سنة ١٩٦٧، درس الموسيقى، وعُدّ الفنان الأفضل في روسيا سنة ١٩٩٤. قائد فرقة موسيقية.

السر الحربي

وجد سيرجي كالوجين نفسه يوما في مؤسسة حراسة؛ وبعد سلسلة من حركات الشقلبة على مؤخرته، كشف حارس لسيرجي قصة حياته المدهشة. ألهم الله الكاتب فسجلها في ذاكرته خدمة للأجيال القادمة.

السر الحربي

(قصة حقيقية)

لقد خدمت، في فترة ما، في إدارة الاستطلاع، والآن أخدم في إدارة الاستطلاع الاتحادية، ولكن ماذا في ذلك الوقت؟... ماذا كنّا نعرف، في ذلك الوقت؟... كنت في هذه.. كيف يسمونها... لكن، بشكل عام، ليس في وحدة الاستطلاع. كانت وحدة الاستطلاع لديهم مفصولة. كل شيء كان هناك صارماً، في الحقيقة... لا، كانت هناك صرامة لدرجة أن.. كانت الأمور صارمة جداً، أمّا لدينا... الأمور ليست كذلك... هناك كان كل شيء صارماً... نعم، لكن أي مهام كانت لدينا... شاركت في الخدمة المدنية، وشاركت حقيقة في الحرب الأهلية. كان لدي بزّة. لا، ليس تماماً.. بزّة. لكن ببساطة، ليس بزّة. لكن لا أعرف بالتحديد، لكن ببساطة.. بزّة. ارتديتها، مشيت بها. كيف كانت الأمور لدينا ـ تمشي، ترى ـ امش. لكن إذا ما وقعت بـ.. ـ يا لحظك التعس! يمكنك أن تمشي بالقدر الذي يحلو لك، مشيت طول الوقت، شاركت في الخدمة المدنية، وإذا ما وقعت بـ.. ، يا لحظك التعس! لا، لم يكن لدينا وحدة استطلاع، هي لديهم منفصلة، الأمور لديهم صارمة. إنها صارمة لدرجة... إنها صارمة حقيقة.. إنما لدينا ليست كذلك.. لكن أيضاً... كانوا يكلفونا بمهام، تراقب شيئاً ما. على سبيل المثال ـ لديهم أيضاً نار أبدية. عليك مراقبة أوقات استبدال حراسها... لكنها، بالطبع،

تحمل لديهم اسماً آخر... ليس النار الأبدية... لكنها أيضا.. تشتعل... والاسم آخر، بطريقتهم، بلغتهم. بالألمانية، كيف تسمى.. لا أتذكر الآن... كنت أعرفها في ذلك الزمان... والحراس يقفون مثل شجر الدلب. وهنا أتلقى المهمة. على معرفة وقت التبديل... لكن هذا.. هذا الخفر بشكل عام. لا، لم أكن أعرف اللغة. لماذا؟ هكذا ببساطة، لم تكن اللغة ضرورية هناك. بمعنى أنني كنت أعرف بعض الشيء، لكن ليس لدرجة.. ماذا كنت أعرف.. (خالت) فيرديرشيكسين! ماذا علّمونا أيضاً؟ لكن اللّغة... لماذا، هناك، كل شيء مكتوب في المحلات باللغة الألمانية، وبالإنجليزية، وبالروسية. في الحقيقة لدى الجميع.... أقصد أنت تحتاج، لنقل، حذاءً.. هناك الأشياء ليست تماماً كما في الروسية، أي قاموس هناك، الحروف تماما بلغتهم، وليس كما في القواميس، لكن تماما بالروسية. إيخت.. نيخت، وهكذا دواليك. يعني أنت تدخل، تنظر، هنا.. هناك، وتقول للبائعة: فراو.. كفى إخت.. نخت. وهي: «آه، فريشتين، بيتّي» وتقدم لك القياس الضروري. أنت تقيس، وتشتري.

قلت: ماذا تريد؟ اذهب، ألا ترى أني أتحدث مع إنسان. اذهب! اسمع. اسمع، هل كسروا لك أنفك؟ لا، قل إنهم كسروا أنفك؟ أستطيع كسر الحياة. كفى. اذهب، لكن...

لكن كان هناك ذاك، ما اسمه شينالديه؟.. المتحف.. إنه ليس متحفاً بمعنى الكلمة، إنه مجرد بيت يقف هناك. في ذاك البيت وُقّعت، ما اسمها، لا أعرف، كيف أقول... وثيقة... وثيقة عن استسلام كامل... بشكل عام، وقعوها هناك. المتحف هناك. يسمى شينالديه. هناك عند المدخل تقف دبابة، إنها أول دبابة دخلت برلين. كتب عليها كل شيء... تجد عبارة «من أجل الوطن، من أجل ستالين». كل شيء كتب عليها. تقف دبابة ت ٣٤، ومكتوب عليها كل شيء.

أدّى الخدمة معي شاب... صحيح الجسم.. مقاس قدمه تسعة وأربعون... بسيط... إنه من الضواحي... لكن القد... اللعنة.. مقاس ٤٩. تخيّل... لكن.

نحن نقوم بحراسة هذا، ما اسمه.. الشـينالديه. المتحف. مـن أجل ماذا... هناك كانت قد وُقّعت الوثيقة عن استسـلام... وأمامـه تقف الدبابة. إنها أول دبابة، الـتي... كتب عليها كل شـيء. يقـال، دخلت.. كتب عليها كل شـيء. أحرف كبيرة «من أجل الوطن» كل شـيء مكتوب هناك.

أمـا في الجهة المقابلة. وحدة الاسـتطلاع، حيث الصـرامـة. تماماً في الجهة المقابلـة، بيـت كبير. هنـاك القنصلية السـوفياتية. وفيها وحدة اسـتطلاع. الأمـور لديهم ليسـت كما هي عندنا. كل شـيء صارم هناك، كل شـيء صارم...

ومعـي شـاب.. مقاس قدمه ٤٩.. يـا للهول! إنه صحيح الجسـم، مثل.. نحن نقف، نؤدّي الخدمة في جهاز مدني، ندخن، نحرس من أجل...

وهنـا، اللعنة، هـؤلاء.. يَصِلون.. ما اسمهم.. الاسـكوتلانديون. بهذه الـ.. بتنانيرهـم. بتلـك التنانير. وبمجـرد وصولهم يقفزون مباشـرة علـى الدبابة. يمرحـون، يثيرون ضجيجاً، يضحكون. هناك تقـف دبابة ت ٣٤. دبابتنا، أول دبابـة دخلت... كتب عليهـا... أحرف... إنهـا على الدبابـة. وبطريقتهم طاخ طـاخ طاخ. مـاذا كنا نعرف في ذلك الوقت؟ هذا الآن.. أمـا حينها.. ما هو؟ نعم، كان ذاك العـام ٨٢. كنا فتيـة... قالوا لنا، نحن، وقعنـا أيضا «القضاء على الأعمـال الإرهابيـة». أما وحدة الاسـتطلاع فقـد كانت في الجهـة المقابلة... كل شـيء هناك صارم... وهؤلاء على الدبابة مباشـرة.. بالتنانير.. يلتقطون صورا... ومعي شـاب.. قياس قدمه ٤٩.. أنا أقول: «ما العمل؟»، يقـول: «لا أعرف». نحـن لا نعـرف اللغة، ولم نكـن نرتدي زياً عسـكرياً. أقترب منـه، أقول: «لا يفهمـون»... أما هو فقد كان شـاباً بسـيطاً.. قياس حذائـه ٤٩... أنظرُ.. أجدُه يقفز مرة واحدة إلى الدبابة، مباشـرة إليهم.. لم يتفوه بكلمة سيئة.. يتسلق الدبابة... صحيح الجسـم... يأخذ من ذاك الشاب صاحب التنورة آلة التصوير و.. يكسـرها إلى نصفين... خفت.. كان فتى.. فتى صحيح الجسـم.. اسـتخرج الفيلـم، وعرّضـه للضوء... خرّبـه كله، وأعـاد الكاميرا للشـاب.. كان قد

كسرها نصفين... إنه قوي البنية... قياس قدمه ٤٩. كانوا... قفز عن الدبابة، ركض.. لم ألحق أن أعطش حتى رأيت السيارات تحضر، وراحوا يقيدون مجموعة الشباب بالتنانير... أنا أقف... أما هم فقد تمكنوا من تقييدهم سريعا... قيّدوا الجميع، ونقلوهم... هذه هي القصة.. نحن ماذا كنا نعرف في ذلك الوقت.. كنا فتية.. قدمنا توقيعا: القضاء على محاولة إرهابية.

القصة الحقيقية للطفل كوني

طرقت فكرة، مرة، رأس الطفل كوني ومؤخرة الديك المحمّر في نفس الوقت. راح الطفل، يفصل الكنيسة عن أنابيبها. لم تكن الكنيسة ترغب بذلك. أبرزت أقداماً مشعرة، وأنشبت أظافرها بأماكن أجهزة التدليك. ورداً على محاولات الاندساس ما بين أنابيبها وبطن ديكها المحمّر، الذي حاول الطفل استخدامه كرافعة، أجابت الكنيسة بصرير حاد، وحاولت بدون انقطاع تحويل معزوفة «غفرانك يا رب» بصوت بون سكوت إلى عمل من أعمال الجاز. وما أن سمع قطاع محدود من المتعصبين لمعبود الجماهير من جماعة «AS/DC»، حتى هرعوا من أصقاع الأرض، أقاموا.... صغيراً، ثم اختفوا مجدداً في أصقاع الأرض رافعين شعارات ماويّة. على طرف الأرض استقر القطاع المحدود من المتعصبين، معلقاً أقدامه في المدى غير المحدود، وراح يرمي الحصى على السلحفاة، التي استقرت الكرة الأرضية على ظهرها، إحدى الحصيات أصابت عين السلحفاة. فقدت السلحفاة عقلها، وراحت تقذف أقذع الشتائم في كلّ الاتجاهات. كانت مدينة المكسيك قد دمّرت. قرّروا أن يتوسلوا إلى السلحفاة كي لا تغضب مجدداً، مرسلين إليها وفداً من المكسيكيّين المتضررين من الزلزال من أصحاب القبعات ذات القطر ٢٨.٢ م. وضع المكسيكيّون القطاع المحدود في واحدة من القبعات، دوّروه، ثم قذفوه إلى المدى البعيد. دارت القبعة بسرعة مع القطاع في مدار بيضوي حول الأرض، مولدة، في المستقبل، انفجاراً جديداً من القصص حول الصحون الطائرة. شهود عيان كانوا، حقيقة، مندهشين للغاية من حقيقة، أنه صدر من الصحن الطائر صفير وزعيق شباب: «بيك إن بليك». غير قليل من العلماء أصيبوا بالصلع قبل الأوان، وتحولوا إلى نباتيين مجهدين أنفسهم بالتفكير بهذه القضية.

وفي هذا الوقت توجه الطفل كوني، بعد أن تعب من المحاولات غير المثمرة لفصل الكنيسة، إلى أجمة أشواك تخص البعير، من أجل رفع المستوى الثقافي للشوك. اندست الكنيسة أكثر في الأبواق بعد أن دمدمت متذمرة، بَنَتْ عشاً، حملت إليه بيضة ورقدت عليها. فقست البيضة عن السحلية بونتي شوريغين. ومن دواعي المصيبة مرّ من أمام هذا المكان الجد جوزيف. أمسك السحلية، ووضعها بجيبه، وابتعد نافثاً رائحة نتنة بواسطة البوق. من غير المعروف، ماذا فعل مع المسكين بونتي، لكن السحلية عادت ستالينية متعصبة.

انتشرت عملية رفع المستوى الثقافي بشكل واسع، على طريقة ستيخانوف(*). وهنا وجدت الحرب على الكحول طريقاً لها. حتى إن أنشط شوكة معادية للكحول- شوكة ستيخانوف- كانت قد وُقّعت أسفل إعلان لمُعادي «الأفعوان الأخضر» صارخة: «لقد رأيته في مكان ما.. » الأفعوان فحّ بخبث وابتعد زاحفاً، لكنه وعد بالعودة.

«غير صحيح! »

صرخت الشوكة الستيخانوفية فوراً: واختفت لتفرغ التايتنك. انبثق من تحت الرمل الكسي روجونوف، الذي يبدأ اسمه بحرف صغير(إنه نسخة طبق الأصل عن روجونوف ذي الحرف الكبير، لكن بقياس أصغر وأغبى بشكل ملحوظ)، وذهب إلى مكان ما. الجرذ كالوجين، المغطى جسمه بشعر ليفي خشن، انطلق إلى مهامه. حمل كالوجين أدبيات مسالمة. كانوا ينتظرونه على ورقة الأس. الطفل كوني كان يؤدي مهامه بشكل جيد. ارتفع المستوى الثقافي. خطت الحياة في اتجاهات جديدة.

الإملاء وعلامات الترقيم من قبل الكاتب س. كالوجين.

(*) أحد عمال المناجم المتميّزين في العهد السوفياتي، وقد قدّم كنموذج للعامل المثالي، وسميت الحركة باسمه.

لوبوف رامانتشوك (*)

- كبسولة الحب .
- حكاية متسلق الجبال الأسود .

(*) ولدت في مدينة دنيبروبيتروفسك. تخرجت في معهد غوركي للآداب في موسكو سنة ١٩٩٤، وهي عضو اتحاد الكتاب الروس، حاصلة على شهادة الدكتوراة في اللغة، وحازت على العديد من الجوائز في المسابقات الأدبية.

كبسولة الحب

عـاش في قديـم الزمان سـلطان. وكـانت لـه ابنة لم تسـتطع أن تحبّ بأي شـكل من الأشـكال. مرت السـنين، وأعلن السـلطان مسـابقة سـنوية لمن يسـتطيع أن يحضى بقلب الحسـناء المعتدة بنفسها. في حالة ما إذا وقع الوزير في الحب بنفسـه، ولم يجد اسـتجابة، فإن ثمن الرهان كان الحياة ذاتها. أما إذا كان الاثنـان باردين، ولم تتمكن الأميرة من إشـعال الحـب لدى الوزير، فإنها ملزمة بأن تقضـي ليلة معه. لذلك كانت المهمة لدى الاثنين متشابهة: أن يبقى أحدهم باردا، وأن يشـعل الحب لدى الآخر. تدفـق المعجبون، لكن لم يتمكن أحـد منهـم أن يحضى بحب المرأة بعيـدة المنال. وكانوا يبقون لهـا قلوبهم التي كانـت تحتفظ بها في إناء زجاجي خاص، محفوظ في شـق عميق في الجليد، أما الأجسـاد، فكانت تلقى في بئر بـلا قاع، ولا أحد يعرف ماذا يحدث لها بعد ذلـك. وفي النهايـة لاحظت الحسـناء بأن شـبابها بدأ يخبو بسـبب أنها لم تلتق بعـد بمن يمكن أن تحبـه. وبدأت تظهر الغضون عند زوايـا عينيها، والحمرة تخبـو في خديهـا، عندها أمر السـلطان بأن تسـتدعى العرافة الـتي تتجول عبر البـلاد حتى تقرأ طالع ابنته. كانت العرافة عجوزاً سـوداء. لقد تنبأت لها بأنها ستحب بعد خمسـين عاماً أحد الموسـيقيين الشباب عابري السبيل، الذي سوف يدعى مع آخرين لإمتاع سمع ابنة السـلطان بمناسـبة الاحتفال بعيد ميلادها السـبعين. قالت العرافة، سـيكون عيد ميلاد عظيماً، سوف يُوضع على رأس السـلطانة تاج ملكي يغشـي الأبصار، وعلى الوجه سـوف يُوضع قناع فتاة شـابة مصنوع من مثانـة عجل. لن يكون الموسـيقي متميزا بشـيء، عيناه بلون كهرماني، وشـعره أشـهب رمادي، لكن ابنة السـلطان ستُفقدُه عقله. قالت العرافة مغلقة عينيها: «سـوف ترغبين بإبقائه لديك، وستعرضـين عليه

منصباً جيداً، وسوف يبقى، لكنك سوف تخجلين من الظهور أمامه بشكلك الحقيقي، لذلك ستتبادلين الحديث معه فقط عبر ستارة. أخرجت العرافة من كيسها قطعة حرير، وقدمتها لابنة السلطان، وقالت: هذه هي، خذيها.

أطلقوا العرافة، أما قطعة الحرير فقد أحرقتها الابنة.

عندها أمر السلطان أفضل العقول لديه في القصر من أجل اختراع وسيلة يمكن أن توقف الزمن بالنسبة لابنته للمدة اللازمة. حتى تتمكن من أن تنتظر وتتذوق حلاوة السعادة مع الشخص الذي تنبؤوا لها به. فكر العلماء طويلاً، وأخيراً تمكنوا بمساعدة حسابات معقدة من صناعة كبسولة، تكون فيها خاصية الحيّز المكاني معتمدة على الزمن، بمعنى أنه لا تحدث فيها أي تغيّرات. وضعوا الحسناء الجميلة في تلك الكبسولة، واخفوا الكبسولة في برج عال. وبما أنه لم يكن هناك زمن داخل الكبسولة، لم تكن هناك حاجة إلى العناية لا بالطعام ولا بالشراب، الانتظار هناك يصبح لحظة حتى لو بقيت ألف سنة. بقيت مشكلة واحدة الحراسة. كان لا بد من التفكير بوسيلة تبقي الكبسولة بأمان حتى بعد موت السلطان، وأن لا تفتح إلا بعد أن يظهر موسيقي النبوءة في القصر، والحرس يجب أن يكونوا أناساً لا يستسلمون لأي إغراءات، وقادرين على التواجد طول الوقت إلى جانب الكبسولة. هكذا فقط يمكن تحقيق الأمان الكامل للمهمة.

فكر السلطان كثيراً، كان يغير موضع الكبسولة من مكان إلى آخر. فكل مكان كان يبدو له غير آمن. كان لديه أعداء كثر وثلة من الورثة. ولم يكن لديه غير هذه الابنة. وحتى يضلل الحاشية، أمر بتحضير عدد من الكبسولات الشبيهات ووزعها في أنحاء البلاد. أما الكبسولة الحقيقية فقد نقلها في النهاية إلى صحراء لا ماء فيها، وأخفاها بين الحجارة والرمال. لاحظ حكماء السلطان عند نقل الكبسولة بأن الزمن إلى جانبها يتغير، لقد كان ينساب ببطء كبير. بمعنى أن الناس الذين يعيشون إلى جانبها كان بإمكانهم أن يحيوا لزمن طويل، يكون بلا نهاية، لكن

في غيـاب كل أنواع الغرائز. عندها تذكر السـلطان المعجبـين الذين فقدوا قلوبهم. وبشكل أدق، فكر بنموذج الرجل الذي طلبته ابنته ذاتها. أمر بجمع فصـيل من المحاربين الشباب الأقوياء، وإرسالهم إلى الصحراء واستئصال قلوبهم. لقد ماتوا من أجل السلام، لكنهم استمروا في الوجود إلى جانب الكبسولة، إذ أن عملية موتهم امتدت لقرون.

لم يكـن أحـد يعلم عن مـكان الكبسـولة الحقيقة، مات السـلطان، ومـات أبنـاؤه، وأحفاده، وأحفاد أحفاده، حاول كثير مـن المغامرين لأكثر من مرة إيجاد الكبسـولة الحقيقية، سـافروا في رحلات فيها مخاطرة، لكن في كل مـرة كان الأثر يقودهم إلى الكبسـولة الشـبيهة التاليـة، حيث كان يقابلهم الموت. كبسـولة الحياة الأبدية بقيت بعيـدة المنال يحميها محاربون فاقـدو القلـوب ميتون أبـداً. وداخلهـا كانت تختفي حسـناء جميلـة، تنتظر إيقاظها من أجل حب أبدي غامر. ومن الممكن أن من كان داخل الكبسـولة ليس حسـناء على أي حال. مـن الممكن أنها تحولت منذ أمد طويل إلى مسـخ، لا أحـد يعـرف. المحاربـون ظلّوا يحمونهـا كالمعتاد، ولم يتمكنـوا من الموت. وقد يكون بالطبع السـلطان ذاته أخطأ الكبسـولة، وأنهم كانوا يحرسون الفراغ.

حكاية متسلق الجبال الأسود

متسلق الجبال الأسود- حكاية ليست للأطفال. إنه يبدو للبعض ضحية المصادفة التعسة، إذ أنه بعد موته بقي على الأرض يحذّر الناس من الخطر والموت، وينقذ بقدر ما يستطيع المتسلقين التائهين. يؤكد آخرون، أنه أخ للشيطان، هدفه إغواء الآخرين وجرهم إلى الأماكن المهلكة، والهاويات، والصخور الوعرة. وجماعة ثالثة يفترضون أنه ذو انتقام، جمع فريقاً من الموتى ليثيروا عواصف في القمم. أما رؤيته، بشكل أو بآخر على الجبال، فكانت تعتبر علامة سيئة. ظهور الشبح الأسود كان يعني وضعاً صعباً، وأحياناً، يمكن القول وضعاً غير آمن للفريق، فالمتسلق الأسود كان يظهر فقط في الحالات الاستثنائية بشيراً ونذيراً، أو قل رسولاً طيباً أو شريراً، لكنه رسول. كان ينتظر من يشاهد متسلق الجبال الأسود على ما يبدو موتٌ متحقق، هذا ما كان يعنيه ظهوره. لذلك لم يكن أحد يدعوه، أو يذكره، لكن لكل قاعدة شواذ.

أحد هؤلاء كان فاليرا تشوكنوتي. وحدث أنه قرّر دحض هذه الخرافة ربما مزاحاً، وربما رهاناً. وصلوا بنجاح، وكان الطقس في تلك المرة موفقاً: لا عواصف ثلجية، أو أعاصير، بل هدوء وصحو سبق الخطوات الأولية للرحلة. قبيل الصعود النهائي، دعا فاليرك، كما قيل، المتسلق الأسود إلى المجموعة. ورفع كوباً باتجاه جبل أوشبا وناداه بصوت عالٍ، ترتب عليه، بعد تلك الدعوة، إقناع الآخرين بصعوبة كبيرة جداً لعدم رفض ما عزم عليه، لكنه تمكن من إقناعهم، وتوجهوا في الصباح الباكر لاقتحام الجبل. كان الطقس صحواً، ساطع الشمس، وساكناً، وكانت الشمس قد بدأت

تشرق للتو، والرؤية كانت واضحة لمسافة كيلومترات كثيرة في الأفق. تمكنوا من تذليل القمة بسهولة. وكان جبل أوشبا قد تغير: لا غيوم أو رياح أو عواصف أو انهيارات ثلجية. يقول فاليرك عند إحدى المحطات: إن المتسلق الأسود لا يساعدنا، إنه يكنس الأرض تحت أقدامنا. وعند النزول سار كل شيء بسلاسة، لكن الضباب هبط فجأة. لم يكن شديداً، لكنه كان محسوساً، وبدأ الثلج بالتساقط، وهكذا تعكّر الجو. لم يبق أمامنا غير القمة وحسب. هبطنا من الطف، رحنا ننتظر فاليرك الذي سار في المؤخرة، لكنه لم يظهر. صار أعضاء الفريق ينادون بصوت عال. الطنف الصخري فوق الرؤوس مباشرة. أخيرا قرر أحد المتسلقين التأكد من أنه لم ينم في الطريق. صعد الطريق: كل شيء كان كما هو- الحبل، البندقية، ما عدا فاليرك. أما الشيء المثير هو أنه لم تكن هناك آثار، باختصار، لم يكن هناك فاليرك، ولا يوجد أي احتمال لوجوده. لم يتمكن الثلج خلال هذه الفترة القصيرة أن يكنس الآثار، ومع ذلك لم تكن هناك آثار له- ونقطة. وبعد ذلك تم البحث عنه في الأسفل: على سطح النهر الجليدي، وعلى الصخور، وفي كل مكان يمكن للثلج أن يحمله إليه. كان التفكير على النحو التالي: من الممكن أن يكون قد سقط في حفرة أو أخذه إعصار موضعي موجّه، لكن- لا وجود له. لم يجدوه في أي مكان. لقد اختفى، كما لو أنه فص ملح وذاب.

يقولون، يوجد وجه آخر للحكاية: كل شخص يقتل في الجبال يتحول إلى متسلق أسود إلى حين. يتجول بين القمم، باحثا عن كل من يرتكب خطأً، وما لم يجد ضحيته، و يجتاز طريقه كاملاً، فإنه لن يتمكن من الانفصال عن الأرض والخلاص، وسوف تطول عذاباته وتطول.

بالطبع، فإن تشوكنوتي خرق القاعدة، عندما دعا المتسلق الأسود ليكون شريكاً، لكن جوهر المشكلة لم يكن هنا. إن خطأه يكمن في أنه شكّل ضفيرة مغلقة: إنه المتسلق الأسود، لا يستطيع أن يصعد إلى هناك نهائياً. وبالتالي... الأفضل أن لا يفكر أحد بذلك.

دان ماركوفيتش (*)

- لا حاجة لأي شيء.
- المنبوذ.
- كل في مكانه.

(*) عالم وكاتب وفنان روسي، ولد عام ١٩٤٠ في تالين. من حيث التخصص هو عالم كيمياء حيوية. بدأ الكتابة سنة ١٩٨٠، بعد أن أنهى عمله العلمي في مجال الكيمياء الحيوية. في رصيده أكثر من عشرين معرضا شخصيا. كاتب قصة قصيرة ورواية. حازت روايته «Vis Vitlis» على جائزة البوكر الروسية عام ٢٠٠٧، وبالمرتبة الثانية في مسابقة «تنيتا» للرواية في روسيا سنة ١٩٩٨ عن روايته الهارب، والمرتبة الأولى عن قصة الياسمين في مسابقة آرت ليتو سنة ٢٠٠٠.

لا حاجة لأي شيء

أطرقُ بابه أحيانا، وأصيخُ السمعَ. إنه في الداخل، يحرك شيئاً ما على عجل، ويطفيء النور. ثم أسمع صوتاً متوتراً محبطاً: «من هناك؟». أجيب. ينفرج الباب. إنه يقف في عتمة المدخل، يضع على كتفيه شيئا دافئا، معتمرا قبعة شتوية، وقد لف رقبته بشال ممزق. «أهذا أنت؟!... سأخرج حالا»، ثم يغلق الباب. أبقى أنا واقفا على عتبة الدرج.... إنه على قيد الحياة... هذا حسن!. إنه لا يسمح لأحد بالدخول إلى بيته، من ناحية، هو يخجل من عوزه، كما أنه حذر، من ناحية ثانية: «ربما يحدث شيء ما! » لا أعلم، قد يكون مقتنعاً، بأنهم قد يأتون ويأخذونه، كما كان يحدث في السابق. هذا الخوف يلازمه دوماً.

يخرج على عجل، مغلقاً الباب بحرص. يذكّرني في الطريق: «سر عن يساري». لقد فقد سمعه بأذنه اليمين من الضرب. هيئته تظهره عجوزا قوياً: كتفان واسعتان، يدان كبيرتان خشنتان.. لكن؛ كان كل شيء في داخله مهشم وبال. لا يمكنك أن تسأله: «كيف حالك؟» هذا السؤال يغضبه جدا. لا يوجد لديه أحوال، ولا يمكن أن توجد. إنه موجود في هذا العالم وحسب... » عندما أُغلقَ الباب خلفي، أدركت فوراً، حينها، بأن حياتي انتهت... «كان حينها متجهاً نحو ذرى العلم... كانت عيناه فاتحتين، ببؤبئين صغيرين، نظراتهما، كالمعتاد، حادّة وقاسية، لكنه لا يرى الآن سوى النهاية....

لم يكن الجوع أصعب شيء هناك، ولا الألم، ولا حتى البرد الدائم، الذي كان يمكن أن يجعلك تفقد عقلك... لا ليس هذا، إنما هو الاكتشاف الذي يقع على رأسك كالصاعقة، بأن حياتك عبارة عن ذلك الروث الذي

يدفنوه في الأرض... وكل شـــيء يوجد في عالم الجمال، وكل شـيء أحببته بشــكل خاص- العلم والفن وعقل الإنسان... كل شـــيء ما عدا الأغشـية، التي تخفي جوهر هذه الفكرة- بسـيط... بسيط... كلّما عشت أكثر، أجد نفســي في كابوس مرعب. مـاذ يحرك هذا العالم، والنـاس، والتاريخ؟ لا أفهم شـيئا، لا أفهم.... إنني أرى فقط أنني حيّ، ولا أريد أن أموت. يمكن أن أذهب إلى بحر دافيء، وأجلس على الشـاطيء، وأتدفأ تحت الشـمس، وأسـتمع إلى أمواج البحر... ولا أريد شـيئا أكثر من ذلك...

المنبوذ

هاج الحشد الواقف عند محل البيرة، وقذف بأحدهم، وطارت في أثره قبعته الفرو. كان الرجل في الخمسين من عمره، منتفخ الأوداج. تلمس ياقة قميصه الممزقة، نظر إلى الحشد عند المدخل، متنفساً بصعوبة. كان قد اقترب من الهدف، لا بد...

قال بصوت منخفض، أجش:

لقد كنت واقفا...

قال رجل أشيب يرتدي قميصا أبيض ضاحكا- وكان يدخل في شجار للمرة الثانية:

ثرثر.. كيف لا... لقد كان واقفا...

ثم ألقى شتائم.

خرج من الطابور رجل عجوز وردي الوجه، وبساقين مقوستين، دفع المنبوذ في كتفه، وقال:

اذهب، اذهب،... لقد كان واقفا...!، طر من هنا...

قال الرجل الذي مُزِّق قميصه، بما يشبه العواء:

نعم، كنت وااااقـ.. قـ.. فًا، كنت واقفا، أيها الرجال.

جأرت امرأة ضخمة الجثة، ذات منكبين عريضين:

ماذا، أيها الوالي! نحن هنا منذ الصباح، ولقد رأينا كل من حضر...

قال :

لقد ابتعدت قليلا عن الطابور.. لكنني كنت واقفا فيه، ثم تحسس ياقة قميصه، وأضاف: لقد مزقوا قميصي، الأنذال!

في تلك اللحظة، انفرج باب المحل، مُرِّرت دفعة جديدة. اندس الرجل المنبوذ في فرجة معتمة في الحشد المتدافع داخل المحل، لكنه حتى هنا، لفت الانتباه، وتمكنوا من التقاطه، وإخراجه مرة أخرى من الدور. كان الطابور يزداد كثافة عند المدخل، مثل علقة جائعة، التصقت بالشق، وكان يخرج من الدور أشخاص منفردون، يطيرون إلى داخل المحل، يتجهون إلى بسطة البيع في عمق المحل مسوِّين وضعية ملابسهم أثناء المشي. سقط عدد من الأشخاص عند الباب، خرجت امرأة من كتلة الأجساد المتكومة، وراحت تحجل على ساق واحدة، طارت خلفها جزمة، لكنها كانت قد وصلت إلى الهدف. ساد المكان عدل وعواطف مسرة. فقط، الرجل المنبوذ كان يقف، مستندا بجبهته على الواجهة الزجاجية للمحل، وقد أصيب بالكآبة، وهو يشاهد الأشخاص المحظوظين الذين وصلوا إلى داخل المحل، وقد تشكلت منهم مجموعة، أصبحت مهيأة للخروج فرحة بالغنيمة... أدرك المنبوذ أن كل شيء قد ضاع منه، قال بصوت أجش:

ومع ذلك، فقد كنت واقفا...

مرّ من أمامه رجال يتأبطون زجاجات المشروب، تحت آباط متعرِّقة، قالوا ساخرين:

ما بكم، أيها الأخوة! لقد كان واقفا...

لقد كنت واقفا، أيها الأنذال، كنت واقفا...

هبطت عباءة العتمة سريعا، أُضيئت مصابيح الشوارع، وانقضى يوم آخر.

كل في مكانه

أحيل فيكتور بيتروفيتش، قبل مدة قصيرة، على التقاعد. لقد أمضى الرجل نصف عمره بالعمل في مهنة غير مفهومة بالنسبة له. كان من حيث التخصص زراعيا، لكنه ترك ذلك العمل، وأصبح مسؤولا في قسم التزويد في معهد كبير. لم يتمكن من البقاء مزارعا لفترة طويلة. كان يقول: «الأرض شيء، والحزب – شيء آخر... » تجهّم، صعّر كتفيه. إنه يشبه قوزاقي من منطقة كوبان، بغرته البيضاء، وحاجبيه الكثين، وأنفه، الذي لا يشبه أنوف الروس، والأقرب إلى شكل أنوف الغجر، وحدبة ظهرة، وتقوسه إلى الأسفل. كنت تجد دوما حشدا من الناس في مكتبه الصغير، وترى الحمالين جالسين مسترخين عند الحائط، وسحابة دخان السجائر تحجب السقف. تناول مذكرة، نظر فيها بشك كبير، قال:

إيه، لماذا تطلب الكثير، هكذا؟... هل تريد هذا... أعطيك مائة كيلوغرام منه. إنها مكدّسة، لا طلب عليها.

يتساءل أحيانا:

لا، أخبرني. لا أستطيع أن أفهم... إنني أنقل شاحنات إلى هنا... زجاج، كشّافات، وما شابه، كل يوم يدخل رتل كامل منها عبر البوابات... لكن، لا يخرج من هناك أي شيء!... كما لو أنها سقطت في بئر بلا قاع...

لقد كانت تلك الصورة. أرتال من الشاحنات في اتجاه ولا شيء يخرج بالاتجاه الآخر. شيئا سحريا بالنسبة له. «لا، اشرح لي». قلت له بخصوص المقالات والكتب، التي تصدر عن هذا المبنى والتي كانت غير مرئية فقط

للعين الساذجة، لكني لم أتمكن من إقناعه فالمواد الداخلة كانت تتحول إلى أشياء أخرى، وهو ما كان يخالف تصوره عن الحياة.

ماذا نزرع نحن في التربة؟.. بذرة صغيرة، وماذا نتلقى؟... أما هنا، فنحن نُدخِل أوه... ، ونتلقى... لا، سوف أبتعد عن هذا المكان، أبتعد...

ومع ذلك لم يبتعد، لقد شاب وهو يشتغل بعمل غريب وغير مفهوم بالنسبة له. لقد التقيته في الشارع. كان قد احدودب ظهره، وصار يعرج(إصابة قديمة)... حاجباه أصبحا أبيضين تماما.

ها أنا قد تحررت أصبحت متقاعدا. سوف أسافر عند أختي إلى الجنوب، إلى الأرض الدافئة، ولسوف أرى هناك على الأقل كيف تنبت البذور فيها... أما هنا...

ولوح بيده، وذهب...

اليوم، قسم التزويد مكون من غرفتين كبيرتين، يقع خلفهما مكتب، يوجد فيه شاب لطيف، الحمالون يجلسون في القبو، كل واحد في مكانه ولم يعد هناك أحد يستغرب شيئا.

أوليغ مالاخوف (*)

- تكاثر.

(*) كاتب وشاعر روسي معاصر، كتب بالروسية والإنجليزية، له من المجموعات الشعرية: «في حدود الجنون»، وباللغة الإنجليزية: «صديق من مطر». وله قصص: الممرات، وشراب برغوة، والثأر، والفراغ، وباللغة الإنجليزية له: الحرية، وغيرها.

تكاثر

لا شـــيء يدعوها للاعتقاد بأنهـا حامل. بدا لها أنه لـن يُصدِّقها أحد، ما لم يـر بطنها منتفخاً. أما هـي فقد كانت ترغب بأن تلد صبيا. لم تكن تسـمح لنفسـها أكل أشـياء دسمـة، لم تشـرب الفـودكا، فقـط كانـت تتناول القليـل من الكونياك. الكونياك يعجبها. لم يكـن يقلقها منع الكحول عنهـا علـى الإطلاق. كانـت تدعو جميع النسـاء الحوامـل إلى بيتها لتتحدث معهـن في مواضيـع مختلفـة. تحب الحديث عن السـينما والموسـيقا الحديثـة، الفتيات فقط، اللواتي لم تكن بطونهن منتفخـة، هن فقط، من كان يسـتمع إليهـا، ولا يقـدرن علـى الانقطـاع عـن سمـاع تحليلاتهـا بخصـوص الأفلام والموسـيقا الجديدة، وكل شـيء جديـد، مما تتحدث بـه. لم تكن تتحدث لهن بلغـة مفهومـة؛ لكنّهن لم يكنّ يَرتبْن بأي شـيء غريب في سلوكها، إلا أن الأغانـي، الـتي لا يمكـن مقاومتهـا عن الناس محيّري الجنـس، كانت تُليّن قلوبهن بعض الشـيء.

لم تكـن تذكـر، كيـف أرادوا تسـميتها في الطفولـة، لكن البريق في عينيهـا كان يعـبّر عن نظـرات مغويـة صـوب مندوبي المبيعـات في المحطات والمطـارات. لم يعـد بالإمكان تفسـير ماذا يعني الطفل بالنسبـة لهـا، إذ أنها نسـيت، أنها كانته في يوم من الأيام.

كانت طفلا مطيعـاً. كلمـة«مطيع» رافقتها فيدفن والديها، وفي روائح أزهار شـعرها المتجدد التسـريحات. لم يكن أحد قادرا علـى اختبار صلابتها، فقد ولد طفلها ولديه خلل في الكلام، مع غطاء شعري ضار أسفل البطن. لقد رفعـوا تقريرا لجهـة ما، فهل عاد الأطفـال في هذه البلدة يولدون بعانات غزيرة

الشـعـر بشـكـل فظيع؟ أم أنهم غيروا القوانين، فلم يعـد بالإمكان الكلام في التفاهـات؟ أم أنهم اسـتبدلوا حرف العطف «أو»، أم، إنـني لا أصدق أنهم قرّروا اسـتخدام حرف العطف«و» محل«أو»، وليس حرف الجر«بـ» المرتبط بالسـببية «بسبب»، الذي لم يكن يعكس كل تعقيدات التراتبية في الوعي الوطني. لقد أنجبت عندما وُلدت بنتا بأعضاء ذكرية، ولم يكن أحد لينتبه إلى طول يديها اللتين لم يتسع لهما بطن أمها أثناء الحمل. الوالد، الذي كان السبب في ولادتهـا وهو في حالة ثـمالة، لم يكن قادراً على تذكر اسـم شـريكته في لحظة النشـوة. هي لم تغضب؛ لأنها كانت تفكر بأنها تمارس الحب مع رجل أجنبي. وها هي اللحظة الرائعة للحمل. الأطباء متفقون:

سـيكون لديك طفل!

من هو؟

لا أحد.

ما هو؟

إنه ليس أي شخص، إنما شخص ما من لحم ودم وعرق.

فليكـن لديـك طفل جميـل. «إنني ببسـاطة أريد ولـدا»، لديها فكرة بهـذا الصدد، وهـي أن لا تذهب إلى المطاعم لمدة خمسـة شـهور، ومن الممكـن، أن يتمكـن هـذا الولد الجميل من أن يشـبع مـن جسـدها، وأن لا يـكون من هـذا العالم. ثنائي مثالـي، وثلاثي مثالي. هـكذا يجب أن تكـون عائلتنا. لا تسـتطيع أي مزاريب مؤقتة تنظيف المجاري النتنة. لقد بدأ كل شـيء لديها من لحظـة بدء العـراكات البسـيطة، والضـربـات الضعيفـة في البطن، التي كان يحدثهـا الطفـل، كانـت ضـرورية مـن أجـل أن يبتلـع إدراك حقيقة ظهـوره القريب عنـد جدران المهبل، كلّ الموجودين قريبـا من نطاق تبوله. لقد اتضـح أن لديه أسـباباً عديدة كي يشـعر بأنـه فائض عن الحاجـة على هذ الكوكـب، الذي حوّل صوته الأنثوي، وآهة شـخصـيته المتسـقة، المعبرة عن عـدم الرضـا، في منتصف مسـرحيته، التي أُدّيت مـن دون نقصان على ركح

أسلافه. في الوقت الذي كان الجميع ينهون حياتهم بالانتحار، كان الطفل قد سقط عاراً على سرير أمه. لم يكن بحاجة إلى النخاع الشوكي، كي يحس بلولب السفينة، التي كانت قد حملته إلى مسقط الكلاب الضالة. ولم تسقط دموعه بكاءً في هذا العالم المضحك، بل نزلت من الضحك. لقد استولت عليه رغبة لتذكر أبيه، عندما جلس القرفصاء، غير راغب في إزعاج رئيسه في العمل بطلبات سخيفة، وراح يحك الأرضية الخشبية، لكنهم لم يفهموه، وأطلق عليه جنود، لا حول لهم ولا قوة، الرصاص في يوم مولد ابنه الوحيد، الذي استقبله الناس على أنه بنت. لقد احتست أمهم كمية زائدة قليلا من المشروب، لم تشارك في غسل والدهم، لقد كان هناك عدد كبير من الأمهات، اللواتي كن قد نسين يوما ما أن يعملن ذات الشيء مع أبنائهن، وقد استيقظت لديهن غريزة الكراهية للذات، لكن لدى الأطفال، في هذا الخصوص، طريقتهم في«لازمة اللعب». لم يستمع إليها أحد، تفرقوا جميعاً، عائدين إلى بيوتهم بعد أن استدعوها في ذاكرتهم، إنهم يتذكرونها فقط في الأحلام؛ لأنها نفسها تزورهم، راجية أن لا يوقظوها بذكر أهاليهم النائمين. شكرا لأهلكم وقومكم، وشكرا لتاريخكم، الذي لا يصعب عليكم تكراره طول الوقت. بمعنى، أنتم تعجّون بالحركة في أرحام أمهاتكم المحبوبات من قبل آبائكم، وسرعان ما احتللتم مكانا وسط الأمتعة المسلية الموجودة لدى كل عائلة لديها القدرة على الحب القوي.

لقد ظهر في حياتكم معشوقات، تحوّلن أحيانا إلى معشوقين، ونتيجة ذلك ظهرتم أنتم طول الوقت، ضروريين جدا، لكن لستم مواليد جدد البتة، ولستم أبداً المواليد الذين لديهم عانة كثيفة الشعر، والقادرين على نطق كلمات بما فيه الكفاية، للاعتراف بالحب، وللظهور مجددا في جسد التجربة الضعيفة شبه الميت. يتحد في الجسد الآهات الحرّى، والمحركات المرنة.

عند الصباح، لا نجد حصتنا من عصيدة الحليب، فنتخلى عن امتيازاتنا بأن نكون من المحافظين على النوع. في إيماءة إلى الجرح تحت جلد الصدر يختفي طفل أرواحنا الميتة الحي. أما الأم الحية فما زالت تسأل جاراتها اللواتي

ظهر بعض الانتفاخ في بطونهن، ماذا أعجبهن من العروض السينمائية التي شاهدنها مؤخرا والأغاني التي سمعناها. جميعهن اتفقن مع وجهة نظرها، لكن وجهة نظر الطفل الصغير أبحرت بعيدا، مع كثير من وجهات نظر الأطفال الأخرى، الذين لم يولدوا في الوقت المناسب، في ضوء المنشور، الذي تحمله جانية الحيوانات المنوية.

أنستاسيا كالينِنا(*)

- خورتينو.

(*) شاعرة وكاتبة روسية. ولدت سنة ١٩٨٤ في سنت بيتربورغ. درست اللغة في جامعة سنت بيتربورغ، والفن في معهد سمولني، وبشكل مواز حصلت على دبلوم **Bard College** في نيويورك. أصدرت أول أعمالها في أنطولوجيا الكتاب العشرينيين الصادرة عن ليمبوس برس، ونشرت أعمالها في مجلات أدبية وفلسفية.

خورتينو (*)

لُفّني ليلا بحرام صوفيّ.

واحملـني، مثل فطيرة مـن اللحم والملفـوف، إلى رصـيف سـكة الحديد، حيـث ينطلق القطـار الأخير على ذلك الخـط. ضعني في قسـم الأمتعة، وارجو تجميدي بقوة أشد، حتى لا تفكر دموعي بالسـيلان.

وعندمـا يحين وقـت إنزال الأمتعة، لا تنسـاني، فقد يأخذونـي إلى خزائن الأمتعة. ضع عليّ علامة. فأنا لا أشبه الآخرين، حتى في «الفريزر» أنا أبيض من الوجوه الأخرى، وينسـكب علي الجليد وحدي. خذني. يبدأ الآن أعقد شـيء.

سـوف يصادروني، إذا مـا بحثوا عني ووجدوني، وأكثـر ما يخيف، هو أن يجبرونـي على العودة للحياة، سـوف يذيبون الجليد عني، وسـوف يمسـحون دموعـي والـدم، ويعيدون الحمـرة إلى الوجه، والاحمرار المصطنـع إلى العيون. لدي استطالة متوسـطة، لكنها قريبة إلى الوضع الأفضل، في الجمباز، فقط، كانـت هناك فتاتان اسـتطاعتا ان تمتطا أفضل مني، لذلك، مـن دون تباطؤ، ثبّت رأسـي بشجاعة إلى كاحليّ، مذيبا مجال خصـري بواسطة الولاعة.

انتبه كي لا تذوب بقية الأشـياء. دسّني في كيس ماركة «خوريتينو» المصنوع جزئيـا من الأثيلين. و يجب أن يظهر كيسـي بين الأكياس الأخرى الـتي تحوي الخضار المجمد في ثلاجتك. حدّد مكانه في الوسـط تماما، حتى لا يصل إليه أحد. عند التفتيش أظهر شـرود ذهن، وبرودة دم، وثقة. يمكنك أن تحكـي نكتة، وتقول، إن من لديك في المقطورة هو- أنا، لن يصدقوا، وسـوف يعتقدون، بأنك تمزح، لكن، من الممكن، أنك سـتقول الحقيقة لأول مرة في حياتك. افعل ذلك ولو لمرّة بذلك الشكل المرح.

(*) ماركة تجارية مشهورة لصناعات الأغذية.

لا تفكّر بأنني مستلقية هناك، لا تلتفت إلى ذلك. فكّر بشدة بالسعادة من دوني، تلك هي الوسيلة الوحيدة التي يمكنك أن تفعل لي شيئا حسنا، وبذلك يمكنني الخلاص إلى الأبد.

وما أن تصل إلى المكان، اسحبني من الكيس، واعتل مركباً سرا في الليل. سوف يتعرّف عليك أحد البحارة التلاميذ، سوف يشتري طباخا، أما ذاك، فسوف يسكب السُم لمن يلزم. اعتبر أننا في سفينة. سل صاحب الشنب الكثّ على السفينة، عن احتمالات أن تجد كاسحة جليد خلال الأسبوع.

بعد أن تتسلم الجواب، احسب كل شيء بدقة على الآلة الحاسبة. وانتظرْ. نمْ قليلا، كي لا تفسد كل شيء. احفظني خارج القمرة. يمكنك المباشرة بوداعي، إذا ما كانت لديك الرغبة، يمكنك أن تغمرني بالنبيذ. عندما تظهر كاسحة الجليد، وافق أن تُقطّعني إلى أجزاء كثيرة. شاهد كيف يحدث ذلك. كن متيقظا، خفّف من ارتجاف ركبتيك، لا تسقط، فأمامك الرياضة. عندما ترى، إلى أي عدد من فطائر الفالوذج الصغيرة قد تحولت أنا في كيس «خورتينو»، في كاسحة الجليد، ابدأ اللعب بتلك الكرات الصغيرة في الثلج. لا يهم مع من تلعب العب وحدك. المهم هنا، هو النشاط الذي لا يخفت. أنا واثقة من أنك سوف تنتصر. فأنت أفضل رياضي.

يكاتيرينا غلوتشيك

- قدر.

قـــدر

لقــد كـان واضحـا أنهـا تقـترب من النهايـة عندما تـوفي أخوها. لم يكن ذلك الموت الأول في العـائلة. كـان لديهم سـتة أطفـال، وبوليا كـانت الأصغر. لقــد دفنهم الوالدان واحـداً تلو الآخر، كـما دفنا الجد والجـدة من قبل. كـانت بولكا(*) صغيرة جداً حينذاك، إلا أنها تتذكـر مراسـم الدفن. إن ما تتذكـره من تلك المراسـم البعيدة، هو الرعب الذي أصابها بسـبب تجمع الناس الكبير، وضـيـق الصبر: لماذا هم يقفون طويلا إلى جانـب القبر؟ تلح بوليا على والدتها بشـدة، جاذبـة تنورتها: «دعينـا نذهـب إلى البيـت!». حاولـت أمهـا في البداية إقناعها، بعد ذلك دعتهـا بصـرامة للهدوء. لم تكن بوليا تعرف الحزن، آنذاك! لكن؛ عندما دهسـت سـيارة كلبة الحراسـة المحبوبة لاسـكا، فـإن بوليا بكتها بحرارة، أكثر من كل سكـان الحي.

رحلت أختها المفضلة عن سـتين عـاماً، كـما أمها وجدتها من قبل. احتشـد الحزن لدى بولينا، أهزلها، وسـرق منها لونها، وترك غضونا واضحة على وجهها، لكنهـا حينئـذ لم تشـعر بالمـوت، وإنه يخصهـا. مـا كـان حزن عظيـم، جاء ليهدِّئهـا، و يخفِّـف وجعها، ويتيح لهـا النوم، ويتركها تعيـش حياتها، لا حزن مجرّد، وحسـب.. بعد ثلاث سـنوات مـن وفاة الأخت، تـوفي الأخ الابن الثاني في العائلة والأكبر بين الإخوان. يوجد فارق ثلاث سنوات في العمر بين الأخوة في عائلـة كوكورني. كـانت الأم تعلق مازحة: «الرب يحبّ التثليث، ومن خلال التثليث هو يحب فالكل محبوب لديه»

(*) بوليا، بولكا، اسـما تصغير للاسـم بولينا.

بعد ثلاث سنوات أخرى، توفي الأخ الثاني. فجأة، أحست بولينا، وهي تجلس عند النعش، بأن ذلك الموت ـ نذير موتها. لقد أحست بـ«أنفاس الموت»: تملكتها البرودة، التي سرت في كل أوصالها، وتخللت روحها. أدركت كم بقي من العمر: تسع سنوات. وأدركت: مقدّر لها أن تدفن كل أقربائها، وكل أفراد عائلتها.

تداعت إلى الذاكرة مشاهد من الطفولة بشكل جلي: الأخت الكبرى تتذمر، لأنهم يحبون أختها الصغرى بوليا أكثر. وعبارة الأم: «لا تحسديها أنت، أيتها الساذجة! إنها لا تُحسد على قدَرها: سوف تودعنا جميعا. قدرُ الصغار أن يودعوا الآخرين؛ لذلك نحن ندلّلهم؛ لأنهم يدركون أن قدرهم مُرٌّ؛ فهم يودعون الجميع. أكثر شيء يرغب به هؤلاء: أن يذهب الجميع، وينتهي الحزن».

لم تفهم بوليا من كلام أمها إلا أن لها الحق أن تتدلل كصغيرة، وأنها سوف تودّع الجميع إلى مكان ما، كما ودّعت العائلة كلُّها أخاها عندما التحق بمخيم الطلائع، بسعادة.

جلست بولينا قرب النعش، وقد جفّف تجلي الحقيقة الدموع على خدّيها: لقد جفّفها بفظاعته. لقد كانوا في العائلة يحبون بعضهم بعضا. وكان الفقد يمر عليهم محزناً جدا.

أحيت مراسم الدفن هذا اليوم في الذاكرة مشاهد بدت للوهلة الأولى أنها منسية منذ زمن بعيد. تذكرت حديث رفيقة الروح ـ الأخت الوسطى، في الطفولة، كيف أحضروها ـ هي بولينا من مستشفى التوليد، وكيف أنها كانت تخرج فقاعات، وعندما فكّوا رباطها، استلقت على ظهرها، محركة يديها ورجليها بشكل عشوائي. قالت أختها الكبرى آنّا وقتئذ: «هل تعتقدين أنها تتذكر؟ أما أنا، فأتذكرك، حتى أنت، وأتذكّر كولكا، وبولكا». هنا راحوا يتبارون من رأى أكثر من الأخوة والأخوات المواليد العائدين من مستشفى الولادة. بالطبع، كانت الأخت الكبرى هي أكثرهم.

حزنت بوليا بسبب نصيبها ذاك: فهي لم تر أي مولود من بين أخوتها! صارت ترجوا والديها كي ينجبا أخاً صغيرا، أو أختا. لكنهما لم ينجبا.

اكتأب قلب بولينا، عندما أدركت أن قدرها، هو أن تغلق عيون كل الأحبة، الذين لم تر تفتح عيونهم! لقد حالف الحظ الأخت الكبرى أكثر من الجميع: فقد كانت شاهد ولادة، ولم تعان من الفراق!

منذ دفن جدّها وجدّتها ظلت بولينا تحاول أن لا تتذكر المقابر، بالرغم من أنها لم تشعر بالحزن الشديد حينها: فالجدة كانت مستلقية، آخر أيامها، طوال الوقت تقريبا على الصوفة. وفجأة وضعوها على الطاولة، كما وضع جدّها من قبل، بدت حينها كما لو أنها نائمة. لكن؛ ومع مرور الوقت، فإن الصغيرة بوليا صارت الوحيدة التي تشتاق لجدتها، التي كانت تحكي لها الحكايات من دون ملل، وتجدّل لها شعرها، وتتمشى معها في باحة المنزل ممسكة بيدها.

لقد فهمت الآن نُواح الجارة، التي دفنت اختها الصغرى، وكانت قد ذبلت تماما خلال شهرين. لكَم كانت محبة للحياة! وفجأة: مرضت. لم يتمكنوا من استيعاب المرض، حتى جاءت النهاية. تتذكر بولينا كيف جلست الجارة إلى جانب نعش أختها الصغرى، وراحت تتحرك تارة مثل بندول على كلا الجانبين، وتارة أخرى إلى الأمام وإلى الخلف، مرددة بنغمة واحدة: «ليس دورك، ليس دورك! إنه دوري أنا، دوري أنا! »

تذكّرت أيضا تشييع فتاة من مدرستها، توفيت بسبب فقر الدم. كانت بوليا ضيفة لمدة أسبوع عند صديقتها في المنزل الريفي. أحضرهما والد صديقتها، كانتا قد نزلتا من السيارة سعيدتين، قبل أن تركض نحوهما صديقتهما من الصف الثالث«ب» قائلة، إن عليهما أن تذهبا إلى المدرسة، وليحضرن الأزهار، إذا أمكن؛ لأنه سيكون هناك تشييع للفتاة تانيا من الصف الثاني«أ». لقد وجهوا الدعوة إلى الجميع، ولذلك لن تكون هناك

عطلة لأي أحد. أسرعت بوليا وإيرينكا إلى المدرسة تحملان باقتي زهور. جُعل الأطفال، وبشكل خاص الفتيات حاملات الزهور في مقدمة الجنازة، حتى ينثروها على جانبي الطريق. كانت بوليا مستاءة من أن الناس يدوسونها.

عندما كانوا يسيرون في الجنازة، تحت وقع عزف أوركسترا آلات النفخ، راحت سونكا- المجنونة، كما كان الأطفال يسمونها فيما بينهم، تسير مع الجنازة، متقدمة عنها تارة، وجاثية على ركبتيها، تارة أخرى، وتارة تنهض متقدمة الجنازة. كانت تمسك برأسها، وتارة تلوح بيديها بشكل متقاطع صائحة، بصوت حاد: «ليس عدلا، ليس عدلا! مخالف للقانون، مخالف للقانون! ممنوع! ممنوع! أعيدوها! دعوها تعيش! أنا- مع القانون!»- وكانت تضرب صدرها بشدة، وهي تصيح بتلك العبارات.

كانت سونكا طيبة، تبتسم طوال الوقت، لا تؤذي أحداً. تحاول أن تمسح بيدها على رؤوس الفتيات الصغيرات، أو أن تضيفهن حبات الحلوى. لم يكُنّ يقبلنها منها، فتبكي كلما امتنع أحد عن قبول حلواها. كانت بوليا، مرّة، تسير في الشارع مع أمها، عندما فجأة صادفتهما سونكا. توقفت، ابتسمت، ناظرة إلى بوليا. بعد ذلك حولت نظرها إلى أمها: «ابنتك؟»، أجابت الأم: «ابنتي». أخرجت سونكا حبة حلوى قد تلوثت من طول ما حملتها، وقدّمتها بتردد لبوليا. سمحت لها أمها بأخذها «خذيها، وقولي شكرا». أخذتها بوليا، وشكرتها. ابتسمت سونكا، استدارت، ثم انطلقت مسرعة في الشارع، صائحة بكل سعادة: «ابنتي! ابنتي! »

لم يكن أحد يخشى المجنونة سونكا، لكن، من الفظاعة، عند الدفن، النظر إليها صارخة، نازعة منديل راسها، ممزقة شعرها الأشيب، ساقطة على ركبتيها. خرجت من الجنازة امرأة عجوز، اقتربت من سونكا الجاثية على ركبتيها منهارة القوى، على ما يبدو، وراحت تُنهضها، وتهمس لها شيئا ما، في حين كانت الأخرى تنشج وتواصل سؤالها: «ليس عدلا؟ ضد القانون؟»

بعد ذلك، عندما كان العزاء في قاعة الطعام في المدرسة، سمعت بوليا حديث العجائز، وهن يتذكرن سونكا: قلن، إنها فقدت عقلها، عندما ماتت ابتها الصغرى.

الآن تتداعى المشاهد بكل تفاصيلها. أدركت بولينا معنى صرخات المجنونة التي بدت حينها أنها من دون معنى «ليس عدلا! ضد القانون! »: الأم التعيسة، التي دفنت طفلتها، تحتج ضد اللاعدالة حسب قانون الطبيعة، فإن الأبناء هم من يدفنون الآباء لا العكس. «أنا- حسب القانون! »- كانت سونيا تضرب صدرها، كاشفة للموت خطأه، على نفسها، وأنها هي هدفه، وكانت كأنما تعيد دفن ابنتها في كل مرة تشارك فيها في دفن أطفال.

أما عند بولينا، لغاية الآن، فإن كلّ شيء يسير «وفق القانون». لكن التوديع «حسب القانون» ليس بأسهل، فقد كانت هي ضد هذا القانون، وكانت لا ترغب بتذكره بقوة.

بعد أسبوع من الدفن، اتصل ابنها الذي يؤدي خدمته العسكرية في أبخازيا، لينقل خبراً عن ولادة الابنة الثانية. لقد علمت بولينا عن حمل كنتها، التي وضعت قبل الوقت، لكنها فرحت لهذا الخبر كثيراً! كما لو أن أحدهم أراد أن يعوضها الفقد بمولد حفيدة قبل الأوان. استعدت بولينا للسفر إلى ابنها: لقد كانت ترغب بشدة في أن ترى البنت الوليدة!

وقبل أن تسافر، سألت ابنتها التي سمنت في الفترة الأخيرة، عن أحوالها، فعلمت أن الابنة، هي الأخرى، تنتظر مولودا...

مؤلفات المترجم

١. قيم الحياة عند أبي حيان التوحيدي، أطروحة دكتوراه، ١٩٩٠، باللغة الروسية.

٢. الصحافة الشيوعية في الأردن وفلسطين حتى عام ١٩٨٢، أطروحة ماجستير، ١٩٨٢، باللغة الروسية.

٣. الاستراتيجية الثقافية والأمن الوطني، أطروحة ماجستير، ٢٠١٠.

٤. الموت والزيتون، مجموعة قصصية، وزارة الثقافة، ١٩٩٥.

٥. رقصة العاج، مجموعة قصصية من الأدب الإفريقي المعاصر. ترجمة، دار الهلال للترجمة -٢٠٠٠.

٦. ورقة واحدة لا تكفي، مجموعة قصصية، المؤسسة العربية للدراسات، ٢٠٠٢.

٧. دم الكاتب، مجموعة قصصية، دار الكندي،٢٠٠٣.

٨. شخصية مشرقة، مجموعة قصصية مترجمة عن الأدب الروسي الساخر. دار ورد، عمان، ٢٠٠٦. مكتبة الأسرة الأردنية (ط٢)، وزارة الثقافة، ٢٠٠٨.

٩. تقاسيم المدن المتعبة، مجموعة قصصية، إربد مدينة الثقافة الأردنية، ٢٠٠٧.

١٠. ذات مساء. مجموعة قصصية للكاتب أركادي أفيرتشنكو. ترجمة عن الروسية. أمانة عمان-٢٠٠٧، ط٢، مكتبة الأسرة الأردنية، ٢٠١١، ط٣، الآن ناشرون وموزعون، ٢٠١٦.

١١. يتساقط الثلج هادئا. مجموعة قصصية مترجمة عن الروسية، دار ورد، عمان، ٢٠٠٩.

١٢. أناملي التي تحترق، مجموعة قصصية، الكرك مدينة الثقافة الأردنية، ٢٠٠٩.

١٣. الحصان العربي، مجموعة قصصية للأطفال، السلط مدينة الثقافة الأردنية، ٢٠٠٨.

١٤. الدولاب، مجموعة قصصية للأطفال، وزارة الثقافة، ٢٠٠٧.

١٥. المحققان الصغيران، مجموعة قصصية للفتيان، وزارة الثقافة، ٢٠١٢.

١٦. الشمس تشرق غربا، مجموعة قصصية، أمانة عمّان، ٢٠١٢.

١٧. قصة حب بسيطة، مجموعة قصصية مترجمة عن الأدب الروسي المعاصر، الآن ناشرون، ٢٠١٦.

١٨. سحر الشرق، مجموعة قصصية مترجمة عن الأدب الروسي الكلاسيكي، الآن ناشرون، ٢٠١٦.

١٩. كتاب المكان/ إعداد وتحرير وتقديم ومشاركة. وزارة الثقافة. عمان ٢٠٠٣.

٢٠. وزارة الثقافة – واقع وإنجازات، إعداد وتحرير، وزارة الثقافة، ١٩٩٤.

٢١. الإشراف على إعداد معجم الأدباء الأردنيين، وزارة الثقافة، ٢٠١٤.

E. mail: basem7290@hotmail. com

المحتويات

تقديم عند بحيرة الإلهام الفضية 7

ليديا صيتشوفا 13

1. ثلج 15

2. قصـيدة عن الرجل الذي تعيله زوجته 21

3. شجرة الحور الفضية 29

4. رفيقان 35

5. قصة حب بسيطة 41

6. غداء في مجلس الفيدرالية 47

7. وداع سلافية 53

8. هروب 57

أولغا إيجينياكوفا 63

1. الشقة 65

2. أساس الحساء 69

دميتري يرماكوف 73

1. بيت على الطريق القديم 75

2. بوجوليه 79

نيكولاي فورونوف 85

1. نريدُ منقذاً 87

أولغا غرينود 95

١ـ شوق 97

٢ـ الغربة 99

داريا سيمونوفا 101

1. تمثال من البرونز 103

ليونيد تاتارين 111

1.كيف ترفَّعَ الملازمُ إلى رتبةِ رائد 113
جريجوري زلوتين 117
1. الجسر 119
فيكتور نيل 123
1. الكلب 125
فاضل إسكندر 129
1. عكاكيز للوصول إلى الجنة 131
إيرينا بوليانسكايا 139
1. يتساقط الثلج هادئاً.. هادئاً 141
2. الأم 147
الكسندر بوندرا 151
1. رسالة سعادة 153
آنا توروسوفا 159
1. قطرةُ عسل 161
أناتولي تومينيف 167
1. نسيان 169
2. الغنيمة 173
2. المحتالون 177
نينا بيتغر 179
1. حقارة 181
2. غضب 187
ميخائيل يليزاروف 191
1. الحياة حلوة 193
غينريخ بالويان 199
1. قصةٌ مستقبلية 201
2. الجميعُ إلى الانتخابات 207
بيان شيريانوف 213

1. البياض – رواية 215

إيرينا بوريسوفا 221

1. من، إذا لم يكن أنا؟ 223

2. بناء 227

3. مساء غير عادي 229

4. عالمان 231

تاتيانا ناباتنيكوفا 235

1. قاعدة أرخميدس 237

فلادمير تين 243

1. وسط حلم غريب 245

سيرجي كالوجين 251

1. السر الحربي 253

2. القصة الحقيقية للطفل كوني 257

لوبوف رامانتشوك 259

1. كبسولة الحب 261

2. حكاية متسلق الجبال الأسود 265

دان ماركوفيتش 267

1. لا حاجة لأي شيء 269

2. المنبوذ 271

3. كل في مكانه 273

أوليغ مالاخوف 275

1. تكاثر 277

أنستاسيا كالينا 281

1. خورتينو 283

يكاتيرينا غلوتشيك 285

1. قدر 287

2. مؤلفات المترجم 293

إصدارات

دار نشر أنباء روسيا

Russia News

www.russiannewsar.com

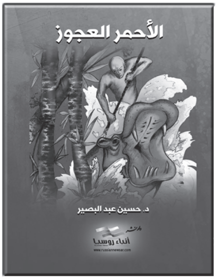

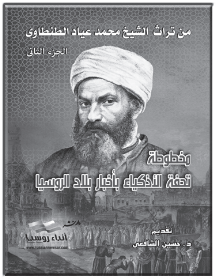

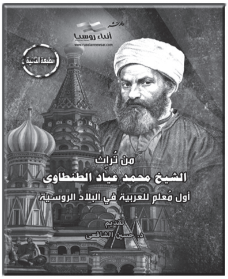

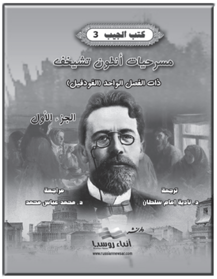

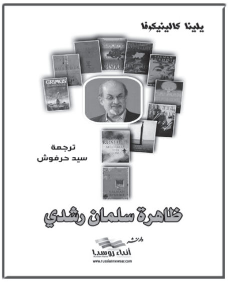

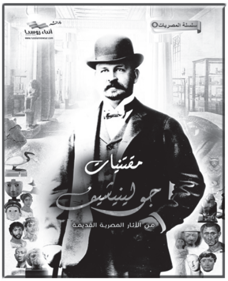

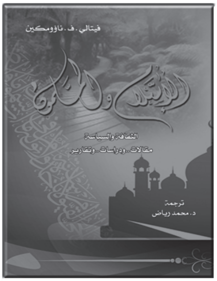

دار نشر

أنباء روسيا

Russia News

www.russiannewsar.com

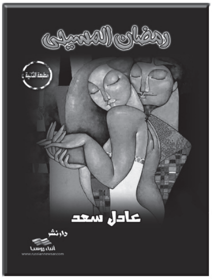

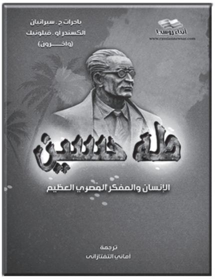

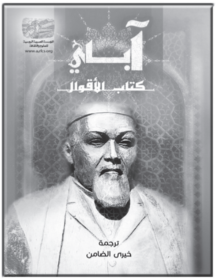

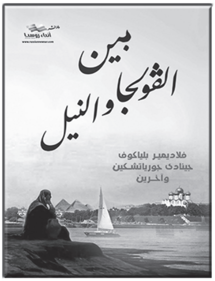

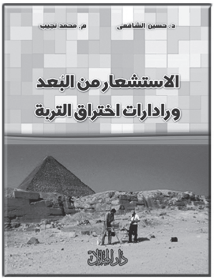

أنباء روسيا
Russia News
www.russiannewsar.com

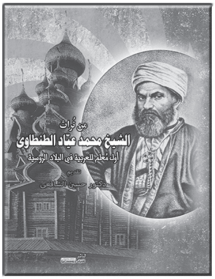

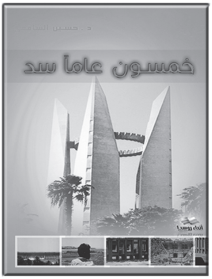

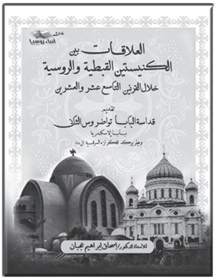

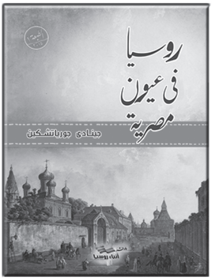

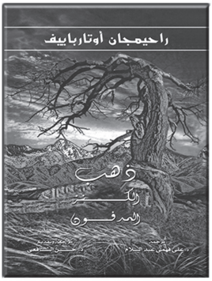

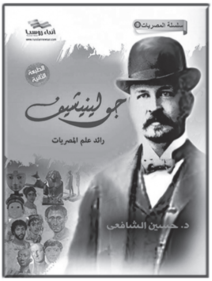

أنباء روسيا
Russia News
www.russiannewsar.com

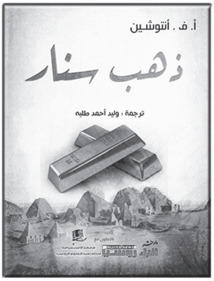

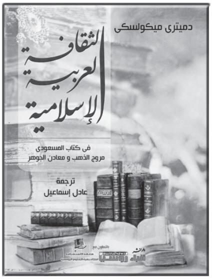

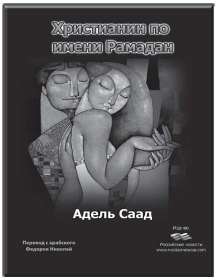

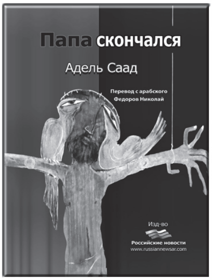

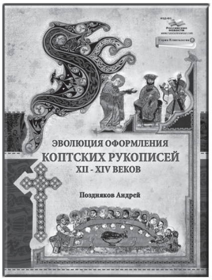

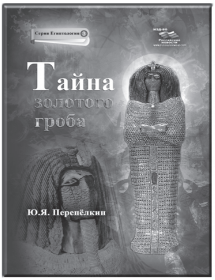

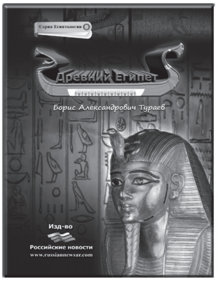

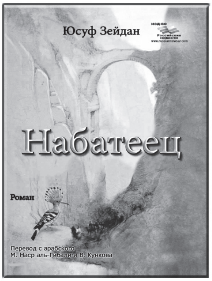

أنباء روسيا

Russia News

www.russiannewsar.com

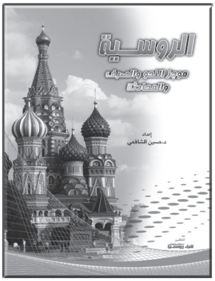

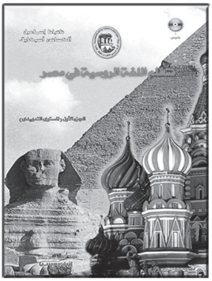

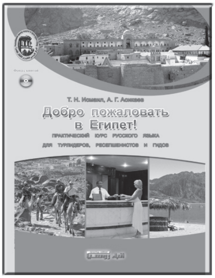

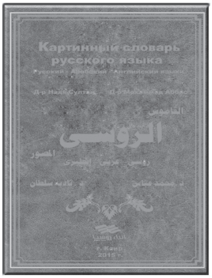

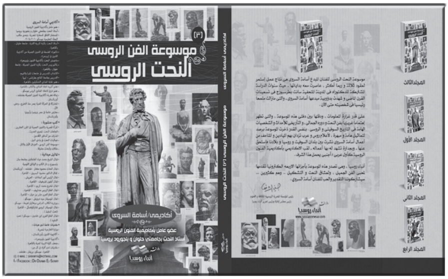

الإصدارات متوفرة لدى

مقار المؤسسة المصرية الروسية للثقافة والعلوم	114 شارع جوزيف تيتو برج رقم 2 ـ النزهة الجديدة ـ القاهرة	01006774027
	4 ميدان بن خلدون مدينة الصحفيين العجوزة ـ الجيزة ـ بجوار معهد القلب وأمام مستشفى أمبابة العام	33028975 – 33043052 01006157783
المركز الروسى للثقافة والعلوم	27 التحرير، الدقى، القاهرة	0233370577
الهيئة العامة المصرية للكتاب	كورنيش النيل – رملة بولاق – القاهرة	25775109 – 25775000 داخلى 200 ـ 01007772711 ـ 01223100145
وكالة الأهرام للتوزيع	مؤسسة الأهرام – شارع الجلاء – القاهرة	27705019 (202+) 25786622 (202+)
شركة المكتبة الأكاديمية	121 ش التحرير – الدقى الجيزة	01125043188 ـ 01002515013/14 ـ 33362341/2
مكتبة عمر بوك ستور	15 ش طلعت حرب – أعلى مطعم فلفة ـ القاهرة	0223960047 ـ 01003361217
مكتبة آفاق للنشر والتوزيع	4 ش محمد مظلوم- تقاطع هدى شعراوى وسط البلد – القاهرة	02 23926114 01003434967
دار الثقافة الجديدة	32 شارع صبرى أبو علم – باب اللوق – القاهرة	23922880
مؤسسة دار التحرير للطبع والنشر شركة التوزيع المتحدة الجمهورية	إدارة التسويق 21 شارع قصر النيل – 3 شارع طلعت حرب – 111 شارع رمسيس	01150575075 3901617 3923749
مؤسسة دار المعارف	27 شارع عبد الخالق ثروت وسط البلد – القاهرة	23936123
	9 شارع كامل صدقى بالفجالة	25905948
مكتبة مدبولى	6 ميدان طلعت حرب القاهرة	+20225756421
مكتبة دار حراء	33 شارع شريف القاهرة	23928963 01010524112
دار البلسم للنشر والتوزيع	128 شارع قصر النيل – الدقى – الجيزة – جمهورية مصر العربية	37627147 (202+)

دار نشر

أنباء روسيا

Russia News

russiannewsar.com

www.russiannewsar.com

والمؤسسة المصرية الروسية
للثقافة والعلوم

www.a-rfcs.org

رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير

د. حسين الشافعى